

٤

رسائل جامعية

أميرة علي المداح

العثمانيون والإمام القاسم بن محمد بن علي في اليمن

١٠٠٦هـ/ ١٥٩٨م

١٠٢٩هـ/ ١٦٢٠م

الطبعة الأولى

١٤٠٢هـ - ١٩٨٢م

اهداءات ٢٠٠١

الأستاذ الدكتور / عبد الفتاح منصور

لأستاذي الدكتور عبد الفتاح ...
أقدم اليك هذا العمل المتواضع
وقد خرج الى الطبع ارجو ان ينال اعجابك
أميرة

تهامة
TIHAMA

رسائل جامعية ٤

أميرة علي المداح

العثمانيون
والإمام القاسم بن محمد بن علي
في اليمن

١٠٠٦هـ/ ١٥٩٨م
١٠٢٩هـ/ ١٦٢٠م

الطبعة الأولى
١٤٠٢هـ - ١٩٨٢م
جدة - المملكة العربية السعودية

بسم الله الرحمن الرحيم


الناشر
تهامة
جدة - المملكة العربية السعودية
ص.ب ٥٤٥٥ . هاتف ٦٤٤٤٤٤٤

العثمانيون

والإمام القاسم بن محمد بن علي في اليمن

مقـــدمة

الحمد لله الذى علم بالقلم ، علم الانسان مالم يعلم ، والصلاة والسـلام على سيدنا محمد صلى الله عليه وسلم القائل : « طلب العلـم فريضـة على كل مسلـم ومسلمة » ، وعلى آله وصحبه ومن سار على هديه إلى يوم الدين ٠

أما بعد :

كانت رغبتى وأنا فى السنة الثانية منهجية أن أقدم بحثا عن وطنى المملكة العربية السعودية ، وخاصة عن منطقة الحجاز ، اعتقادا منى أنها لم تنل حقها من بحـث الباحثين ، واخترت الموضوع بالفعل ، وكان عنوانه « الحالة الاقتصادية لبلاد الحجاز فى العصر العثمانى » وأرسلت به إلى مجلس الكلية للموافقة عليه ومناقشته ، ولكن فى ضوء فكرة التنسيق ومراعاة احتياجات القسم ، فقد اختير لى موضوع آخـر وهـو (العثمانيون والامام القاسم بن محمد بن على) ففكرت مليا ٠٠ وقد أسعدنى هذا الاقتراح لأن هذه الفترة بالذات ، فترة خطيرة فى تاريخ اليمن بصفة خاصة ، وتاريخ الجزيرة العربية بصفة عامة ، وذلك يرجع لأهمية الغرض الرئيسى من وراء مد السيطرة العثمانية على اليمن حينذاك ، وهو اتخاذها قاعدة أمامية لصد الغزو البرتغـالى عن الحرمين الشريفين ، والدفاع عن البحر الأحمر ٠

وقد أعجبت بهذا البحث الذى اقترحته علىّ الجامعة للحصول على درجة الماجستير لأسباب عدة ، منها : أنه برغم أهمية الامام القاسم بن محمد واتصال أحداث دولته بتاريخنا الحديث فان أحدا لم يتعرض له بالبحث بصورة لائقة به كمؤسس دولة لها أهميتها فى التاريخ الحديث ، وظلت سيرته فى سبات يكتنفها كثير من الغموض ويجهل تاريخه الكثيرون ، وان ما كتب عنه ـ هو قليل جدا ـ لم يكن سوى إشارات عنه فقط ، عدا المخطوطة التى تحدثت عن سيرته وهذه ليست فى متناول الجميع ، وليست بالسهلة التى يتسنى لكل شخص قراءتها ٠

يضاف لذلك أنه عندما يشار إلى اسم الامام القاسم بن محمد ، فانه كثيرا ما يظن أنه « محمد بن القاسم » فاتح الهند فى العصر الوسيط الاسلامى ، لذا كان من واجبى كباحثة أن أظهر هذه الشخصية الهامة المغمورة وما لها من دور عظيم فى تاريخ اليمن ، فرغم عزلة اليمن المعروفة فى تلك الفترة فاننى أؤمن بأن تاريخه لا ينفصل عن تاريخ الجهات المجاورة من الجزيرة العربية ثم انى إحدى بنات شبه الجزيرة العربية ، تلك الجزيرة التى لم تأخذ حقها من الباحثين فى البحث والتنقيب عن تاريخها المغمور ، وخاصة اليمن ، فان الفكرة الشائعة فى العصر الحديث عنها أنها من الدول المتخلفة رغم مالها من ماض مجيد وحضارة شامخة ٠

ولست أريد أن أذكر أن هذا البحث جديد على الدراسات الجامعية ، ولكنى أذكر أن اتجاهى لهذا البحث نتج عن ملاحظتى لحاجة المكتبة العربية للمؤلفات المنهجية ، والأبحاث العلمية الجادة التى تشمل تاريخ اليمن ، وخاصة فى عهد الامام القاسم ابن محمد والدولة العثمانية ، وماله من دور عظيم فى تأسيس الدولة القاسمية التى استطاعت أن تحكم اليمن وتخرج العثمانيين منها ، وفى رسالتى هذه تناولت أوضاع اليمن السياسية والاقتصادية والاجتماعية ٠

فالبحث فى هذا الموضوع قد أفادنى كثيرا ، إذ تمكنت من الاتصال بتراثنا الثقافى العريض الذى لم ينشر بعد ، وقادتنى هذه الدراسة إلى التعرف على المخطوطات العربية وأنواعها وأهميتها ، وكيفية الاستعانة بها ، إلى غير ذلك مما لم يتيسر لى الاحاطة به من قبل ، وفى هذا المجال تجدر الاشارة إلى أمر هام كان له أثره فى تيسير ما

يعترض الباحث من صعوبات إزاء الاطـلاع على هذا النـوع من المراجـع ، وهـو المخطوطات كما كان له أثره كذلك فى تيسير دراسة تلك الفترة ، إذ أن استاذى المشرف طلب منى قبل البدء فى الرسالة الاطلاع على مخطوطة « النبذة المشيرة فى سيرة الإمام القاسم بن محمد » لمؤلفها الجرموزى ، تحت إشراف سيادته ، فساعدنـى ذلك على التعرف على المخطوطات من ناحية ، وعلى ملامح موضوع الرسالة من ناحية أخرى ، لاتصال هذه المخطوطة بالموضوع اتصالا مباشرا •

ولم يكن الأمر سهلا أمامى عندما بدأت البحث ، اذ قامت عدة صعوبات تمثلت فى قلة المراجع والمصادر وعدم توفرها فى المكتبات من جهة ، ويرجع بعضها الآخر إلى الموضوع نفسه لأنه لم يكن لدىَّ الفكرة الواضحة عن الإمام القاسم نفسه ، أضف إلى ذلك أن المراجع التى حصلت عليها بعد جهد ومشقة ، كانت مختلفة فى أنواعها ، وفى تنوع اهتماماتها ، وإن يكن هذا من ناحية اخرى ، عامل قوة فى هذه المراجع ، اذا جاز لنا أن نقوم بتقييمها فى هذا المجال •

فمجموعة المصادر تضم القديم الذى عاصر موضوع الرسالة ، كما تضم كتب المحدثين ، وكلا النوعين يحتاج إلى نظرة خاصة عند الرجوع إليه والأخذ منه ، فالمراجع القديمة التى عاصرت الأحداث تميزت بأصالتها وغزارة مادتها وقربها من تلك الأحداث غير أن هذا لا ينفى اشتمالها على كثير من التفصيلات المطولة ، والآراء المنحـازة ، والاضطراب والتناقض ، وهذا التناقض بين ايجابيات هذا النوع من المراجع ، وبين سلبياته كان يحملنى على التريث والحذر عند استخراج المادة التاريخية اللازمة ، كما كان يلزمنى القيام بتمحيص المعلومة ومقارنتها بغيرها ، وذلك ببطء وتروٍّ شديدين حتى أستطيع فى نهاية الأمر أن أرسم خطوطا مستقيمة لأجزاء الرسالة ، وكتب المحدثين لها أيضا حسناتها وسيئاتها ، فمن حسناتها أنها أكثر تنظيما ودقة من كتب الأقدمين ، كما أنها تقدم تفسيرات وتحليلات ، فى بعض الاحيان ، غير أن هذه الكتب تقصر عن تقديم المادة التاريخية الكافية ، بل وإنها تقدم دراساتها بوجهة نظر خاصة ، قد تكون مغرضة فى كثير من الأحيان ، مما كان يدفعنى إلى الوقوف أمامها بحذر وتيقظ عند الرجوع إليها •

وبالاضافة إلى الفروق المختلفة بين مراجع الرسالة فان مؤلفيها ينتسبون إلى جنسيات ومدارس متنوعة ، ولذلك فقد كان لكل منهم نافذته الخاصة التى ينظر منها إلى الأحداث ، ويتضح ذلك إذا نظرنا إلى الخلافات التى ظهرت بين مؤلفى المخطوطات التى رجعنا إليها والتى سوف أتحدث عنها بشىء من التفصيل فى ملحق خاص فى نهاية الرسالة .

وعلى مدار هذا البحث اتبعت منهجا علمياً محددا تمثل فى محاولتى المستمرة لارجاع تفصيلات الموضوع لأصولها الأولى وجذورها المتفرعة ، وهذا ما جعلنى أحاول معرفة طبيعة البيئة اليمنية ، التى شاعت فيها ضروب مختلفة من المذاهب والاتجاهات ، وجدت لزاما علىّ أن أقوم بدراستها والتعرف على نظرياتها التى اتخذت أساسا لنظم الحكم فى اليمن ، وأثرت تأثيرا عميقا فى تاريخه الحديث .

كما حاولت أن أعرف أبعاد الصلة التى تربط الأحداث الجارية داخل اليمن بالتغيرات التى كانت تطرأ على الأوضاع القائمة فى عاصمة الدولة العثمانية ، بل وبالتطورات التى كانت توجه الأحداث العالمية فى ذلك الحين ، ايمانا منى بأن التاريخ الحديث والمعاصر يختلف عن العصور التاريخية السابقة بأنه تاريخ أكثر عالمية وشمولا .

وقد بذلت جهدى لتخليص نفسى أثناء كتابة هذا البحث من عوامل الرضا أو السخط ونوازع الحب أو الكره ، حتى تكون كلمتى فى الموضوعات التى طرقتها موضوعية خالصة ، مبعثها الضوء الذى تجمع أمامى من حقائق أكدتها وثائق واضحة ودعمتها مصادر دقيقة وأثبتتها المقارنة والتحليل .

وكيفما كان الأمر ، فقد قسمت الرسالة إلى تمهيد وخمسة فصول ، وقد خصصت التمهيد لدراسة الأوضاع التى كانت عليها اليمن قبل ظهور دعوة الإمام القاسم ابن محمد ، وكانت إرهاصا لهذه الدعوة ، كما أننى خصصت الجزء الأول من هذا التمهيد للتحدث عن المذهب الزيدى ونشأته لما له من دور خطير فى حياة أهل اليمن ، فعلى أساس نظرياته قام حكم الأئمة فى اليمن وكان سببا فى إثارة الاضطرابات التى سادت اليمن فى عهد الإمام القاسم بن محمد الذى نحن بصدد الحديث عنه .

وفى الفصل الأول من الرسالة ، قدمت تفصيلات واضحة عن نشـأة الامـام القاسم لما لهذه النشأة من أثر على الامام القاسم ، فجعلته مؤسس أول دولة زيدية استطاعت أن تخرج العثمانيين سنة ١٦٣٥ م ويكون لها الدور الرئيسى فى تاريخ اليمن حينذاك •

كما قدمت تفصيلات عن ظهور دعوته سنة ١٠٠٦ هـ وما واجهه من صعـاب ومشاكل لأن الأمر لم يكن سهلا أمامه ، فقد صادفته كثير من الانتكاسات والعقبات التى أوضحتها فى الفصل الأول والثانى والثالث،وقد وقفت الدولة العثمانية تحاربه بشتى الوسائل واستعملت فى ذلك الأمراء اليمنيين الموالين لها للايقاع به ، بالاضافة إلى مواقف بعض الأمـراء اليمنيين المناوئـين لدعوتـه مثـل الأمـير عبدالـرحيم ابن عبدالرحمن ، وهذه الدعوة قد مرت بأربع نهضات كما ذهب إليه صاحب سيرة الامام القاسم ـ الجرموزى فى مخطوطه اذ قال : « للامام أربع نهضات : الأولى من الدعوة إلى خروجه من شهارة الى برط ، والثانية من خروجه من برط إلى انعقاد الصلح بينه وبين سنان ثم جعفر باشا والثالثة خروجه على جعفر باشا بعد موت إبراهيم باشا ، والرابعة خروجه على محمد باشا ويعقبها وفاته » [(١)] •

ومن الغريب أن خطة البحث قد وضعت قبل الاطلاع على هذا المخطوط وجرى فيها تحديد النقاط الهامة بما اتضح بعد ذلك أنه يتمشى تماما مع وجهة نظر الجرموزى •

وقد التزمت هذا التقسيم فى الفصول ، الأول ، والثانى والثالث والرابع وذلك لدقة هذا التقسيم عند عرض الأحداث ، وأضفت فصلا خاصا هو الفصل الخامس عن الحالة فى الآستانة لكى أحاول أن أربط بين التغيرات التى كانت تطرأ على الأوضاع القائمة فى عاصمة الدولة العثمانية والأحداث الجارية فى اليمن ، ثم ختمت الرسالة بالتحليل والنتائج التى توصلت إليها ، خلال اطلاعى على مصادر ومراجع الرسالة ، ولذلك أهمية عظيمة ، فهى زبدة الموضوع كله •

وقد حرصت فى دراسة هذه الفصول الخمسة على ألا أقف عند ذكر الأحداث

---

(١) المطهر بن محمد الجرموزى ـ النبذة المشيرة فى سيرة الإمام القاسم (مخطوط) ص ١٣٦

السياسية وتطورها ، لأنى فهمت التاريخ على أنه العلم الشامل ، ولذلك عنيت أيضا بالنتائج الاجتماعية والاقتصادية والعلمية ، واتبعت أسلوب التحليل التاريخى ، هذا من ناحية ومن ناحية أخرى كنت أجد نفسى أحيانا مضطرة إلى تفصيل بعض الأحداث والوقوف عندها أكثر من غيرها ، ولقد كان ذلك راجعا إلى طبيعة موضوع الرسالة من ناحية ، وإلى أنه كان من الموضوعات التى لم تدرس من قبل دراسة علمية حديثة ، ولذلك كان علىّ أن أهتم مثلا بتصور خريطة جغرافية لليمن معاصرة للموضوع ، لأنه من الملاحظ أن أكثر من كتب عن اليمن ، أهمل وضع الخرائط التى تبين مواضع البلاد ٠

وأخيرا فاننى أرجو أن أكون قد تمكنت من خدمة تاريخنا العربى الحديث بهذا البحث المتواضع ٠

والله ولى التوفيق ٠٠

المؤلفة

التمهيد

أ- نبذة عن الإمامة الزيدية.

ب- إنهاء إمامة أولاد المطهر بن شرف الدين، وأسر الإمام الحسن.

ج- فترة الاستقرار.

ساعد المذهب الزيدى على خلق وحدة بشرية مترابطة فى تاريخ اليمن منذ ظهوره ، فقد قامت بعض الدول القوية على أساسه ، واستطاعت أن تمد نفوذها على مناطق واسعة فى جنوب الجزيرة العربية وأن تنشر الأمن والاستقرار هناك ، وظهرت أهمية هذا المذهب فى فترة الحكم العثمانى الأول وما يليها ، اذ كان هو التنظيم القوى الوحيد الذى اصطدم به العثمانيون فى اليمن ، وكان الصراع الدموى بين السادة اليمنيين الساعين لاقامة الإمامة وبين العثمانيين ، حتى فى الوقت الذى سيطر فيه العثمانيون على العاصمة اليمنية صنعاء ، فان ذلك لم يعطهم سيطرة فعلية على اليمن بأكمله ، فقد ظلت الإمامة الزيدية فى الشمال[١] ، وكانت صعدة حصنها الحصين ، تواصل وجودها وتؤكد حقها فى الحكم .

وسوف نرى أن الدولة القاسمية التى وضع أساسها الامام القاسم بن محمد ، تعتبر بحق من أحسن الأمثلة للعصبية التى أشار اليها ابن خلدون فى مقدمته المشهورة بأنها ضرورية لقيام الدول ، والتى ربط بينها وبين قوة الدولة[٢] ، ولكن يجب القول ان العصبية الزيدية لم تكن دائما عاملا ايجابيا فى قيام تنظيم سياسى فى اليمن فحسب ، بل كانت أيضا عاملا سلبيا ، وعامل اضطراب ، وهذا ما دفع هانز هلفرتز Hans Helfirts إلى القول بأن « أهم أسباب اضطرابات اليمن أيام الحكم العثمانى هو تعلق اليمنيين بفكرة الامامة ، فالمذهب يبيح بطبيعته فرصة التنازع بين أبناء بيت علىّ على الإمامة ، فيظهر العديد من الادعياء وتزيد الفوضى والاضطراب طالما

(١) الشمال : اليمن الأعلى .

(٢) مقدمة ابن خلدون ص ١٨٠

كانت السلطة العليا ضعيفة »[1] ولكى نتحدث عن الزيدية ودورها الكبير بشىء من الدقة والعمق يجب أولا أن نتعرض لمبادئها وأصولها .

فالزيدية هى إحدى فرق الشيعة ، والشيعة لغة هم الصحب والأتباع ، وهم فى عرف الفقهاء والمتكلمين أتباع علىّ وبنيه .[2]

ويمكن القول ان الشيعة نشأت ابتداء فى عهد الخليفة عثمان (رضى الله عنه) . ويلاحظ أنها اتخذت أرض العراق إحدى مستقراتها الرئيسية فاذا كانت المدينة ، ومكة ، وسائر مدن الحجاز مهدا للسنة والحديث ، والشام مهدا للأموية ، فقد كان العراق موطن التشيع ، ولقد تضافرت عدة أسباب جعلت من العراق كذلك ، فالامام علىّ بن أبى طالب أقام به مدة خلافته وفيه التقى بالناس ، ورأوا فيه ما أثار تقديرهم ، وإلى هذا أشار ابن ابى الحديد عند حديثه عن الأسباب التى جعلت العراق وجعلت من سكانه أهل بصر وتدقيق ولذلك لن يكون عجيبا حين نرى الامام القاسم يفكر فى اللجوء إلى العراق حين تعرضت حركته للخطر فى مرتفعات اليمن .[3]

والشيعة جميعا متفقون على أن الامامة ليست من المصالح العامة التى تفوض إلى نظر الأمة ، بل إن الامام يتولى بالتعيين ، وهم يستدلون على ذلك بنصوص يؤولونها على مقتضى مذهبهم .[4]

ومن الشيعة من يرى أن هذه النصوص تدل على علىّ وتشخصه ، وأن الإمامة تنتقل منه إلى من بعده ، وهؤلاء هم الإمامية ، وهم يتبرأون من الشيخين ، حيث انهما لم يقدما عليا ويبايعاه ، ومنهم من يقول إن هذه الأدلة انما اقتضت تعيين علىّ بالوصف لا بالشخص ، والناس مقصرون حيث لم يضعوا الوصف موضعه وهؤلاء هم الزيدية ، وهم لا يتبرأون من الشيخين ، لأنهم يجوزون إمامة المفضول مع وجود الأفضل ، ثم اختلفوا فى نقلها بعد علىّ ، فمنهم من ساقها فى ولد فاطمة بالنص عليهم واحداً بعد واحد وهؤلاء يسمون الإمامية ، نسبة الى مقالهم باشتراط معرفة الامام

---

(١) السيد مصطفى سالم : تكوين اليمن الحديث ص ٢٦

(٢) مقدمة ابن خلدون ص ١٧٥

(٣) أبوزهرة : الامام زيد ص ١٠٨

(٤) محمد البحراوى ـ فتح العثمانيين عدن ص ٣٠

وتعيينه ، ومنهم من ساقها فى ولد فاطمة لكنه بالاختيار من الشيوخ[١] .

وقد ساق الزيدية الإمامة على مذهبهم فيها ، وأنها باختيار أهل الحل والعقد لا بالنص ، فقالوا : بالامامة لعلىّ ثم ابنه الحسن ، ثم أخيه الحسين ، ثم ابنه على زين العابدين ، ثم لابنه زيد بن على ، وهو صاحب هذا المذهب وخرج بالكوفة داعيا إلى الإمامة فقتل ، بعد أن أوصى إلى محمد بن عبدالله بن حسن بن الحسن السبط ، ويقال له (النفس الزكية) وهو محمد بن القاسم بن على اخو زيد بن على ، فخرج هذا فى الطالقان فى أيام المعتصم وقال آخرون من الزيدية إن الامام بعد محمد بن عبدالله هو أخوه ادريس الذى فر إلى المغرب ومات هناك ، وكان من عقبه ملوك المغرب[٢] .

أما الإمامية ، فساقوا الإمامة من على الرضا إلى ابنه الحسن بوصية ، ثم إلى أخيه الحسين ، ثم إلى ابنه زين العابدين ، ثم ابنه محمد الباقر ، ثم إلى ابنه جعفر الصادق ، ومن هنا إلى ابنه موسى الكاظم، وهم الاثنا عشرية لوقوفهم عند الثانى عشر من الأئمة ، وقولهم بغيبته إلى آخر الزمان ، ومنهم من نقل الإمامة إلى اسماعيل ، ثم ابنه المكتوم وهو أول الائمة المستورين ، لأن الامام عندهم قد لايكون له شوكة فيستتر ويسمى هؤلاء تارة بالاسماعيلية ، نسبة إلى قولهم بامامة اسماعيل ، ويسمون ايضا بالباطنية[٣] .

ومؤسس المذهب الزيدى هو الإمام الوالى السعيد زيد بن علىّ بن الحسن بن علىّ ابن أبى طالب « رضى الله عنهم جميعا » .

ولد زيد رضى الله عنه سنة ٨٠ هـ ولم يذكر العلماء تاريخ مولده ، ولكن جلّ الروايات تدل على أنه قتل شهيدا فى الميدان (للدفاع عن الحق) سنة ١٢٢ هـ أى فى خلافة هشام بن عبدالملك ، وأجمع المؤرخون على أن سنه يوم مقتله لا تتجاوز الثانية والأربعين ، ويقال ان أمه كانت من السند ، أهداها لأبيه المختار الثقفى ، وكانت ذات تأمل وفكر وزهد ، وذكاء وعلم واسع[٤].

---

(١) ابن خلدون ـ مقدمة ابن خلدون

(٢) هارولد ف . يعقوب ـ ملوك شبه جزيرة العرب ص ١٢٨

(٣) مقدمة ابن خلدون ص ١٥٨

(٤) أبوزهرة ـ الامام زيد ص ٢٢

أما مؤسس المذهب الزيدى فى اليمن ، فهو الإمام الهادى إلى الحق يحيى ابن الحسين بن القاسم الرسى ، ولد فى سنة ٢٤٥ هـ بجبل الرس من جبال المدينة المنورة قرب ذى الحليفة ، حيث كان أبوه وجده وأهله وذووه ، يعيشون هناك ، بعيدين عن التيارات المذهبية ، وعن أعين الرقباء ، وخفية عن الدولة العباسية . وكان جده القاسم بن ابراهيم قد خرج إلى اليمن متنكرا ، ثم عاد الى المدينة ، فنشأ الهادى نشأة تقوى وصلاح ، وعفاف ودين ، ثم انتقل إلى العراق ، فتتلمذ على أبى القاسم البلخى ، ثم عاد من العراق إلى الرس ، وقد امتلأ أفكارا عن حياة العراق وترفها وعيشة أهلها وحضارتها ، وبهرته قصور الخلفاء العباسيين وما يتمتعون به ، وهم الذين لم يكتفوا بسلب الخلافة فحسب فى رأيه ، بل وتناولوهم بالقتل والتشريد ، فثارت فيه نعرة الانتقام وحرارة الثأر ، وقد ذهب إلى آمل بفارس حيث كان قد رحل من أقاربه إلى هناك محمد بن زيد ، واستعان بالناصر الاطروشى وتزعم الاثنان حركة المقاومة ضد العباسيين ، ورأى الهادى أن يشترك فى المعارك ، فارتحل الى آمل ببلاد فارس ، ولكنه سرعان ما اصطدم بخيبة الأمل ، فعاد أدراجه ، ولكن اليأس لم يخامره ، فارتحل إلى اليمن سنة ٢٨٠ هـ ودخل صعدة وتعرف على أهلها ، ولكنه لم يجد الضالة المنشودة ، اذ لم يكن الوقت قد حان لبث دعوته ولكنه بذر البذرة الأولى[١] .

تركت الرحلة الأولى للهادى فى نفوس أهل اليمن أثرا بعيدا فأوفدوا فى موسم سنة ٢٨٣ هـ وفدا حمل رسائل من زعمائهم يستدعونه ويتعهدون بنصرته ، ويقبلون كل شرط يطلبه منهم ، فاستجاب لرغبتهم ، ووصل خولان ٦ صفر سنة ٢٨٤ هـ ودخل فى صراع مع قبائل خولان وهمدان والقرامطة وبنى يعفر[٢] .

وبعد أن استقر فى صعدة جمع أهلها وما جاورها على حكم واحد ، وحقق قدرا من الأمن بين ربوعها ، وسار الهادى فى حكم ما تحت يده من البلاد اليمنية على سنة العدل ، مما جعل الأهلين يرون فيه مظهرا لحكم الاسلام ، ولذلك سار أهل اليمن

(١) ابن ديبع - قرة العيون ص ١٧١

(٢) ابن ديبع - قرة العيون ص ١٦٨ ، ١٧١

وراءه طائعين لا كارهين ، ولا مجبرين[1] ، وظلت تلك الحال إلى أن وافاه الأجل يوم الأحد ١٠ ذى الحجة سنة ٢٩٨ هـ عن ثلاث وخمسين سنة ٠

أدى ذلك إلى إنقسام أهل اليمن إلى قسمين : شيعة زيديين ، وسنة شافعيين ، وساد المذهب الأول فى الجبال والمرتفعات ، وتركز حول صعدة بينا ساد المذهب الثانى فى الجهات المنخفضة ، أى فى تهامة ، وتركز حول زبيد ، وشبت بين المذهبين حروب وصراعات ، ومع أن المذهب السنى كان يتلقى عونا خارجيا تمثل فى سيطرة الأيوبيين ثم العثمانيين من بعدهم ، وقام ملك تمركز فى زبيد ضد الإمامة الزيدية ، فان الإمامة لم تخضع ولم تلق سلاحها ولم يكن خضوعها فى فترات معينة خضوعا طبيعيا أو سلميا ، لأنها لم تكن تلبث أن تشعل الحرب تلو الحرب حتى انتهى الأمر بالقضاء التام على كل العوامل المناوئة لها ، وهذه النهاية ، هى التى وضع أساسها الامام القاسم ابن محمد ، الذى نحن بصدد التأريخ له ، ولذلك جاء دوره فى تاريخ اليمن وفى شبه الجزيرة العربية جد خطير[2]

لذلك يمكن القول بأن فكرة تعليل استمرار اضطرابات اليمن فى العهد العثمانى بتعلق اليمنيين بالإمامة الزيدية ، هى فكرة صحيحة إلى حد بعيد ٠ ومن المعروف أن الامام الهادى الرسى قد اعتمد ، بعد أن استقر له الأمر ، على رؤساء قبيلة همدان ، لتوطيد أقدامه فى المنطقة الشمالية ، وقد ساعدت ظروف المنطقة الجبلية الشمالية ، بامكانياتها الطبيعية المحدودة على انتشار هذا المذهب هناك ، وسوف نرى ، فيما هو آت ، أن بعض القبائل كانت تشترك فى حروب الأئمة من أجل الحصول على الاسلاب والغنائم ، وكانت قبائل أخرى تدخل فى طاعة الامام حتى يشتد ساعدها فى خروجها على جيرانها ، وفى بعض الأحيان كانت إحدى القبائل تغرى احد الأئمة على إعلان دعوته من إقليمها حتى يكون لها السطوة والنفوذ عند نجاح هذه الدعوة ٠

وتجدر الاشارة هنا إلى أن ظهور المذهب الزيدى فى شمال اليمن ، قد أدى إلى ازدياد هجرة أسر الاشراف إلى هذه الجهات ، واتخاذها موطنا لهم ، وأدى هذا بدوره إلى

---

(١) أبوزهرة ـ الامام زيد ص ٢٩٨
(٢) محمد البحراوى ـ فتح العثمانيين عدن ص ٢٠٤

اغناء المذهب بالكثير ممن ينطبق عليهم شروط الامامة ولذلك تمكن المذهب من البقاء فى اليمن بالرغم مما تعرض له من أخطار طوال العصور الوسطى والحديثة .

أما شروط الإمامة فى المذهب الزيدى فأهمها أن يكون الامام مكلفا ، ذكرا ، حرا ، مجتهدا ، علويا ، فاطميا ، عدلا ، سخيا ، ورعا ، سليم العقل ، سليم الحواس ، سليم الأطراف ، صاحب رأى وتدبير ، مقداما فارسا .

وأهم هذه الشروط كما يبدو لنا وفى نطاق موضوع البحث ، هو قول الزيدية ان الإمامة بعد الحسن والحسين شورى فى ولديهما ، فمن خرج منهم شاهرا سيفه ، داعيا إلى دينه وكان عالما ورعاً فهو إمام ، فالزيدية تنفى الوراثة . والاجتهاد عندهم هو العلم ، والعلم هو التفقه فى الدين ، والحديث والفقه واللغة والعلوم الكونية ، وكان شرط الإمامة بالسيف سببا فى فتح الباب للحسن والحسين على السواء ، فشروط الإمامة عند الزيدية خير كبير لولا شرط السيف الذى أنزلوه منزلة الشورى والمبايعة ، ولو انهم انتخبوا الامام وبايعوه على طريقة الصحابة (رضوان الله عليهم) لجاء اختيار الامام هادئا ولكنهم جعلوا الإمامة غنيمة لمن يأخذها بالسيف اى اشهار السيف بين أسر الأشراف جعل الإمامة فى نظر الآخرين كأنها غنيمة .[1]

وكان هذا هو السبب الأكبر فى الفتن والحروب ، وعدم الاستقرار فى تلك البلاد ، واشتراط الامام زيد أن يخرج الامام داعيا لنفسه معناه أنه هجر مبدأ التقية ، الذى كان قد التزمه آل البيت بعد مقتل الامام الحسين ، كما أجاز الزيدية خروج امامين يستجمعان هذه الخصال فى قطرين ، ويكون كل واحد منهما واجب الطاعة ، وذلك لاتساع الدولة الاسلامية ، وأجازوا أيضا أمرا هاما كما أشرنا ، وهو أن الامام ليس من الضرورى أن يكون أفضل الموجودين ، بل يجوز أن يكون المفضول إماما ، والأفضل قائما فيرجع إليه فى الأحكام ويحكم بحكمه فى القضايا[2] .

أجمعت الزيدية على أن معرفة الامام علىّ واجبة على كل مكلف ، أما بالنسبة لمن تقدمه من الخلفاء الثلاثة ، فزيدية اليمن لا تنكر عليهم شيئا من ذلك لجواز قيام

---

(١) محمد البحراوى ـ فتح العثمانيين عدن ص ٣٣

(٢) السيد مصطفى سالم ـ تكوين اليمن الحديث ص ٢٧

المفضول مع وجود الأفضل للمصلحة ، ولمبايعة الامام عليّ لهم ، ومنهم من يوقف تخطئتهم على عملهم أى أنهم اذا كانوا غير عالمين باستحقاقه دونهم بعد التحرى ، فلا اثم عليهم وان أخطأوا ، لأن كل مجتهد مصيب ، وهذا هو قول الامام القاسم بن محمد فى كتابه الأساس [1] ٠

اننا نلاحظ أن الزيدية ليست سلالة واحدة متصلة ولكنها محدودة فى بيت معين ، وهم لا يأخذون بما نستطيع أن نسميه الانتخاب والاختيار للحاكم ، وان كانوا يحصرونه داخل نطاق محدود ، ولكن هذه المبادىء نفسها تسمح بوجود ثغرة فى بنائها الأساسى ، وسمحت بتأويلات وتفسيرات كثيرة كان الغرض منها اختيار الأصلح من بين هؤلاء الأفراد لإمامة الزيديين ، ولكن هذا الشرط نفسه كان عونا لبعض الطامعين منهم فى الخروج على الامام القائم بالأمر وهذا ما جعل بعض المؤرخين [2] ، يشيرون دون ادراك كامل لحقيقة هذا الشرط أن الإمامة عندهم غنيمة لمن يأخذها بالسيف [3] ٠

وقد أدى هذا المبدأ دون شك إلى قيام كثير من الفتن والاضطرابات منذ دخول المذهب الزيدى إلى اليمن ، ومعنى تعدد الإمامة هو انقسام البلاد إلى أقسام متصارعة ٠

والزيدية فرق هى : الجارودية والسليمانية ، والبطرية ولا داعى للدخول فى تفصيلات كثيرة عن هذه الفرق ، والذى يهمنا من ذلك فيما يتعلق بموضوع بحثنا هو أن الزيدية أعدل هذه الفرق لأنهم يرون أن عليا أحق بالخلافة من أبى بكر وعمر ولكنه أما وقد اجتمع أكثر الصحابة على بيعة أبى بكر وعمر ، فلابد أن يعترف بامامتهما ، لأن الصحابة اذ ذاك قد رأوا الظروف المحيطة بهم ٠

واذا كان الامام زيد (رضى الله عنه) لايفرض إمامة الأفضل دائما ، ولا يفرض أن الخلافة تجىء بالوراثة أو الايصاء ، فانه لايمكن أن يفرض عصمة الأئمة اذ أن

---

(١) الشرفى ـ اللآلىء المضيئة ص ١٢٣

(٢) منهم أمين الريحانى فى كتابه ـ ملوك العرب

(٣) السيد مصطفى سالم ـ تكوين اليمن الحديث ص ٢٨

فرض عصمة الأئمة من الخطأ أساسه أن يكون توليهم من النبى ﷺ والنبى ﷺ ما كان يتصرف الا بوحى يوحى إليه ، وما كان من المعقول أن يختار النبى ﷺ لهم بأمر من ربه إماما يجرى عليه الخطأ فى أحكامه[1] .

أوجب الشيعة على الامام سبعة واجبات هى : إقامة الجماعات والحدود ، ونصب الحكام ، وتنفيذ الأحكام ونصب الولاة للمصالح والأيتام ، وغزو الكفار ، وأخذ الحقوق كرها ، وتسهيل الحجاب حتى يتصل به الضعفاء والمساكين لقضاء حوائجهم ، وتقريب أهل الفضل وتعظيمهم واستشارتهم ، وتعهد الضعفاء والمصالح ، والا يتنحى ما وجد ناصرا من المسلمين لا من غيرهم ، وأن يؤمر على السرية أميرا صالحا لها ، وأن يدعو الكفار إلى الاسلام قبل مقاتلتهم وتقديم دعاة البغاة إلى الطاعة فان أبوا أوجب الحرب إن ظن الغلبة[2] .

تشعب المذهب الزيدى نتيجة اعتناق أناس له فى العراق وفى الجزيرة العربية ، وفى خراسان ، وكثيرين فى اليمن ، إذ ان كل اقليم قد صبغ المذهب بصبغته فى السياسة ، وفى الفقه ، حتى صار يظن أن الزيدية مذاهب وليست مذهبا واحدا قد استقامت اصوله وتفرعت فروعه ، وإذا كانت الزيدية قد اختلفت فى السياسة فهى فى الفقه أكثر اختلافا .

إن باب الاجتهاد فى المذهب الزيدى مفتوح ولم يغلق ، وقد كان مفتوحا فى الأصول كما هو فى الفروع ، وكتبهم تشتمل على آراء الأئمة ، وقد تبين من البحث أنها آراء جمعت مابين آراء علماء السنة وعلماء الشيعة .

وقد تبين لنا أن المذهب الزيدى يقوم على عنصرين هامين ، وهما دعامتان يرتكز عليهما ، وقد بذل الزيدية اهتماما كبيرا فى دراسة علوم هذين الأصلين ولهم فيهما أبحاث مستفيضة :

الدعامة الأولى : علم أصول الدين ويسمى عندهم علم الكلام ، أو علم التوحيد والعدل ، ويعتبرونه كما قال الإمام القاسم بن محمد فى كتابه الأساس أنه « من أجل

(١) أبوزهرة ـ الإمام زيد ص ١٨٨

(٢) احمد حسين شرف الدين ـ تاريخ اليمن الثقافى جـ ٤ ص ١٦١

العلوم قدرا ، وأعظمها حظا ، وأكبرها خطرا ، وأعمها وجوبا ، وأولاها ايثارا ، وأولها صدرا »[١] .

والدعامة الثانية : هى علم أصول الفقه ، وقد عرفه القاضى محمد بن يحيى مهران فى مقدمة كتابه (الكافل) بقوله :« أصول الفقه هو علم بأصول يتوصل بها إلى استنباط الأحكام الشرعية من أدلتها التفصيلية »[٢] .

فالاجتهاد معناه فى اللغة بذل الجهد فى الوصول إلى أمر من الأمور ، ويعرفه علماء الأصول فى الاصطلاح بأنه بذل الفقيه وسعه فى استنباط الأحكام العملية واستخراجها من أدلتها التفصيلية كالاستدلالات على تحريم الربا قليله وكثيره ، وقد عرف علماء الزيدية الاجتهاد الاصطلاحى بأنه بذل الجهد فى تعرف الحكم من جهة الاستدلال ، فكل تعرف لأمر شرعى عن طريق الاستدلال سواء أكان عقليا أم كان شرعيا فهو اجتهاد ، وشروطه : العلم بالعربية ، وبالقرآن وبالسنة ومعرفة مواضع الاجماع والعلم بالقياس وطرائقه ، ومعرفة مقاصد الأحكام الشرعية ، وصحة الفهم ، وحسن التقدير ، وصحة النية وسلامة الاعتقاد[٣] .

وبذلك يتميز المذهب الزيدى عن باقى المذاهب الشيعية أنه ليس مذهبا مغلقا بل ان باب الاجتهاد فيه مفتوح ، وقد أدى هذا على مر العصور إلى ظهور عدد من الأئمة المجتهدين الذين أثروا المذهب بمؤلفاتهم المطولة ، وبآرائهم الجديدة ، ففى أواسط القرن التاسع الهجرى ظهرت مجموعة من العلماء الذين حصلوا نتيجة ما وصل اليه السابقون الذين قاموابدراسة،كتاب (المنار) للعلامة صالح بن مهدى و(البحر الزخار) وهذان لم يقتصرا على فقه الزيدية فحسب ، وإنما شملا الفقه الاسلامى عامة وأدلة كل حكم فيه ، وعلى غرارهما وضعوا الأساس بقواعد المذاهب عملا بما تقرر لديهم من أقوال الأئمة واجتهاداتهم وفتاويهم وتقريراتهم فى جميع أبواب الفقه ، وجعلوا المذهب المختار كما قال الامام القاسم بن محمد : ما انطبقت عليه تلك القواعد والأصول من مسائل

---

(١) الشرفى ـ اللآلىء المضيئة ص ١٢٣

(٢) أحمد حسين شرف الدين ، تاريخ اليمن الثقافى جـ ٤ ص ١٣٤

(٣) أبوزهرة ـ الإمام زيد ص ٤٥٣

الفروع ، فما كان من أقوال الأئمة المتقدمين كزيد بن على والصادق ، والباقر وأمثالهم وكذا الهادى ، والناصر ، ويحيى بن حمزة ، وعبدالله بن حمزة ، وغيرهم ملائما لتلك القواعد جعلوه مذهبا وسموه : اختيارات المذهب الزيدى ، ويجمع هذه الاختيارات كتاب (شرح الأزهار)، ويتضمن أيضا اختيارات المذاهب والفرق الاسلامية الأخرى[1] .

ولذلك كان من واجبى فى بحثى هذا ألا أتعرض للامام القاسم بن محمد بالطريقة التقليدية ، وهى الاقتصار ، على دوره السياسى ، بل اتضح من البحث أن له دورا فى غاية الأهمية فى تطوير المذهب الزيدى ، وفى مجال العلم والفقه أيضا ، لانه لم يكن لزيدية اليمن حتى القرن العاشر الهجرى فقه محدد أو معين لذاته وانما كان عبارة عن مجموعة ضخمة من الموسوعات العلمية التى تتضمن الآراء والاجتهادات والترجيحات ، التى كان يستنبطها كل مجتهد من الأدلة الشرعية والعقلية ، كنتيجة لأبحاثهم العميقة ودراساتهم الشاملة كمذاهب الاسلام ، ومن المعروف أن الزيدية لم ينتسبوا لمذهب الامام زيد الا لمتابعتهم له فى مسائل خاصة تتعلق بأصول الدين ، أما الفقه وأصوله فمنهم من يوافقه فيه ، ومنهم من يخالفه ، الا أنهم جميعا وعلى الاطلاق لم يخالفوه فى وجوب الاجتهاد ويرجعون إليه الفضل فى فتح بابه وانارة سبيله،وعلى الجملة فان المذهب الزيدى مذهب يقوم على أساس البحث والاجتهاد وفى كل ما يتعلق بالأحكام الشرعية . وأهم المؤلفات التى تبين هذه الاجتهادات كتاب الاعتصام للامام القاسم ابن محمد ،الذى يبدى فيه رأيه فى مسائل فقهية ، وكذلك كتاب التجريد للمؤيد بالله .

ويعتبر المذهب الزيدى أكثر المذاهب الشيعية اعتدالا وأقربها إلى مذهب أهل السنة والجماعة ، وأهم ما يتميز به عن بقية مذاهب الشيعة عدم المبالغة فى تقديس علىّ ، كما فعل الغلاة من غيرهم من الشيعة . وقد ترتب على هذا أن مسائل الخلاف بين علماء الزيدية وأهل السنة جاءت يسيرة ، اذا قورنت بمسائل الخلاف بين بعض المذاهب الأخرى ، وهذا هو معنى أن المذهب الزيدى هو أقرب المذاهب لأهل السنة ، واذا تتبعنا

---

(١) أحمد حسين شرف الدين ـ تاريخ اليمن الثقافى جـ ٤ ص ٢١٢

تلك المسائل الخلافية فاننا نجد أن معظمها يدور حول المسائل الفرعية الظنية ، كما هو واضح فى أصول الفقه ، والمسائل الخلافية نفسها ، قد أثارت نقاشات حادة بين علماء الزيدية أنفسهم ٠

ويحدثنا السيد العلامة محمد بن اسماعيل فى كتاب (المسائل المرضية فى بيان اتفاق أهل السنة والزيدية) ، والذى أورد فيه عددا من مسائل الخلاف بين المذهبين ، أن هنالك اتفاقا بين الفريقين فى أصل المسائل ، بل انه ليس ثمة ما يصح اطلاق كلمة خلاف عليه غير ما ولدته الاجتهادات الخاطئة من جهة او أوجدته التعصبات المذهبية من جهة أخرى[١] ٠

سبقت الاشارة إلى أن اليمن بعد دخول الهادى إليها انقسمت إلى زيدية وسنية ، وبذلك لم تنعم باستقرار فى عهد من العهود التى تتابعت عليها ، ومنيت البلاد بنظام مزدوج عجيب ، لم يصب به جزء آخر من الجزيرة العربية فان الدعاة لم ينفكوا طوال هذه العهود عن نشر دعوتهم ونتيجة لذلك وجد فى اليمن نظام الملك ونظام الإمامة ، فكان الملك له مناطق نفوذه وله أجناده والامام له مناطق نفوذ أخرى وله أيضا أتباعه ، ثم تظل القوتان فى عراك مستمر وكر وفر دون الوصول إلى نتائج حاسمة وسريعة ، وحتى الإمامة نفسها كثيرا ما انقسمت على نفسها ومنيت البلاد بأكثر من إمام واحد وبحروب مستمرة وقودها الأئمة المتنازعون وعلى ذلك فان ثنائية السلطة التى سيعرف بها العصر العثمانى فى غرب الجزيرة العربية حيث كانت توجد الإمامة فى اليمن إلى جانب الوالى العثمانى ، كما يوجد نظام الشرافة أو حكم الأشراف فى الحجاز إلى جانب وجود الوالى العثمانى أيضا ، وهذه الثنائية فى كل منهما هى العامل الفعال فى تشكيل تاريخ اليمن وتاريخ الحجاز ٠

وكان الامام المطهر بن شرف الدين أكثر الأئمة مقاومة للحكم العثمانى ، فقد دخل فى كثير من الحروب مع الدولة العثمانية ، وفى سنة ٩٧٥ هـ كانت اليمن فى أشد

---

(١) أحمد حسين شرف الدين ـ تاريخ اليمن الثقافى جـ ٤ ص ٢١٠ ، ٢١٤

حالات الاضطراب وسقط الوالى مراد باشا قتيلا واستولى الامام المطهر على صنعاء[1] .

وبعد وفاة المطهر وجد الاشراف الطامعون فى الحكم بموته متنفسا للوصول إليه ، وبسط عدد من الاشراف فى القسم الأعلى من اليمن سلطتهم على ما تحت أيديهم ، وصار كل منهم لايعترف بالآخر ولا يرتبط معه بأى رابط ، واتاح ذلك للقبائل فرصة التمرد والخلاف على الولاة أنفسهم ، وقامت حروب بين الأمراء والقبائل فى مناطق عديدة وبين الأمراء فيا بينهم ، واضطربت الأمور وقام مع ذلك دعاة آخرون من الأشراف ، منهم السيد على بن ابراهيم من أولاد القاسم الرسى ، وكان محتسبا[2] ، وعرف بالعابد • والسيد محمد بن ابراهيم من أولاد القاسم الرسى ، وكان محتسبا أيضا ، وعرف بالعالم ، وكانت دعوتهما معا فى بلاد الشرف ، من بلاد حجة ، ويظهر أنهما تلازما فى الدعوة وسرعان ما تخليا عن الدعوة وانتهى أمرهما ، ثم دعا الحسن ابن على بن داود بن الحسن بن الامام على بن المؤيد جبريل فى سنة ٩٨٦ هـ وتلقب بالناصر ، كانت دعوته فى النصف من رمضان من الهجر من بلاد الأهنوم ، وكانت له فطنة فى اقتباس العلوم وتحصيل منطوقها ، درس المختصرات وأحاط بشروحها فى أكثر الأوقات حتى فى أيام اشتغاله بالجهاد فى دعوته فى أقطار اليمن،وملك عدة حصون وكانت قبائل الأهنوم وعذر فى وقته أهل قوة وكثرة وعدة وسلاح من البنادق وغيرها ، وكانوا على خلاف مع أولاد المطهر ، فأطاعوه طاعة صادقة ، وحثهم على ذلك ، وأرسل رسله بالرسائل إلى كل عالم فاضل وكتب إلى لطف الله بن المطهر وهو فى ذى مرمر « فأجاب بغير المراد فاضطربت على أولاد المطهر البلاد واهتزّ لتلك الدعوة الجبال والوهاد »[3] ، وكتب إلى محمد بن شمس الدين فلم يجب عليه ، وكتب إلى على يحيى فكانت معه الاجابة والدخول فى طاعته ، وسلمت إليه عدة حصون[4] .

---

(١) أحمد السعيد ـ معجم الاسرات الحاكمه جـ ١ ص ٢١٧

(٢) محتسبا : من اكتفى بالله عن غيره

(٣) الكبسى : اللطائف السنيه ص ١٠٩

(٤) الشرفى ـ اللآلىء المضيئة ص ٦٧

اكتفى الحسن بن داود من الأمراء آل شرف الدين بالاعتراف به فى أول الأمر ، ولم يحاول مد نفوذه إلى مناطق نفوذهم فى بلاد حجة وغيرها ، كما عمل الإمام على ابقاء بعض أبناء المطهر فى مراكزهم أملا فى تعاونهم معه ، رغم أن معارضة الأهالى لهؤلاء الحكام كانت من الأسباب التى جعلتهم يلتفون حول الإمام الحسن .

لكن الحال لم يلبث أن تبدل بين الإمام الحسن وأبناء المطهر إلى خلاف وعداء سافرين أديا إلى نشوب حروب بينهما ، ماكانت تخبو آثارها حتى تضطرم من جديد ، وسفكت فيها دماء كثيرة من الزيديين ، فان القوة الزيدية أصبحت منقسمة ، واستمر هذا الحال حتى جاء الوالى العثمانى الوزير حسن باشا سنة ٩٨٨ هـ /١٥٨٠ م .(١)

إن دعوة الإمام الحسن هنا كشفت عن مدى ضعف الأمراء الزيديين وعن تخلى الأهالى عنهم واستيائهم من حكوماتهم ، وهذا ما لمسه حسن باشا الذى تولى أمر اليمنيين فاستغل هذه الأوضاع للتخلص منهم جميعا ، ومد سيطرته إلى المناطق الشمالية .

وفى سنة ٩٩٠ هـ /١٥٨٢ م أراد حسن باشا فتح الحرب على آل المطهر والسيد أحمد بن الحسين المؤيدى صاحب صعدة ، وقد اتبع خطة سياسية محكمة لتفتيت الجبهة اليمنية التى تقف ضده ، فعمل على منع اتصال عناصر هذه الجبهة أو التعاون بين قواتها ، ومما ساعد على ذلك ضعف هذه الجبهة فى حد ذاتها ، وضعف عناصرها ، فبعد أن استولى على حصن ظفار وتحصينه لمدينة عمران ، ارسل قواته فى وقت واحد إلى علىّ يحيى ولطف الله ، وفى نفس الوقت أرسل قوات أخرى فى ظفار أمام قوات أحمد بن الحسين صاحب صعدة وذلك لتشغل كل منهم عن مساعدة الآخر .

كما فعل نفس الشيء مع علىّ يحيى بعد أن حاصر كلا من ثلا ، ومُدع فى وقت واحد ليضطر علىّ يحيى من توزيع جيوشه بين الحصنين فلا تقوى على مجابهة الجيوش العثمانية ، وقد ركز حسن باشا حصاره على حصن مُدع لأنه أكثر توسطا بين ممتلكات باقى الامراء ، فقد حط الأمير الكخيا سنان على حصن مُدع ، وحاصره من الجهات

---

(١) محمد الحداد ـ تاريخ اليمن السياسى ص ٣٢٣

الأربع ، ورغم ذلك فقد استمر حصار حصن مدع حوالى ثمانية أشهر ولم يتم تسليمه للعثمانيين الا بعد عقد الصلح مع على يحيى ، وذلك يرجع لدفاع المحاصرين عن الحصن .[1]

ولما دخلت سنة ٩٩٢ هـ / ١٥٨٤ م نقض الباشا حسن الصلح الذى بينه وبين على يحيى من غير سبب ، فوجه العساكر إلى مسور وأمر محمد بن شمس الدين صاحب كوكبان بأن يشن الغارات من جهته ، وكان ذلك ضمن الخطة التى اتبعها حسن باشا لتفتيت الجبهة اليمنية ، وتتمثل فى ضرب الزعماء الزيديين بعضهم ببعض مستغلا فى ذلك إثارة الخلافات القديمة من جهة ، واغرائهم لتحقيق اطماعهم على حساب الأمراء الآخرين من جهة أخرى ، وكانت ظروف اليمن فى ذلك الوقت تساعد حسن باشا على تنفيذ تلك الخطة ، نظرا لكثرة الخلافات والمنازعات بين الأمراء الزيديين بعد وفاة المطهر كما سبق التنويه عن ذلك .

كان فى حصن مسور« ولاة ورتبة »[2] من عهد المطهر بن الامام ، ثم جعل على يحيى على هذه الرتبة ابن أخيه محمد بن الهادى بن المطهر ، ولما كان هناك خلاف بين على يحيى ومحمد بن الهادى ، علم به حسن باشا فاستغله وأرسل لمحمد بن الهادى يغريه بان يفتك بعلى يحيى على أن يكون له حصن مسور وبلاده ، وتم الأمر على ذلك ، ولم يشعر على يحيى الا وجيوش السلطنة على مسور .

كما أننا نلاحظ الدور الذى قام به محمد بن شمس الدين حاكم كوكبان فى إضعاف المنطقة الشمالية للعثمانيين ، فقد نجح فى أن يجذب عبدالرحمن بن المطهر حاكم حجة ، ثم أخاه غوث الدين حاكم ظفار إلى صفوف حسن باشا بعد أن كانا قد وقفا إلى جانب أخيهما على يحيى عند بداية حصار مُدع . وقد رحب حسن باشا بتقريب هذين الأميرين ، بعد أن أغرى عبدالرحمن بن مطهر إن هو ارتبط به فانه يساعده على استرداد أملاكه من أيدى على يحيى التى كان قد ضمها إلى ممتلكاته فى السابق .

---

(١) عيسى بن لطف الله ـ روح الروح ـ مخطوط ص ٧١

(٢) رتبه : مجموعة من العسكر تحت امرة رئيس لهم .

كما عمل أحمد بن شمس الدين على تقريب عبدالله بن المطهر الذى كان يقيم عنده فى كوكبان بعد قيام النزاع بينه وبين الإمام الحسن ٠

وكذلك اتخذ حسن باشا وسيلة أخرى فى تنفيذ تلك الخطة لكى يبلورها فى الوقوف أمام الأمراء الزيديين الذين تصدوا له ، فقد تعمد الا يسمح لأحد من هؤلاء بأن يعتبر نفسه ممثلا للآخرين ، أو يتحدث باسمهم ٠ فبعد أن نجح فى الفصل بينهم وانشغال كل منهم فى حماية ممتلكاته ، أجبر على يحيى على عقد الصلح معه وعلى أن يكون هذا الصلح خاصا به دون أن يتضمن باقى حلفائه مثل أخيه لطف الله ، وأحمد ابن الحسين[1] وهذا ماشجع لطف الله على المجاهرة بعدائه للعثمانيين بعد أن رأى قيام التحالف بين الأمراء فى الشمال والدولة العثمانية ، وهم أحمد بن الحسين وعلى يحيى وعبدالرحمن وغوث الدين ٠ فسحب جيوشه التى كانت تقف إلى جانب العثمانيين أثناء حصار محمد بن ناصر فى حصن ظفار ، وبدأ فى تأليب القبائل ضدهم ٠

ويرجع موقف لطف الله بن المطهر هذا لقرب ممتلكاته من صنعاء العاصمة ٠ وبالتالى يصبح قادرا على تهديد طرق مواصلات العثمانيين للمنطقة الشمالية ، مما دعا حسن باشا إلى إعلان الحرب ضده ، مستعينا ببعض قبائل خولان المقربين للطف الله بعد أن أغراهم بالمال والوعود للتخلى عن لطف الله الذى كان قد استطاع أن يحرك تلك القبائل ضد العثمانيين ويجعلهم يقطعون طرق مواصلاتهم وتموينهم ٠

فقد تخلت تلك القبائل عن لطف الله وأوقعت به الهزائم ، واحتلت أحد حصونه ٠

وظل الحال كذلك إلى أن عقد الصلح مع لطف الله فى سنة ٩٩١ هـ ـ ١٥٨٣ م بعد أن يئس من مساعدة أخيه على يحيى الذى كان قد عقد الصلح بدوره مع حسن باشا على أن ينتزع ممتلكات أخيه لطف الله من بين يديه حتى يبعد خطورته عن صنعاء ، وكان ذلك ما نص عليه فى صلحه معه ٠

وهذه الخطوة مهدت الطريق أمام حسن باشا من التوجه إلى صعدة ، فقام بارسال قوة كبيرة تحت قيادة الأمير الكخيا سنان لمهاجمة أحمد بن الحسين الذى كان قد تحصن

---

(١) عيسى بن لطف الله ـ روح الروح (مخطوط) جـ ٢ ص ٩٠

بجبل الشرفة جنوبى صعدة حيث دارت الحرب بين الطرفين ، وانتهت بمقتل أحمد ابن الحسين وبهزيمة جيشه •

أدت هذه الهزيمة إلى سقوط صعدة وما يليها شمالا حتى نجران فى أيدى العثمانيين ، اذ فرت حينذاك بقايا أسرة أحمد بن الحسين لا تلوى على شىء ، إلى حصن أم ليلى القريب من صعدة ، وتحصنت به[1] فأرسل الكخيا سنان قوة صغيرة لاخضاع هذا الحصن وتفرغ هو لاخضاع باقى المنطقة الشمالية ، وبذلك تحقق أقصى اتساع للسيطرة العثمانية فى اليمن فى ذلك الوقت •

بعد ذلك تفرغ حسن باشا للقضاء على الإمام الحسن بن داود ، فبعد أن التجأ احد أبناء أحمد بن الحسين إلى الإمام بالأهنوم ، أعانه الإمام ببعض أتباعه الذين ساعدوه على مناوشة العثمانيين حول حصن أم ليلى الاّ أن سنان الكخيا استطاع أن يقضى عليهم فأرسل حسن باشا ليقرر الصلح بينه وبين الإمام كما فعل مع على يحيى ولطف الله من قبل ، الا أن الإمام لم يقبل بهذا الصلح واستعد لمقاتلة الأمير سنان ، فلم يشعر الإمام الا بجنود العثمانيين قد توسطوا جبل الأهنوم من خلفه ، فأمر أصحابه بالرجوع إلى حصن القدوم حيث حاصره الكخيا سنان ، وكان ذلك الموضع قليل الماء ، فبعد ثلاثة أيام جرت المخاطبة فى خروج الإمام وتسليم نفسه إلى الأمير سنان على أن يقيم فى صنعاء مع بعض أتباعه،فلما وصل إلى صنعاء أودع السجن ومعه الشيخ وهان العذرى والفقيه محمد بن يحيى سلامة وذلك فى رمضان سنة ٩٩٣ هـ ـ ١٥٨٥ م •[2]

وفى العام التالى أى سنة ٩٩٤ هـ ـ ١٥٨٦ م اتخذ حسن باشا خطوته الأخيرة ضد أبناء المطهر وغيرهم ، للتخلص منهم وذلك بعد أن أنهك قواهم تماما وبعد أن تأكد من عدم مساندة الأهالى لهم ، وعدم مساعدة أى واحد منهم للآخر ، فقد دعا حسن باشا لطف الله بن المطهر بالمجىء إليه من الشرف لمفاوضته • فجاء إليه وكان معه أخوه حفظ الله ، وجاء أيضا على يحيى من أجل أن يحصل على عهد بالأمان من

---

(١) عيسى بن لطف الله ـ روح الروح جـ ٢ ص ٩٠ (مخطوط)

(٢) يحيى بن الحسين ـ أنباء أبناء الزمن ص ١٤٠ ، ١٤١ (مخطوطة)

حسن باشا ، وكان غوث الدين وهو أخ للطف الله محاصرا ، وكان يأمل فى الحصول على الأمان أيضا وبالامارة على الشرف .[1]

فلما وصلوا عنده اصطحب حسن باشا الأمير لطف الله بن المطهر مدعيا أنه لايريد الا مجرد الطواف فى الشرف وصعدة[2] ، واصطحب كذلك أولاد المطهر الآخرين حتى استقر فى (الرقة)[3] .

وفى اليوم الثانى عشر من ربيع الأول سنة ٩٩٤ هـ - ١٥٨٦ م طلب الأمير الكخيا سنان أولاد المطهر وكافة الأمراء والأعوان والأشراف إلى خيمته ، فلما استقر بهم المقام أخرج أوامر شريفة من الحضرة السلطانية ، تتضمن القبض على أولاد المطهر : لطف الله - على يحيى - حفظ الله - غوث الدين ، وارسالهم إلى الآستانة ، ثم أمر حسن باشا بايداعهم سجن صنعاء الذى كان مشهورا حينذاك باسم الدار الحمراء .

وبعد عدة أشهر أى فى ١٥ شوال سنة ٩٩٤ هـ - ١٥٨٦ م . أمر حسن باشا بارسال أبناء المطهر إلى ميناء المخا ومعهم الإمام الحسن وأحد أتباعه وهو الشيخ وهان العذرى ، ومحمد بن الهادى بن المطهر ، ثم أرسلهم من هناك إلى استانبول ، وذلك فى عهد السلطان مراد الثالث فلما وصلوا إلى الآستانة أودعوا فى (يَدْى قُلَه)[4] فأقاموا بها إلى أن وافتهم المنية جميعا .

يروى أن (الإمام) القاسم بن محمد كان يومئذ فى صحبة الإمام الحسن ابن على ، ووصل معه إلى ميناء المخا ، فمنع الأمير الكخيا سنان (الإمام) من السير مع

---

(١) الشرفى - اللآلىء المضيئة ص ٩٩ (مخطوطة)

(٢) يحيى بن الحسين - أنباء أبناء الزمن ص ١٤١ (مخطوطة) ، عيسى بن لطف الله ، روح الروح ص ٧٣ (مخطوطة)

(٣) الرقة : الأرض التى ينصب عنها الماء ، ومن الواضح من سياق المعنى أن الرقة موضع باليمن ، خلاف الرقة المشهورة بالعراق .

(٤) يدَىْ قُلَه - هى قلعة مشهورة فى وسط استانبول .

الراحلين ، فرجع وهو ذلك اليوم فرد من أفراد الناس · ثم لما وصل صنعاء سكن بها وجلس فى مسجد داود للقراءة والدرس ·[1]

كان القضاء على أولاد المطهر والإمام الحسن ونفيهم إلى الآستانة ارهاصا لدعوة الإمام القاسم بن محمد واخلاء للطريق أمام دعوته ·

وكان نفى أولاد المطهر إلى الآستانة من أهم العوامل التى أدت الى هدوء الأحوال فى المنطقة الشمالية لبضع سنوات ، أى الى ظهور (الإمام) القاسم بن محمد سنة ١٠٠٦ هـ - ١٥٩٧ م ·

ويتضح من هذا العرض أن موقف أولاد المطهر والأمراء اليمنيين كان سبب ما وصلوا اليه من اختلاف فى الرأى وتفرق كلمتهم ، فمنهم من حارب أخاه ، ومنهم من مال إلى العثمانيين ، ومنهم من ثار على الإمام الحسن بن على المؤيدى وحاربه ، لذلك ضعف امرهم وتفرق شملهم ، وكيفما كان الامر فبعد أسر أولاد المطهر والإمام الحسن ، استقرت الأمور لحسن باشا ، أو بمعنى آخر توطدت السيطرة العثمانية فى اليمن ، لأن الاستقرار فى اليمن يعنى تحقيق سيطرة الحكم العثمانى فيها ، إلى جانب تحقيق الهدوء فى ربوع البلاد ، وهما أمران لم يتحققا تماما فى اليمن قبل ذلك ، وقد تضافرت عدة عوامل لجعل هذه الفترة تتميز عن غيرها من فترات الحكم العثمانى فى اليمن ، وفى جعلها تتصف بالهدوء والاستقرار بالنسبة للفترات السابقة · فمن ناحية بدأت هذه الفترة بداية قوية ، لأنها كانت تستند على جهود حسن باشا من ناحية ، ومن ناحية أخرى ولى الحكم فى اليمن فى هذه الفترة ولاة أقوياء ، استطاعوا أن يحافظوا على النتائج الحاسمة التى أحرزها حسن باشا والكخيا سنان ، بالإضافة إلى ظروف اليمن الداخلية ، التى سببتها كثرة الحروب ، ووفاة المطهر ، وعدم وجود شخصية قوية تستطيع مناوأة الحكم العثمانى ، بل خلفه أبناء ضعاف تنازعوا الأمر فيما بينهم ، فضعف شأنهم وسهل على العثمانيين القضاء عليهم واحدا تلو الآخر ·

ففى إقليم الحجرية مثلا واقليم ريمة ويافع قامت عدة انتفاضات ضد الحكم

---

(١) يحيى بن الحسين - أنباء أبناء الزمن ص ١٤١ (مخطوطة)

العثمانى ، وذلك بعد ترحيل أولاد المطهر إلى الآستانة ، وقد استمرت هذه الحروب لمدة طويلة وأخذت الكثير من جهد حسن باشا وسنان الكخيا ، واستمرت هذه الحروب فى يافع لمدة أربع سنوات متوالية ، حتى استطاع سنان القضاء عليها وذلك يرجع لعدة أسباب منها : أن هذه المناطق جبلية يسهل على الأهالى الالتجاء إلى قمم الجبال للتحصن بها ، بالاضافة إلى أن العثمانيين استعملوا الشدة والقسوة فى القضاء على هذه الانتفاضات ، فان الكخيا سنان الذى اعتمد عليه حسن باشا فى هذه الحروب قتل الألوف من الأهالى ، وهدم القرى ، وجمع الرهائن بأعداد غفيرة تعد بالمئات ، والآلاف ، كما كان يتعمد أحيانا « أن تكون الرهينة مثلثة العدد زوجة وبنتا وذكرا من الولد »[1] ذلك امعانا فى اذلال الأهالى وفى كسر شوكتهم ، ولكن هذه القسوة كانت سببا فى تضاعف استبسال الأهالى والدفاع عن أنفسهم ، مما أدى الى اطالة مدة هذه الحروب ٠

ورغم ذلك كله فقد استطاع سنان الكخيا القضاء على تلك الحروب جميعها واستطاع أن يفتح اليمن بأسره فى سنة ٩٩٩ هـ ـ ١٥٩١م وبذلك سكتت عن حسن باشا الفتن وساعدته الأقدار ودانت له الأقطار وشرع فى تقليل العسكر[2] ٠ ولما دخل سنان الكخيا إلى صنعاء فى شعبان سنة ١٠٠٠ هـ ـ ١٥٩٢ م أنعم عليه حسن باشا وعلى قادته وجنوده بالخلع والترقيات الوفيرة ٠[3]

يقول العرشى:« استقرت الأمور للوزير حسن وهدأت النوائب وانقطعت الأشغال من الزمان »[4]

ومما يدل على هذا الهدوء أيضا قول أحد المعاصرين لهذه الأحداث وهو يحيى ابن الحسين فى مخطوطته أنباء أبناء الزمن « وفى سنة ١٠٠٠ هـ سكن المعارض للوزير حسن ، وجرت أوامره وأقلامه فى جميع قطر اليمن ، واستراح الناس وسكنت الفتن ومال

---

(١) الموزعى : الإحسان فى دخول اليمن فى ظل عدالة آل عثمان ص ٢٢٤ (مخطوط)

(٢) المحبى : خلاصة الاثر فى اعيان القرن الحادى عشر جـ ٢ ص ٧٥

(٣) عيسى بن لطف الله ـ روح الروح جـ ٢ ص ٩٢ (مخطوط)

(٤) العرشى:بلوغ المرام فى شرح مسك الختام ص ٦٥

الناس إلى الوزير حسن باشا ، وبذل العطاء والصدقات من الدراهم والخلع وفى سنة ١٠٠٥ هـ تم بناء البكيرية[١] ، فى مدينة صنعاء اليمن التى اعتنى بانشائها الوزير حسن » [٢] .

ويمكن أن نرجع الفضل فى هدوء هذه الفترة بالذات إلى السياسة التى اتبعها حسن باشا ، الذى يعتبره بعض المؤرخين ، أنه فاتح اليمن الثانى [٣] ، فان قوة شخصية حسن باشا وطول خبرته جعلته يتمكن من حزم الأمر فى اليمن ، فقد كان حسن باشا أحد مماليك السلطان مراد الثالث الخاصة ، اذ دخل فى خدمته منذ أن كان وليا للعهد فأتاح له هذا فرصة التقلب فى المناصب المختلفة ، وقد تولى حسن باشا أمر اليمن وهو فى الرابعة والأربعين من عمره،كذلك مساندة الدولة العثمانية لحسن باشا فى اليمن فى هذه الفترة رغم ما كانت تعانيه الدولة فى مركزها من اضطرابات ، الا أنها كانت مازال تشعر بأهمية اليمن بالنسبة للعالم الاسلامى ، هذا بالاضافة إلى ضعف الأحوال اليمنية الداخلية وانهيار الأحوال الاقتصادية ، فقد افتقدت اليمن فى هذه الفترة الشخصية القوية التى تستطيع أن يجتمع حولها أهل اليمن ، فقد عمل حسن باشا على التخلص من العناصر القوية من أبناء المطهر وغيرهم من الأمراء ، ومد النفوذ العثمانى المباشر إلى المنطقة الشمالية أى إلى صعدة ونجران شمالا ، كما اهتم بتقريب اليمنيين إليه ، ونشر العدل بينهم ، كلما استطاع إلى ذلك سبيلا ، وذلك مع استخدامهم فى الوظائف المختلفة ، وتقديم الهدايا والمرتبات إلى رؤساء وشيوخ القبائل ، وخاصة فى الشمال ، وكذلك اهتم باقامة المنشآت العمرانية المختلفة ، مثل بناء أو تعمير المساجد ، أو حفر الآبار والقنوات لتوصيل المياه ، أو تجديد حفرها ، أو بناء المحطات التجارية ، وتمهيد الطرق وتأمينها ، الا أنه وجه الضربات العنيفة لكل انتفاضة فى أقاليم اليمن المختلفة .

---

(١) البكيرية ـ مدرسة فى صنعاء نسبة الى من تولى بناءها وهو بكير أغا

(٢) يحيى بن الحسين ـ أنباء أبناء الزمن ص ١٤٢ (مخطوط)

(٣) الفتح العثمانى الاول

وجدير بالذكر أنه وإن كان حسن باشا قد نجح فى توطيد الحكم فى اليمن وحقق الاستقرار فقد كان ذلك فى السواحل والمدن والمراكز والحصون الهامة ، أما فى المناطق البعيدة عن هذه المراكز وخاصة الجبلية ، فقد كانت لاتخضع الا لرؤسائها المحليين ، وهم شيوخ القبائل ٠

لذلك ظلت علاقة حسن باشا بهذه المناطق اما علاقة عدائية ، واما علاقة ودية نتيجة تقديم الهدايا والمرتبات إلى هؤلاء الشيوخ أو ادخالهم فى خدمة الجيوش العثمانية ، لذلك لم يكن غريبا أن تظهر فى هذه الفترة بعض الحركات التى تقف فى وجه حسن باشا والدولة العثمانية ٠

ففى سنة ٩٩٤ هـ ـ ١٥٨٦م ظهرت دعوة الإمام عبدالله بن على بن الحسن ابن أمير المؤمنين فى الشرف الأعلى بعد أسر الامام الحسن وتملك الجهات الصعدية شمالا بعيدا عن صنعاء خوفا من سنان الكخيا ، ولما أظهر دعوته لم يكن لها كبير أثر ٠ [١]

فلما سمع بدعوة الإمام القاسم بن محمد سنة ١٠٠٦ هـ سار إليه وأعلن أنه معاضد له ضد العثمانيين ٠

لذا لم تهدأ اليمن تماما ، رغم نجاح حسن باشا إلى حد كبير فى تهدئة الأحوال ، والقضاء على أى حركة مناوئة له فى هذه الفترة ، وذلك يرجع إلى طبيعة اليمن الجبلية من جهة ، وإلى ارتفاع شأن الأئمة الزيديين على يد المطهر وخاصة بعد أن استطاع أن يمد سيطرته حتى عدن ، وبناء على تمركز المذهب الزيدى وانتشاره فى شمال اليمن ، وبسبب العقيدة الزيدية التى أشرنا إليها من قبل ، فانه كان لابد من ظهور إمام ، لذلك لم يكن غريبا أن يظهر الامام القاسم بن محمد ويعلن إمامته ، فى فترة خلا اليمن فيها من الأئمة ، واستطاع أن يقود الزيدية اليمنية ويقف فى وجه الحكم العثمانى إلى أن استطاع أحد أبنائه إخـــراجه من اليمن سنة ١٦٣٥ م وهذا ما سنوضحه فى الفصول التالية ، إن شاء الله ٠

---

(١) يحيى بن الحسين ـ أنباء أبناء الزمن ص ١٤١

الفصل الأول

الإمام القاسم

النهضة الأولى ١٠٠٦-١٠١١هـ

أ- نسب الإمام القاسم ونشأته وظهور دعوته سنة ١٠٠٦هـ.

ب- حروب الإمام في النهضة الأولى مع حسن باشا.

ج- استقرار الإمام في السودة سنة ١٠٠٨هـ وبقية حروب النهضة الأولى.

د- اشتداد الحصار على شهارة سنة ١٠٠٩هـ وخروج الإمام الى برط.

يعتبر الإمام القاسم من أهم الشخصيات اليمنية التى ظهرت فى بداية القرن السابع عشر الميلادى ، نظرا لقوة شخصيته وغزارة علمه ، ولدوره الكبير فى تاريخ اليمن ، لذلك لابد من التعرف أولا على نسبه ونشأته التى كان لها أكبر الأثر فى تكوين هذه الشخصية التى نحن بصدد الكلام عنها .

هو الإمام المنصور بالله القاسم بن محمد بن على بن محمد بن على بن الرشيد ابن أحمد بن الأمير الحسين بن على بن يحيى بن محمد بن الإمام يوسف الأصغر ، الملقب بالاشل ابن الإمام الداعى إلى الله الناصر لدين الله أحمد بن طباطبا بن اسماعيل الديباج[1] بن ابراهيم بن الحسن بن الحسين السبط بن على بن أبى طالب رضى الله عنه[2] .

يكنى أبا محمد ، وقد ولد فى ١٢ صفر سنة ٩٦٧ هـ/١٥٥٩ م بالشاهل من بلاد الشرف ، وكان والده محمد بن على يسكن جهات بنى مديحة ، من بلاد الشرف الأسفل وفيها تزوج أم الإمام القاسم .

كان والده يعمل فى عسكر المطهر بن شرف الدين ، وقد خاض معه حروبا كثيرة ضد الباشا سنان الأعظم[3] .

فقد رأى الإمام القاسم منذ صغره هذه الحروب ، ورأى فى أبيه المجاهد الشجاع الذى وقف يقاتل للدفاع عن مذهبه الزيدى ، وأرضه اليمنية ، رغم نزاهة السبب

---

(١) الديباج : شرف النفس وحسن البشرة .

(٢) الجرموزى : النبذة المشيرة ص ٤ (مخطوط) .

(٣) المحبى : خلاصة الأثر جـ ٣ ص ٣٩٣ .

الذى أتى بالعثمانيين إلى أرض اليمن ، غير أن الزيديين كانوا يرون فيهم المغتصبين لأراضيهم ، المخالفين لعقيدتهم الزيدية .

ولما بلغ الإمام القاسم سن العاشرة قرأ القرآن الكريم ، وكانت فيه فطنة وفصاحة ، وقد أخذ العلم عن كبار علماء المذهب ، كما اتصل بالإمام الحسن بن على ابن داود ، وظل ملازما له حتى نفى الأخير إلى الآستانة .

ومن أشياخه أيضا السيد أمير الدين عبدالله بن نهشل بن المطهر ، وينتهى نسبه إلى يحيى بن الحسين ، وقد أخذ عنه جل العلماء والإمام القاسم وأولاده من بعده ، والسيد الحسن بن شرف الدين ، والسيد عزالدين بن على بن عبدالله .

أما علماء عصره فمنهم السيد عامر بن على ، عم الإمام الذى أجاب دعوة ابن أخيه وخاض معه معارك كثيرة ، وبذل أمواله وروحه فى سبيل نصرته .

ومنهم السيد ابراهيم بن المهدى بن على بن جحاف ، وولده المهدى ، وهو أحد شيوخ الإمام المؤيد ، والسيد محمد بن عبدالله الملقب عشش ، والسيد الحسين ابن على بن ابراهيم الجحافى القاسمى ، وغيرهم كثير .

أما نشأته : فقد نشأ معروفا بالطهارة وقوة القلب والبطش ، ويقال عنه : إنه كان لا يروعه شىء مما يروع الصبيان[1] ، وقد توسمت فيه عمته أم الغيث بنت على النبوغ والفطنة والتفهم ، فخافت عليه ، وأرسلت فى طلبه فى الرغيل غربى مسور ، وكانت متزوجة من السيد أحمد بن الحسن الخطيب ، وكان من أهل الجاه واليسار مع العلم الكثير ، فأتم الإمام قراءة القرآن ، وتعلم أصول الدين وكان يقرأ معه عمه عامر ابن على ، فنشأ فى بيئة كلها تقى وصلاح مما انعكس على شخصيته ، فقد ذكر الشرفى فى مخطوطته اللآلىء المضيئة عن نشأته قوله : « نشأ نشأة التابعين من سلفه عليهم السلام فى الحرص على الأمر بالمعروف والنهى عن المنكر »[2] .

وبالفعل عندما أصبح إماما أبطل كثيرا من البدع السائدة ، كالتبرك بالأشجار وغيرها ، وأقام الحدود ، ففى سنة ١٠١٧هـ تقريبا كانت هناك شجرة بالقرب من شام-

---

(١) الجرموزى : النبذة المشيرة ص ٤ (مخطوط) .

(٢) الشرفى : اللآلىء المضيئة ص ١٤٨ (مخطوط) .

مور يقصدها البدو من شمال اليمن للزيارة والتبرك وتقديم الذبائح ، ويعتقدون فيها ، فجمع الإمام العسكر ، ثم قصدها فقطعها بعد الاقامة عندها ثلاثة أيام ، وجمع حطبا وأحرقها[1] .

وسنرى فى الخطابات الموجهة لأولاده الكثير من الوصايا ، التى تدل على مدى تمسكه بأهداب الدين ، فقد أورد الجرموزى مؤلف سيرته الكثير منها ، ففى رسالة موجهة لولده محمد وهو فى شهارة قوله : « إنى أوصيك ألا تترك درس القرآن يوما واحدا ، ولو فى كل يوم جزأين أو جزءا واحدا لا تترك ذلك أبدا ، وعليك بصلاة الجماعة فانها من الواجبات ، ولا يغرك قول من يقول انها سنة ، وعليك بملازمة العلم وطلبه فانه من أكبر الفرائض ، واستعن على ذلك بتقوى الله سبحانه ، لأن الله يقول : (ان تتقوا الله يجعل لكم فرقانا) والفرقان هو الفهم والفطنة[2] ، الى آخر هذه الوصية التى يظهر فيها أثر النشأة الصالحة وانعكاسها على المجتمع وتربية الجيل فى المستقبل ، وهناك الكثير من الأمثلة التى تعكس شخصية الإمام ، وأثر التربية الاسلامية فيه ، وردت فى الخاتمة عند التعرض لتحليل شخصية الإمام القاسم .

أما صفات الإمام : كان وسيط القامة ، معتدلها ، الى السمن أقرب ، واسع الجبهة ، عظيم العينين ، كبير السنتين ، أسمر اللون ، واسع الفم ، أشم الأنف ، طويل اللحية ، عظيمها ، ضخم الذراعين أشعرهما ، فصيح العبارة ، سريع استحضار الأدلة ، كثير الحلم ، يصبر على المكاره ، ويتحمل العظائم ، كثير الورع .

أما علمه : فمما لا يفتقر إلى بيان ، والدليل على ذلك كثرة مؤلفاته ، إذ يعتبره بعض المؤرخين أنه مجدد فى المذهب الزيدى ، وصاحب المذهب المختار[3] وسنتعرض لهذه المؤلفات لنعرف مناسباتها ، ونظرياته فى المذهب الزيدى .

---

(١) الجرموزى : النبذة المشيرة ص ١٩٥ (مخطوط) .

(٢) الجرموزى : النبذة المشيرة ص ١٤٢ (مخطوط) .

(٣) أحمد حسين شرف الدين : تاريخ اليمن الثقافى جـ ٤ ص ٢١٢ .

أما ملبسه : فكان يلبس المتين من الثياب فى أغلب وقته ، ولباسه عبارة عن قميص قصير أسود اللون مشقوق من الأمام وسروال أسود[1] .

أشرنا إلى أنه بعد أسر الإمام الحسن بن داود ونفيه الى الآستانة أصبح مكان الإمامة خاليا ، ولم تكن هناك شخصية تناهض العثمانيين ، فأخذ أصحاب الرأى من الزيدية فى التفكير فيمن يتولى هذا الأمر الشاق ، نظرا لوجود والٍ عثمانى قوى هو الباشا حسن وكتخداه سنان ، وتعاليم المذهب الزيدى التى أشرنا اليها هى التى ساعدت هؤلاء على التفكير فى اختيار شخصية قوية للخروج على العثمانيين ، فإن المذهب يبيح الخروج على السلطة القائمة إذا كان هناك ما يبرر ذلك ، مثل فساد هذه السلطة أو اضطراب أحوالها ، وأن يخرج أحد هؤلاء الأشراف جاهرا بامامته ، حاملا سيفه ، مدافعا عن هذه الإمامة ومن ثم وقع اختيارهم على الإمام القاسم بن محمد ، لما رأوا فيه من جديته وتقديره للمسؤولية التى رغبوا فى إلقائها على عاتقه .

وقد أظهر الإمام تردده فى قبول الإمامة ، وينقل لنا قوله أحد المعاصرين وصاحب سيرته الجرموزى فيقول : « كانت الإمامة ما تعرض فى فكرى لما أرى من شرارة الخلق وقوة سلطان الترك على الأرض »[2] .

وكان ممن أشار عليه بالقيام السيد على بن ابراهيم صاحب التساهل والسيد صالح ابن عبدالله بن داود العريانى القاسمى ، وقد أنشأ هذا الأخير قصيدة حث فيها الإمام على القيام ، مطلعها :

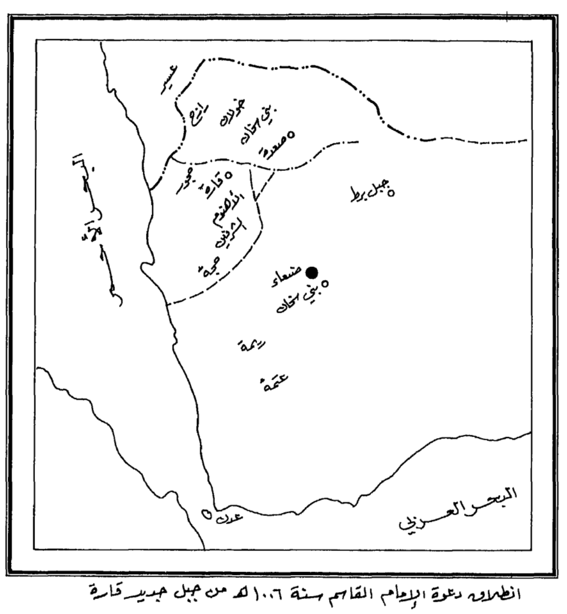
ضاع الوفاء وضاعت بعده الهمم	والدين ضاع وضاع المجد والكرم
أحكامهم فى أمور الدين منبعها	آراؤهم وكتاب الله بينهم[3]

---

(١) يحيى بن الحسين : أنباء أبناء الزمن ص ١٥٨ (مخطوط) .

(٢) الجرموزى : النبذة المشيرة ص ٤٢ (مخطوط) .

(٣) الشرفى : اللآلىء المضيئة ص ١٤٦ (مخطوط) .



انطلاق دعوة الإمام القاسم سنة ١٠٠٦ هـ من جبل جديد قارة

وبعد هذا الإلحاح منهم قبل الإمام هذا الأمر ، فأخذ يتنقل من مكان الى آخر من بلاد الشرف ، ثم دخل صنعاء متخفيا ، يقرأ القرآن ويدعو الأعوان ، فى مسجد داود ، وكان العثمانيون قد شعروا بخطورته قبل ظهور إمامته ، فأخذوا يجتهدون فى التجسس عليه ومطاردته وبذل الأموال الكثيرة فى سبيل ذلك ، وقد استعملوا التنجيم والمنجمين ليدلوهم على معرفة مكانه[1] .

وقد ظل الإمام عدة سنوات متخفيا ، يطوف الأقاليم الشمالية حاثا الأهالى على الانضمام إليه ، عاكفا على العلم والدرس والتأليف[2] ، وكان تارة يختفى عندما يشتد به الخوف مع جماعة من خالصى أصحابه الذين يأخذون عنه العلم إلى فلاة من الأرض بحيث تنقطع أخباره عن الناس ولا يدرون أين هو ؟ فتمضى أيام على ذلك ولا يشعر العثمانيون إلا وهو فى البلاد اليمنية قد استولى على مواضع ، ومازال هكذا مع الاقدام والصبر لا يقدر عليه أحد ، حتى انه كان فى بعض الأوقات لا يجد هو وأصحابه ما يأكلون عند اختفائهم ، فيأكلون من نبات الأرض ، وقد يكابد الشدائد فلا يظن أحد أنه لا يعود بعد ذلك إلى مناجزة العثمانيين ، واذ هو قد وثب على بعض المواضع[3] .

وكان أول ظهور دعوة القاسم بن محمد من جبل (جديد قارة) إحدى قرى إقليم الشرف جنوبى (صعدة)[4] وذلك فى ٦ صفر سنة ١٠٠٦ هـ/١٥٩٧ م ، وإن كان هناك من يذكر أن الإمام القاسم قد دعا لنفسه خلال شهر المحرم من نفس السنة ، ولكنه لم يستطع أن يجاهر بدعوته الا فى أوائل شهر صفر ، بعد أن سانده أحد مشايخ هذه المنطقة وهو الشيخ أبوزيد بن سراح شيخ بنى سنحان ، وقد أشار عليه اتباعه أن تكون دعوته من بنى سنحان لما فيه من نصرة القبائل ، ولما لموقعها من أهمية ، ففيها جبال حصينة ولبعدها عن مركز العثمانيين ، وسهولة الخروج منها والدخول

---

(١) الشرفى : اللآلىء المضيئة ص ١٤٨ (مخطوط) .

(٢) الجرموزى : النبذة المشيرة ص ٤٦ .

(٣) الشوكانى : البدر الطالع جـ ٢ ص ٤٨ .

(٤) تاريخ دولة الترك ، جـ ٦ (مخطوط) المؤلف مجهول .

إليها ، فاستصوب الامام هذا الرأى ووصل إلى هناك ومعه ستة من الرجال فى ضيافة ابى زيد ، لكن الشيخ ابازيد كره القيام والدعوة من بلده ، ورجح للإمام أن يطلع إلى (جبل قاره) فوصل إلى موضع يسمى (وادى الحمر) بالقرب من جبل قمر ، وبايعه الناس ، وأول من بايعه من الناس رجل من مشايخ قاره يسمى الشيخ عبدالله ابن مسعود ، وكان باسم الوجه وافر اللحية فتيمن الامام به ، وتبعه بقية الناس الذين حضروا ذلك الجمع ، وكانوا حوالى أربعين رجلا ، وقد أمد الشيخ زيد الإمام ببندقيتين وبارود ورصاص ، اذ أن البنادق فى تلك المدة لم تكن متوفرة الا مع أرباب الدولة ، وقرب إليه فرسا ليركب عليه فسأل عن اسمه فقيل له الفتح ، فانشرح فؤاده بهذا الاسم ، وبذلك ظهرت دعوته من جبل قاره[1] ، وقد اعتمد الإمام فى بث دعوته على الخطابات والرسائل المطولة والكتب الكثيرة التى كان يرسلها إلى الأفراد والجماعات ، والتى كان يوجهها إلى المسلمين عامة ، وهذه الخطابات كانت تحمل إلى الأهالى المبادىء التى يدعو إليها ، والتى كانت تتلخص فى عدم الخضوع للعثمانيين نظرا لفساد حكمهم وخروجهم على مبادىء الدين ، فقد جاء فى إحداها « أما بعد فاننا نحمد الله الذى لا اله الا هو ، إنا ندعوكم إلى جهاد أعداء الله الذين ظلموا العباد ، وأظهروا فى الأرض الفساد ، وشربوا الخمور ، ونكحوا الذكور ، واستباحوا دماء المسلمين المحترمين من المؤمنين ، فقتلوا الأطفال والنساء ، ومن لا يحمل سلاحا من الضعفاء والمساكين ، وانتم تعلمون ذلك ولا تجهلون »[2] ، وهذا النص يوضح رأى الإمام فى العثمانيين ، ويظهر نظرته وكأنهم ليسوا على دين الاسلام ، ويحث اليمنيين على ضرورة الوقوف فى وجههم ، وعدم الخضوع لهم حتى لا يتهموا باشتراكهم معهم فى الإثم وذلك يتضح أيضا من خطاب آخر « ولا ترخصوا لأنفسكم فى مداراتهم ، فإنا نعلم أنه لولا مداراتكم بالمال ما استقامت لهم راية أبدا فذلك منكم معاونة على إثمهم وظلمهم »[3] .

---

(١) الشرفى : اللآلىء المضيئة ص ١٤٧ .
(٢) الجرموزى : النبذة المشيرة ص ٨ .
(٣) الجرموزى : النبذة المشيرة ص ٤٤ .

وقد وجدت دعوة الإمام القاسم استجابة كبيرة لدى الكثيرين من أهالى اليمن الذين رأوا فيها تعبيرا عن تذمرهم من سياسة العثمانيين وتصرفاتهم ، وذلك رغم تقاعس أغلب هؤلاء الأهالى عن الوقوف إلى جانب الإمام القاسم خوفا من بطش العثمانيين بهم .

فمما لاشك فيه أن دعوة الإمام القاسم قد لاقت نجاحا عظيما وانصارا انضموا إليها ، وذلك يرجع إلى سوء تصرف بعض الولاة والجند العثمانيين ، مما كان يثير فى نفوس اليمنيين الضيق والتذمر ، فقد أتى هؤلاء ببعض التصرفات التى تسىء إلى سمعتهم الدينية ، رغم أنهم أتوا إلى اليمن لحماية الأراضى المقدسة من البرتغاليين الكفرة ، ويضاف إلى ذلك شدة وطأة العثمانيين فى اليمن ، رغم أن بعض الولاة قد حققوا لها بعض الاستقرار ، مثل حسن باشا كما ذكرت سابقا ، إلا أن هذا الاستقرار كان يعتمد على الشدة والقوة العسكرية أكثر من الناحية السياسية ، كما أنهم لم يقوموا باصلاحات شاملة تجذب اليمنيين إلى حكمهم ، وكان الأجدر بهم أن يعملوا على كسب قلوب اليمنيين ، وأن يفهموا ما تميز به اليمنيون من ظروف طبيعية وبشرية خاصة ، وكذلك الظروف الاقتصادية التى نتجت عن الحصار البحرى البرتغالى ، ولو تفهم العثمانيون تلك الظروف وعاملوهم على ضوئها لتغير تاريخ اليمن .. لكنهم بالعكس أرهقوهم بدفع أموال أدت إلى تذمر اليمنيين منهم ، اذ أنهم تحملوا الخراج الذى كان يرسل إلى استانبول سنويا ، وكان الوالى العثمانى يستعمل القوة والقسوة فى جمع هذه الأموال المقررة على الأهالى ، وقد أشار الجرموزى إلى ذلك بقوله : « أما المال فلهم فى أخذه سطوة ، فقد يعذبون أهله العذاب العظيم ، مثل ضرب السياط قليلا وكثيرا ، وقد يجلدون بعضهم حتى يموت مع المشاهرة والكى بالنار وغير ذلك »[1] .

وهكذا يتضح أن هذه الأسباب كلها مجتمعة أدت إلى تذمر اليمنيين من الحكم العثمانى ، وبالتالى استجابوا لأى دعوة معارضة لهذا الحكم ، وقد عبر أحد اليمنيين المعاصرين عن أسباب استجابة الأهالى لدعوة الإمام القاسم فى وضوح وصراحة

---

(١) الجرموزى : النبذة المشيرة ص ٧٦ .

تامة ، رغم انحيازه للعثمانيين حينذاك ، ومعارضته للإمام القاسم لأنه من آل شرف الدين ، فقد قال : « وقد كان قبل الفتنة أطبق على العباد الجور ، وضعفت البرية ، واستهلك العمال أموال الرعية ، وقاست القبائل من الظلم أشد التعب والهول والنصب ، فمن أجل ذلك اشعلت القبائل نارها ، وحملت على جنوبها أكفانها ، وأصدقت مع الإمام الحروب »[1] .

فلاشك إذن أن وقوف الأهالى إلى جانب دعوة الإمام القاسم ، كان يرجع إلى التذمر العام الذى ساد اليمن فى تلك الفترة ، وقد ساعد على نجاح تلك الدعوة إلى جانب ذلك ، طبيعة اليمنيين أنفسهم وطبيعة مذهبهم الزيدى ، بالاضافة إلى قوة شخصية الإمام القاسم ، بوجه خاص ، وإصراره على مواصلة الجهاد وصبره على تحمل المشاق . وكان عبدالرحيم بن عبدالرحمن بن المطهر حاكم حجة وأقاليمها هو أول من حارب الإمام القاسم ، اذ قام بمهاجمته هو وجماعته عندما علم بتجمعهم لأول مرة فى جبل القارة[2] .

وكان عبدالرحيم كذلك أول من أبلغ حسن باشا سنة ١٠٠٦ هـ والى اليمن بقيام الإمام القاسم ، وذلك عندما فشل هجومه على الإمام للقبض عليه ، أو فى القضاء على جماعته[3] .

وهذه البداية من جانب عبدالرحيم هى التى اشعلت الحرب ضد الإمام ، فقد اتخذ حسن باشا حينذاك الاستعدادات اللازمة للقضاء على هذه الدعوة منذ بداية ظهورها ، فأرسل الجيوش والمعدات الوفيرة إلى المناطق الشمالية المختلفة قبل أن تسقط فى أيدى الإمام ، غير أن انتشار هذه الدعوة واستجابة القبائل لها ، كان أسرع من وصول الجيوش العثمانية إلى تلك المناطق ، فقد هاجمت القبائل القادة الذين أرسلهم حسن باشا إلى الأقاليم الشمالية ، والذين كانوا من الأمراء اليمنيين ، أى ممن دخلوا فى خدمة العثمانيين مثل مطهر بن الشويع ، وعبدالله بن المعافا الذى تقدم إلى مقر إمارته وهى

---

(١) عيسى بن لطف الله : روح الروح جـ ٢ ص ٣٥٣ .

(٢) الجرموزى : النبذة المشيرة ص ٤٧ .

(٣) عيسى بن لطف الله : روح الروح جـ ٢ ص ٩٢ .

مدينة السودة فحاصرته هذه القبائل بها حوالى سبعة أشهر حتى اضطر إلى تسليم نفسه للإمام[1] .

ومنذ ذلك الوقت بدأت الحروب بين الإمام القاسم والوالى حسن باشا والى اليمن العثمانى فى تلك الفترة ، وهى التى أسميناها حروب النهضة الأولى .

تحالف بعض الأمراء اليمنيين مع الوالى العثمانى حسن باشا ، وخاصة من بيت آل شرف الدين مثل : محمد بن شمس الدين صاحب كوكبان ، وعبدالرحيم ابن عبدالرحمن حاكم حجة ، ومطهر بن الشويع ، وعبدالله بن المعافا حاكم السودة ضد الإمام . فقد جمعت هؤلاء جميعا المصلحة التى تدعم أواصر هذا التحالف ، وتبقى عليه ، هذا من جانب ، ومن جانب آخر فان هؤلاء الأمراء قد رأوا أنه من الأفضل الوقوف إلى جانب العثمانيين خيرا من الوقوف ضدهم ، ربما لأنهم تفهموا مهمة العثمانيين الحقيقية ، أو للحفاظ على الامتيازات التى أعطتها لهم الدولة العثمانية أو لتفهمهم لموقفهم من عدم قدرتهم للوقوف فى وجه العثمانيين ، أو لغيرتهم من قيام الإمام . وكان أول لقاء بين العثمانيين وأصحاب الإمام فى حصن وشجة بجانب القارة ، ودام الحصار على هذا الحصن ثلاثة أيام ، وصلى الإمام يوما من أيام الجمع فى قارة سنة ١٠٠٦ هـ/١٥٩٧ م وأمر كل الناس بالجهاد ، وتجمعت قوات العثمانيين فى الشرف وحجة وعلى رأسها أحمد الزمارى وبعض من أصحاب عبدالرحيم بن عبدالرحمن وأحمد ابن محمد بن شمس الدين وكذلك توجه ابن المعافا من صنعاء للقاء الإمام فى قارة ، ولما علم الإمام بالأمر ، أرسل إلى اصحابه الذين فى وشجة فوصلوا إليه ، وأشار عليه بعض أتباعه بعدم المبيت فى جبل(جديد قارة)، لأنه طريق ضيق يسهل للعدو الوصول إليه ، وبالفعل وصل العثمانيون فى صباح اليوم الثانى ، وانهزم أصحاب الإمام وانحاز الإمام إلى جهات الأودية . وبعد هذه الهزيمة وقع فى قلوب القبائل الخوف من انقلاب العدو عليهم فعزم الإمام على دخول بلاد المشرق حيث يستطيع أن يستجمع قواه ويجمع حوله القبائل ، وأمر أصحابه الذين معه أن يذهبوا إلى الشيخ ابى زيد بن سراح

---

(١) تاريخ دولة الترك _ ص ٧ المؤلف مجهول

حيث كان قد ترك ولده محمداً هناك ، ورحل الإمام إلى جهات برط ومشارفة البعيدة ، وبقى نحو شهرين ينتظر الفرج من الله سبحانه[1] .

فى هذه الأثناء علم (قرا جمعة) نائب الباشا فى صعدة بوجود الإمام فى برط ، فبذل للشيخ عبيدالله البرطى مالا جزيلا لكى يقبض على الإمام ، فأحضر الشيخ عبيد ذلك المال الى الإمام وأخبره الخبر ، وأرجع المال الى (قرا جمعة) فشكره الإمام على حسن صنيعه[2] .

يتضح من هذه الحادثة مدى تخوّف العثمانيين من الإمام القاسم ، فقد فعلوا شتى الطرق للقبض عليه دون طائل ، رغم قوة الدولة العثمانية بالنسبة للإمام فان تخوف القبائل من العثمانيين فى أول قيامه ، كان يحد من انضمام القبائل إليه .

وفى هذه الأثناء أى سنة ١٠٠٦ هـ/١٥٩٧ م ، أجاب أهل الحيمة دعوة الإمام القاسم ، وكان قائدهم الفقيه يوسف الحماطى فنهض الكخيا سنان إلى حضور ، وكان الحماطى قد كتب إلى الإمام يخبره بطاعة أهل الحيمة ، ويستمد منه العون ، فبعث إليه عمه السيد عامر بن على بن محمد ، والسيد محمد بن على بن الحسين بن شمس الدين ابن الإمام المهدى أحمد بن يحيى ، وهو المعروف بالقراع ، ففوض الفقيه يوسف الحماطى الأمر الى السيد عامر ، واجتمع الناس إليه وأطاعوه ، واستقر فى الحيمة ، فقابلهم العثمانيون بالخيل والرجال ، وكان قائدهم الأمير ابراهيم طويل والشيخ عبدالله الرماح فى محل يسمى السلف والتقى بهم السيد عامر ومعه أهل الحيمة فى جبل البوزين[3] ، ووقعت بينهم وقعة عظيمة ، واتصل السيد محمد القراع ببعض أصحاب الرماح ، فمالوا إليه ، وحملوا على العثمانيين فقتلوا قائدهم الأمير ابراهيم طويل ، واستولوا على خزائنهم وطلب الشيخ عبدالله الرماح الأمان لنفسه ومن بقى معه ، فأمنه السيد عامر ، وخرج بمن معه وكانوا زهاء ألف وخمسمائة راجل ونحو سبعين فارسا ، ثم تقدم السيد عامر إلى جبل بيت خولان ، فقصده الكخيا سنان ، ومن انضم إليه من قبائل سنحان وخولان ،

---

(١) الشرفى : اللآلىء المضيئة ١٤٨ (مخطوط)

(٢) يحيى بن الحسين : غاية الامانى جـ ٢ ص ٧٧٣

(٣) البوزين : موضع فى سرو مدحج ـ الهمدانى : صفة جزيرة العرب ص ٩٧

وهمدان ، ووقعت بين الطرفين وقعة شديدة قتل من أصحاب السيد عامر سبعون رجلا ، واستولى سنان على قرية بيت خولان ، وبيت معدن ، ثم رجع السيد عامر إلى سنان فى ذلك اليوم مرة ثانية ، وأبلوا بلاء حسنا ، وحمل الشيخ محمد بن ناصر صاحب الأحبوب ، فقتل من أصحاب الأمير سنان ، وكادوا يأسرونه فوصلت إليه نجدة من كوكبان ، فتأخر السيد عامر وأصحابه وتقدم سنان إلى جبل البوزين واشتدت وطأته على من ظفر به من أهل الحيمة ، فجعل يقتل كل أسير أتى إليه به ، حتى لقد أتى إليه بطفلة صغيرة فأمر بسلخها بعد ان استجارت بأهل كوكبان فلم يجيروها[1] .

ثم ان الفقيه الحماطى تقدم إلى أنس ومنه إلى ذمار بعد أن أشار عليه بعض أصحابه فلما استقر فيه جهز إليه الباشا عسكرا مع رجل يعرف بالواعظ ، كان فى ابتداء أمره متنسكا ملازما للبقاء فى جامع صنعاء ، ثم صار من أعوان السلطات العثمانية[2] .

ولما بلغ الحماطى وصول الواعظ إلى قرب ذمار ، خرج منه إلى محل قريب ، فقصده الواعظ وحصره فى ذلك المحل ، حتى خرج إليه ، فأرسل به إلى صنعاء فأودع السجن ، ولم يلبث أن مات ، وقتل من كان معه كالفقيه محمد بن عبدالله العيانى من العيانة ، من بلاد الثلث أحد جبال حراز ، فسلخ جلده وملىء تبنا[3] ، وقد حزن عليه الإمام القاسم كثيرا ورثاه فى قصيدة مشهورة ، وكانت هذه الواقعة فى شهر جمادى الأولى سنة ١٠٠٦ هـ/١٥٩٧ م[4] .

بعد هذه الوقائع أرسل الحاج أحمد بن دغيش إلى الإمام القاسم فى برط يخبره بما وقع ، ويستنهضه ، وقد خرج جند العثمانيين مع الأمير عبدالله بن المعافا فى صنعاء الى الهجر ، ثم تقدموا إلى وادعة وحشدوا قبائل الأهنوم ، حتى بلغوا أربعة عشر ألفا ، ودخلوا الحصن فانتهبوه ، وهدموا بيوته فأغار عليهم الأمير حسن بن ناصر العريانى

---

(١) يحيى بن الحسين : غاية الامانى جـ ٢ ص ٧٧٣ ، الجرموزى : النبذة المشيرة ص ٧١

(٢) الجرموزى : النبذة المشيرة ص ٧٤

(٣) الموزعى : دخول اليمن تحت ظل عدالة آل عثمان ص ٣٢

(٤) تاريخ دولة الترك : ص ٩ المؤلف مجهول

بمن معه من أهل وادعة وشاطب ، وخلال ذلك وصل الإمام إلى شاطب فرجع أهل الأهنوم الذين كانوا مع العثمانيين والأمير عبدالله بن المعافا من وادعه إلى بلادهم وأظهروا الدعاء الى الإمام والميل إليه ، وانضم اليهم أهل ظليمة وعذر ، ثم تقدم الإمام إلى المحراب ودخل في طاعته أهل الهجر ، وتقدم السيد ابراهيم بن جحاف والفقيه على الشهارى بأمر الإمام بقبائل الأهنوم وعذر وظليمة إلى شاطب وجبل بنى حجاج والموسّم ، وكان فى السودة عسكر العثمانيين ، فوقع بينهم وبين أصحاب الإمام حرب فى جبل بنى حجاج ، قتل من أصحاب الإمام ثلاثة أنفار ، ولم يزل أصحاب الإمام يشنون عليهم الغارات حتى دخلوا فى طاعة الإمام ، ولم يبق فى حصن السودة إلا الأمير عبدالله بن المعافا[1] .

ولما استقر الإمام فى الأهنوم بعث بالسيد عبدالله بن هادى الحيدانى والقاضى حسن بن على النسارى وغيرهما بعسكر إلى بلاد الشرف ، فأجابهم أهل حجور ، وعاهم ، وطاعن ، فوقع بينهم وبين عسكر العثمانيين وأصحاب عبدالرحيم حرب فى بلاد الشرف انهزم فيها العثمانيون ، وأصحاب عبدالرحيم ، وأخذ اصحاب الإمام أثقالهم وأدوات القتال ، وفتحوا حجة ، إلى ان وصلوا جبل تيس ، ومنهم من تقدم إلى عفار ، وبعضهم أقام الحصار على عسكر العثمانيين فى نعمان حجة ، حتى خرجوا إليهم فبعثوا بهم إلى الإمام مأسورين .

وفى شهر شوال سنة ١٠٠٦ هـ/١٥٩٧ م توجه أصحاب الإمام لحرب مبين ، وكان به عبدالرحيم بعد أن فسدت بلاده عليه ، فحاصروه فى حصنه ولم يجد بدّا من مواجهة الإمام ، فسار إليه فأكرمه الإمام ثم أخذ عليه العهد مع البيعة ، وأمره بالتقدم إلى جبل عيال يزيد لمحاربة سنان فى عمران ، فأضمر فى نفسه الخديعة للإمام وندم على متابعته فراسل سنان سرا أنه يتنحى عن عمران ، ومتى دخلها بمن معه من أصحاب الإمام رجع إليه للقبض عليهم ، فعرف بمكيدته بعض أصحاب الإمام ، فأشار الإمام على

---

(١) الشرفى : اللآلىء المضيئة ص ١٥٠

بقية أصحابه بالتأخر ، فتأخروا عن عبدالرحيم وتقدم الى عمران بخاصته وفات عبدالرحيم ما أراد[1] .

وفى سنة ١٠٠٦ هـ/١٥٩٧ م علم العثمانيون ان حصن ثلا ينقصه المؤن والسلاح وأهله يشكون من قلته ، فجهز سنان الكخيا جيشه ، فوقعت مناوشات خارج المدينة ، انهزم فيها أصحاب الإمام لقلة عددهم ، واستشهد نحو ثلاثين نفرا ، ودخل العثمانيون المدينة وأخذوا جميع ما فيها ، وانحاز السيد شرف الدين الحمرى - والى الإمام على ثلا - مع جماعة إلى الحصن وذهب السيد أحمد المحرابى وهو من أصحاب الإمام إلى الأهنوم عند الإمام فألزم الإمام جميع الناس بالجهاد فى ثلا ، وحضهم على ذلك ، ووقفت القبائل مع الإمام موقفا محمودا ، فسار السيد صالح عبدالله القاسمى العريانى فى عسكر كثيرة إلى حضور ، وسار السيد عبدالرحيم القدمى إلى حضور أيضا ، وأغار السيد شمس الدين احمد الجونى والمشايخ بالقرب من ثلا وحاولوا دخول المدينة ، لكن العثمانيين ردوهم خارجها ، فلم يستطيعوا المقاومة نظرا لكثرة خيل العثمانيين ، ولم يكن مع أصحاب الإمام شيء من الخيل فانهزم أصحابه ، وقتل منهم جماعة ، ولما عاد أصحاب الإمام الى نواحى (البون) طمع العثمانيون فى أخذ العسكر الموجودين بحضور ، فقصدهم فى اليوم الثانى ، وكان النصر لأصحاب الإمام حيث استمرت الحروب لمدة يومين لاقى العثمانيون فيها هزيمة كبيرة ، فلما وجد صاحب كوكبان ابن شمس الدين موقف العثمانيين أراد انقاذهم فعمل على ان يشغل أصحاب الامام بمن قصدهم ثم يأتى هو من خلفهم فيقضى عليهم ، لكن النصر عقد لأصحاب الإمام حيث اتفق وصول ابن شمس الدين بنجدة لأصحاب الإمام بقيادة الحاج أحمد ابن دغيش فوقعت بينهم مناوشة ، كان النصر فيها لأصحاب الإمام ، وبعد هذا النصر رفع الحصار عن حصن ثلا ، ودخلته المؤن والبارود والرصاص[2] .

استطاع الإمام فى هذه الأثناء فتح كثير من المعاقل كالظاهر وشهارة والسودة ،

---

(١) تاريخ دولة الترك : ص ٩ ، ١٠ المؤلف مجهول

(٢) الجرموزى : النبذة المشيرة ص ٧٣ ، الشرفى : اللآلىء المضيئة ص ١٥٧

حروب الإمام في النهضة الأولى سنة ١٠٠٦هـ

هران
واشحة
القارة
شهارة
وادعة
حجة
كوكبان
خمر
ذي مرمر
الحيمة
المحويت
ذمار
عتمة
زبيد
برع
تعز
المخا
حضرموت
العوالق العليا
البحر الأحمر
البحر العربي

وخرج ابن المعافا إلى الإمام ، ولم يبق فى يد العثمانيين من المدن الا صنعاء وصعدة ، ومن البلاد اليمن الأسفل وتهامة .

وكانت هناك حروب عديدة خاضها الإمام فى هذه النهضة الأولى ، اكتفيت بذكر أهمها وكان النصر فى أغلبها له ، فقد نجح الإمام القاسم فى بسط سيطرته خلال عدة شهور على الحصون والأقاليم الممتدة من صعدة شمالا إلى صنعاء جنوبا ، وذلك ماعدا هاتين المدينتين لأنهما تعرضتا لحصار قوات الإمام وهجماتها ، وماعدا بعض الحصون الهامة الأخرى ، مثل حصن كوكبان حيث يوجد أحمد بن محمد بن شمس الدين ، وحصن الطويلة لوجود باقى أسرة الإمام شرف الدين فيه ، وكذلك حصن ذى مرمر لقربه من صنعاء .

كانت انتصارات الإمام موضع الدهشة للجميع حتى قيل : إنه « كان من العجائب أن أصحابه اذا توجهوا على حصن فتحوه فى أقرب مدة »[١] ، ليس هذا فحسب ، ولكن صنعاء نفسها فى هذه الفترة تعرضت لهجمات الإمام وأصحابه ، فقد كانوا يشددون الهجوم عليها أحيانا من الخارج حتى ان الرمى بالبنادق كان يصل إلى قصر حسن باشا[٢] كما كانوا يتسللون إلى داخلها أحيانا أخرى ، فيهاجمون حاميتها ، ويستولون على بعض أسلحتها وذخائرها ثم يفرون منها فى آخر الليل إلى جبل نقم المشرف عليها ويختفون به[٣] .

إنه يمكن القول ان انتصارات الإمام القاسم السريعة كانت تعبيرا عن مدى استجابة الأهالى لدعوته ، وتذمرهم من الحكم العثمانى ، خاصة فى المنطقة الشمالية حيث كانت جل فتوحاته فيها ، رغم قلة الأسلحة النارية لديهم ، لأن الولاة العثمانيين فى هذه الفترة كانوا يعملون على جمع الأسلحة على اختلاف أنواعها وخاصة النارية من أيدى الأهالى لإضعاف قدرتهم على الحرب ، لذلك كانت البنادق فى تلك المدة قليلة مع القبائل ، ولا تكاد توجد إلا مع أرباب الدولة ، إلا أن هذه القبائل استطاعت أن تعوض هذا النقص فى الأسلحة مما غنمته أثناء انتصاراتهم مع الإمام .

---

(١) عيسى بن لطف الله : روح الروح جـ ٢ ص ٩٤

(٢) الجرموزى : النبذة المشيرة ص ٦٤

(٣) الكبسى : اللطائف السنية ص ١٢٢



استقرار الإمام في السودة سنة ١٠٠٧هـ

انتقال الإمام للسودة

ولما بلغ الامام توجه الجيوش العثمانية على السيد عامر عم الإمام فى جبل تيس وهو يومئذ بحبور ، وكان ابن المعافا عنده ، رأى أنه من الأفضل الانتقال إلى السودة لقرب موقعها من السيد عامر ليمده بالنجدة ، زد على ذلك أنها تقع على ذروة جبل وتطل على وادى أخرف ، وعصيان الشهيرين بالزراعة فى حاشد[1] فوجودها على ذروة جبل يجعل التحصن بها أسهل من المنطقة السهلية ، ومن هذا الموقع يستطيع أن يخرج ولده محمد من مدع ، وكان ذلك رأى أصحابه أيضا ، وعلى ذلك تقدم الإمام إلى السودة فى شهر صفر سنة ١٠٠٧ هـ/١٥٩٨ م[2] . وفى هذه الأثناء توجه الكخيا سنـان إلى ثلا لمحاصرة السيد الحسن بن شرف الدين الكحلانى عامل الإمام ، ولما وصل إلى ثلا ، وتقدم لإعانة الأمير أحمد بن محمد واستفتاح بلاده ، فوقف فى الود أطـراف جبـل الطلع ، وتأخر أصحاب الإمام المحاصرون لحصن الطويلة ، فتوجه سنان لمحاصرة من فى مدع ، ولم يزل يستميل القبائل بالمال ، وكانت تلك طريقة يستعملها العثمانيون لاستمالة القبائل إليهم ، فكانوا يميلون ، نظرا لفقرهم وقلة مواردهم ، ثم وجه الكخيا سنان عساكره إلى بيت عذاقة[3] ووقع بينهم وبين أصحاب الإمام حرب قتل فيها قائدا أصحاب الإمام ، وقطعت رأساهما وهما السيدان الأخوان أحمد بن محمد المحرابى وأخوه على ، وخرج من فى مدع بأمان ، وبعد أيام طلب السيد الحسن بن شرف الدين الخروج من ثلا على يد الأمير أحمد بن محمد حاكم كوكبان فخرج السيد الحسن ، أما محمد ابن الإمام فقد رجع إلى أبيه سالما .

---

(١) حسين بن على لويس : اليمن الكبرى ص ٨١

(٢) الشرفى : اللآلئ المضيئة ص ١٧٥ ، الجرموزى ـ النبذة المشيرة ص ٨٠

(٣) هو جبل يقع شمال وادى نخلة

وخلال بقاء الإمام فى السودة ، توجه السيد عامر إلى الإمام ، فأمره بالتقدم إلى خُولان ، فسار إليه على طريق(نهم)ثم إلى بلاد(أنس)ومنها إلى الحيمة ثم قصد بأهل الحيمة إلى جبل تيس فاستفتحه وضيق على الأمير أحمد بن محمد مسالكه ، فنهض الأمير أحمد إلى الطويلة ، حتى وصل السيد عامر الى المحويت ولبث فيه يومين ، ثم رجع إلى العُدينة فتزوج فيها ، وحاصر أصحاب الأمير أحمد بن محمد ، حتى كاد أصحابه يستولون على المحصورين ، فوجه الأمير أحمد صاحب كوكبان الشيخ صالح الرواس وبعض النقباء فى عسكر لتخليص المحصورين ، فمروا بالعدينة ، ولا علم لهم أن السيد عامراً فيها ، والتقت بهم امرأة أخبرتهم بوجوده ، فمروا عليه وأحاطوا به من كل جانب ، ولم يكن لديه من أصحابه الا القليل ، وبقيتهم فى ردمان ، وكان بعض أصحابه قد أشاروا عليه بالانتقال عن ذلك المكان ، ولكنه لم يستمع للنصيحة ، ولم يجد السيد عامر بُدّا من الخروج إلى أصحاب أحمد بن محمد ، فقبضوا عليه وأخذوه أسيرا ، فلما علم أصحاب السيد عامر بذلك انهزموا ، وقتل منهم نحو ستين نفرا ، وتقدم الشيخ صالح الرواس بالسيد عامر إلى الأمير أحمد بن محمد فأرسل بهم إلى سنان وهو فى خمر ، فقتل الأسارى ، وسلخ جلد السيد عامر وهو حيّ ، وقد فت قتله فى عضد الإمام القاسم ورثاه بقصيدة طويلة •[1]

رغم هذه القسوة التى استعملها العثمانيون مع الإمام القاسم للقضاء على دعوته بشتى الطرق ، سواء الحربية منها أو النفسية ، وذلك بقتل وسلخ جلد عمه ومطاردة رسله إلى القبائل المختلفة ، حيث قبضوا عليهم ونكلوا بهم ليكونوا عبرة لغيرهم ، وذلك كما حدث مع العيانى الذى كان يتنقل فى الأقاليم الممتدة بين شهارة وصنعاء ، فقد سلخوا جلده هو الآخر حيا ، وكذلك الحال مع الحماطى الذى كان ينشر الدعوة فى زمار ، اذ مات بعد وضعه فى سجن صنعاء بقليل[2] • رغم ذلك لم يثن ذلك الإمام عن دعوته بل استمر فيها بعزم وصبر •

---

(١) الشرقى ـ اللآلىء المضيئة ص ١٨٦ ، ١٨٧

(٢) الموزعى ـ الاحسان فى دخول اليمن تحت ظل عدالة آل عثمان ص ٣١ ، الكبسى ـ اللطائف السنية ص١٢٢

بيد أن انتصارات الإمام السريعة وتهديده لصنعاء نفسها ، أثارت ذعر حسن باشا الذى سارع بطلب النجدة من مصر واستانبول ، فأرسلت السلطنة إلى واليها فى مصر بتجهيز الامدادات اللازمة لارسالها إلى اليمن على وجه السرعة ، كما استدعى أيضا على باشا من الحبشة .

وقد صور لنا أحد المعاصرين حالة اليمن فى تلك الفترة بقوله : « وصل المقام الاكملى والأمثلى والأفضلى الباشا على الشهير بالجزائرى إلى أرض اليمن معينا فيها للوزير حسن ، فانه استدعاه من إقليم الحبشة حين صارت أحوال اليمن مرتعشة »[1] .

وقد اختار حسن باشا على باشا بالذات من إقليم الحبشة لمعرفته بجهات اليمن ، اذ ترجع هذه المعرفة إلى أيام والده الذى كان ذا ثراء ومال عند العثمانيين فاقرض الوزير حسن الأكبر مالا كثيرا فى عهد السلطان مراد بن سليم بن سليمان ، مما أوجب خروجه إلى بلاد اليمن واستقر فى ذى جبلة ، وكان معه ولده علىّ ، فتربى باليمن ، ولما مات والده حفظ منزلته وثروته ، وطمع فى الرياسة ، فتنازل لحسن باشا بشىء من المال مقابل منحه إقليم ريمة بعد أن يفتحه ، وكانت تلك البلاد منيعة ذات حصون قوية ، وذلك فى عهد المتوكل على الله شرف الدين ، وخلال هذه المدة كان فى مدينة (وصاب) أمير عثمانى متوليا عليها من جهة الوزير حسن ، فارتكب المنكرات فجمع أهل (وصاب) العسكر وقتلوه بعد حروب شديدة ، ولما خرج على باشا بجموع كبيرة امتنع أهل (وصاب) وحفظوا بلادهم نحو أربعة أشهر ، حتى دخلها عنوة وقتل أكثر أهلها ، حتى انه كان يرى فى الأسواق الرؤوس على الشجر ، ثم بعدذلك استطاع دخول ريمة ، وسموه أمير سنجق ، ثم كثر ماله من التجارة ، فخاف الوزير حسن من أن يمتد سلطانه إلى جهات المغارب أى إلى جهات الساحل ، فأعطاه لقب الباشا على وولاه صعدة وبلادها إلى جيزان أى شمال البلاد ، ثم أعطاه الشرفين وما إليها ، وبلاد عفار وشاطب ، فعظم أمره أيضا فى تلك المناطق ، فخافه الباشا حسن ، فأرسل للسلطان فى الآستانة باخراج الباشا علىّ اخراجا جميلا من اليمن خوفا من استقلاله بها ، بعد

---

(٢) الموزعى - الاحسان فى دخول اليمن تحت ظل عدالة آل عثمان ص٤٢

امتداد قوته فى أكثر أقاليمه ، فولاه السلطان بلاد الحبشة ليستكفى شره ويبعده عن اليمن ، فلما استقر فى الحبشة ، وحدثت هذه التطورات فى اليمن استدعوه مددا لهم[1] • وكان وصوله فى شهر رجب سنة ١٠٠٧ هـ ـ ١٥٩٩ م وقد وعده حسن باشا بولاية اليمن الأسفل وما يستفتحه من بلاد الإمام[2] ، فوقف على باشا فى القنين ـ وهو موضع فى جبل السراة باليمن ـ وكتب إلى سنان ان يلقاه إلى بلاد خولان ، فدخل سنان من قبلى بلاد خولان ، والباشا علىّ من جنوبها ، فوقع الفتح واشتد غيظ سنان على أهلها ، خصوصا الفقهاء ، فانه شدد فى ظلمهم اعتقادا منه أنهم هم الذين يحرضون الرعية على طاعة الإمام ، فخرج الفقهاء إلى بدبدة ، واضطر بعضهم الى تغيير زيه ، ثم رجع على باشا إلى زمار ، ورجع سنان إلى صنعاء •

وفى سنة ١٠٠٨ هـ ـ ١٦٠٠ م رجع الباشا علىّ لفتح اقليم ريمة وكان محبا لها لانها أول ولاياته ، وبها جميع أمواله ، فاستأذن الوزير حسن فى رجوعه إليها ، فعينه حسن باشا حاكما لاقليمى وصاب وريمة ، اللذين كانا قد انضما إلى جانب الإمام ، فنهض إليها بجيش جرار ، فلما أراد أن يهبط إلى بلاد الجعفرية وإلى جبل ظلم ، وكانت جنوده تتقدمه وهو فى مؤخرتهم ، كمن له الشيخ سعيد صبر وأولاده واخوانه وخواصه فى مكان تحيط به الأشجار ، فلما وصل آخر العسكر وتحققوا من شخصيته رموه بالبنادق فقتلوه ، وقيل رماه أحدهم بحجر فى رأسه فمات ، فلم يشعر جنده بذلك حتى أخبروهم بقتله ، فضعفوا وتفرقوا ، فنزلت القبائل وأخذت أسلحتهم ، واستولوا على أموال الباشا علىّ ، وكان قتله فى يوم السبت ٢٣ صفر سنة ١٠٠٩ هـ ـ ١٦٠٠ م •[3]

لقد استطاع على باشا ان يخضع بعض الأقاليم التابعة للإمام بعد جهود مضنية إلى حظيرة الدولة العثمانية ، الا أن نهايته كانت على يد أحد زعماء هذه الاقاليم فلاقى حتفه هناك •

---

(١) الجرموزى ـ النبذة المشيرة ص٨٦

(٢) الشرفى ـ اللآلىء المضيئة ص ١٨٩

(٣) الكبسى ـ اللطائف السنية ص١٢٣
الموزعى ـ الاحسان فى دخول اليمن تحت ظل عدالة آل عثمان ص٣٤

ولما بلغ سنان مقتل الباشا علىّ رجع من غزو الحيمة إلى صنعاء ، وخرج الفقيه على بن يوسف الحماطى من الحيمة إلى أنس ، فاستدعاه أهل حصن مسار من نواحى حراز ، فسار إليهم ، ولما استقر فى الحصن عظم على العثمانيين الأمر ، فأخذوا يبعثون العسكر لحربه حتى قتل منهم نحو ثمانمائة نفر فى مدة الحصار .

كل هذه الأحداث والإمام مازال بالسودة مستقرا فيها ، الاّ أن سنان انتقل إلى شاطب لفتحها ، وأخذ يعمل على استمالة أهل خمر ، فبذل لهم الذهب الأحمر المغشوش واستمالهم إليه ، فلما تقدم لحرب أصحاب الإمام كانت المواقع خالية فدخل العثمانيون بلاد شاطب ،.ودارت الحرب مع جماعة فى جبل بنى حجاج من أصحاب الإمام الا أنهم انهزموا واستشهد منهم جماعة ، والباقون ذهبوا إلى حصن السودة ، فانتقل سنان إلى الصرارة ، ثم قدم عسكره إلى السّودة ، فتأهب الإمام لقتالهم ، لكنه أدرك من ابن المعافا الميل إلى سنان وكانت له يد فى دخوله السودة .

كان الإمام قد خرج من حصن السودة ، ثم رجع ليأخذ شيئا منه فمنعه ابن المعافا ، فقال الإمام :(هذا أمر عقد بليل)وفهم الحيلة من ابن المعافا وهمّ أحد أتباعه بقتل الإمام ففلت الرمح ، فخرج الإمام وليس عليه الا قميصه وسلاحه وقد لبس عمامته ، وتقلد مصحفه وسيفه ، ووقف بجانب السودة يرمى بالبندق فى مكان يسمى الصّاية بالقرب من الموسّن ، حتى عاد إليه فلول المهزومين فتقدموا إلى ظُليمة واستقروا فى مكان يسمى الأبرق ، وقد تفرق الأعوان عن الإمام حتى لم يبق معه الا ثلاثة من أصحابه الذين لايفارقونه فى سفر أو حضر ، واضطر الإمام للذهاب إلى جهات الأهنوم[1] .

أما أهل السودة فقد ضعفت عزائمهم بعد انهزام الإمام وأصحابه ، واضطربت أحوالهم ، وخافوا من بطش سنان الذى اشتهر بقسوته وشدته حتى أصبح ذكر اسمه يثير الرعب والذعر فى قلوب اليمنيين .[2]

---

(١) الشرفى ـ اللآلىء المضيئة ص١٨٠ ، الجرموزى ـ النبذة المشيرة ص١٢٢ .

(٢) الموزعى ـ الاحسان فى دخول اليمن تحت ظل عدالة آل عثمان ص٣٢

كان خروج الإمام من السودة ودخول الأتراك إليها فى صفر سنة ١٠٠٨ هـ - ١٦٠٠ م[١] وقد ذكر بعض المؤرخين أن خروجه كان سنة ١٠٠٧ هـ - ١٥٩٩ م ولكن الأرجح هو التاريخ الأول . لماذا ؟ لأن الإمام فى ١٠٠٨ هـ عندما فتح على باشا إقليم ريمة كان مازال فى السودة .

ان انتصارات الإمام القاسم المتتالية فى المنطقة الشمالية ، أجبرت بعض القواد اليمنيين على الدخول فى طاعة الإمام ، مثل عبدالرحيم بن عبدالرحمن وعبدالله ابن المعافا ، وقد بقى أمر هؤلاء الأمراء على ولائهم للعثمانيين طول قوة الإمام وسيطرته ، ثم تأكد هذا الولاء أو بدأ يظهر على حقيقته عندما انحسرت هذه السيطرة ، وهذا ما اتضح من موقف عبدالرحيم ، ثم عبدالله بن المعافا ، فقد انتهز عبدالرحيم أقرب فرصة للافلات من يد الإمام ، واللجوء إلى حسن باشا والكخيا سنان ، بعد أن دخل فى طاعة الإمام وولاه قيادة قواته لفتح عمران ، وانقلب كذلك عبدالله بن المعافا على الإمام أثناء انكماش سيطرته ، وتوالت انتصارات سنان فى المنطقة الشمالية ، فلم يسمح للإمام باللجوء إلى حصن السودة ومنعه من الدخول ، فاتجه الإمام عندئذ إلى حصن شهارة بالأهنوم بعد أن تأكد من خيانة ابن المعافا له .

أصبح الموقف جليا أمام نظر الإمام القاسم ، فقد أدرك أن هذه الحروب لم تكن ضد جبهة واحدة فقط بل ضد جبهتين : الأولى أو العنصر الرئيسى ما كان منها ضد العثمانيين ، والثانية : الأمراء اليمنيون المتعاونون مع الجبهة الأولى ، وقد عبر الإمام القاسم عن ادراكه لهذا الأمر فى أحد خطاباته العامة الموجهة إلى اليمنيين كافة بقوله : « وبعد فان الله قد أوجب عليكم قتل هؤلاء الاتراك وأعوانهم من العرب على أى حال ولو خفية فى الطرقات والمساجد والبيوت ، ومن ترك ذلك وهو يقدر عليه فهو عند الله من الهالكين »[٢]

لقد وقع اختيار الإمام لبلاد الأهنوم للاستقرار فيها بعد خروجه من السودة ، لأنه رأى أن فى بقائه مصلحة له ولأهل الاهنوم نفسه ، فان أهل الأهنوم كثيرا ما كانوا

---

(١) عيسى بن لطف الله - الروح الروح جـ ٢ ص٨١

(٢) الجرموزى - النبذة المشيرة ص٧

يلجأون للإمام فارين من بطش العثمانيين وأذاهم ، بالاضافة إلى بُعد الأهنوم عن مركز الدولة فى صنعاء ، وبها جبال حصينة يستطيع أن يلجأ إليها اذا داهمه الخطر ، كما أنه يعتقد أن جهات الأهنوم اعرف بحقوق الأئمة وما يجب عليهم نحوهم ، فهم أسرع للاجابة والموالاة من غيرهم ، هذا كان رأى الإمام ، أما اصحابه فقد رأوا الإنتقال إلى جهة اخرى كجهات خولان مثلا ، وذلك لما راوه من فشل أهل الأهنوم وتفرق آرائهم ، وأنهم خافوا أن يميل الناس إلى جانب العثمانيين ، لكن كانت وجهة نظر الإمام هى الأصوب فى اختياره الأهنوم .[1]

وقد نقل الجرموزى مؤلف سيرة الإمام القاسم هذا الحديث بين الإمام القاسم وابنه محمد المؤيد بالله عن استقراره فى شهارة ببلاد الأهنوم ، قال له : « ياولدى لايغرنكم اقبال الفتوح ، فتتركون شهارة وتستبدلون بها ، فقد حصل معى غلط وخطأ بالبقاء فى السودة وترك الأهنوم فى تلك المدة فإنا لم نتمكن من الخروج منها من غير ملاحمة »[2]

وهكذا كان اختيار الإمام القاسم للأهنوم ولشهارة بالذات راجعا إلى أهمية موقعها الحصين ، اذ أنها تقع على قمة جبل بالاضافة إلى توفر المياه فيها ، فهى منيعة من جميع نواحيها ، وتنقسم إلى قسمين شهارة الأمير ، وشهارة الفيش كل منهما فى رأس جبل يفصل بينهما شطر طبيعى للجبل يبلغ عمقه نحو مائتى متر ، وهى تبعد عن صنعاء ١٣٠كم ، وارتفاعها عن سطح البحر ثلاثة آلاف قدم[3] ، كل هذه الاعتبارات من حيث حصانة موقعها ، ووجود الجبال بها تجعل اليمنيين وخاصة أهل الشمال يتحصنون من أعدائهم داخلها لأنهم تعودوا الصعود والهبوط منها بسهولة بالاضافة الى معرفتهم بمسالك هذه الجبال ، وذلك على عكس العثمانيين فان وعورة هذه المنطقة تحرمهم من استعمال معداتهم الحربية الثقيلة ، اذ كان يصعب على الجنود نقلها من مكان إلى آخر ، كما أن الفرسان يصعب على خيولهم تسلق تلك الجبال ، هذا بالاضافة إلى بعدها عن صنعاء ، وتوفر المياه بها . كل هذه الاعتبارات جعلت من شهارة حصن الإمام وأصحابه الحصين ، وجعلته يوصى ابنه باتخاذها مركزا لدولته ، فهنا يظهر مدى عمق

---

(١) الشرقى ـ اللآلى المضيئة ص١٨١

(٢) الجرموزى ـ النبذة المشيرة ص١٢١

(٣) عبدالله الثور ـ هذه هى اليمن ص ٣٩٥

نظرة الإمام القاسم فى اختياره للأماكن التى يتحصن بها أو يستقر فيها ، مما يدل على معرفته بفنون الحرب واختيار الأماكن الاستراتيجية فى ذلك الوقت ٠

دخل الإمام شهارة واستقر فيها ، ولكن العثمانيين لم يتركوه وشأنه بل أرسلوا إليه الحملة تلو الأخرى ، وشددوا على شهارة الحصار سنة ١٠٠٩ هـ ، وجعلوا عليها الحراس من العثمانيين والعرب ، وكان قائد العثمانيين ذو الفقار ٠ ومن العرب الأمير عبدالله بن يحيى بن عمرو بن المعافا ، بعد أن ولاه حسن باشا جميع بلاد الأهنوم ، وكان حصار شهارة ٣ شوال سنة ١٠٠٩ هـ ـ ١٦٠١ م[١] ٠

طلع ابن المعافا بجميع عسكره ومن معه من الأمراء إلى نجد خمر ، بعد أن ولاه جميع الأهنوم إلا الشهارتين ، وجماعة من مشايخ الأهنوم انحازوا مع الإمام ، وفى ذلك اليوم وما بعده رتب عسكره حول شهارة فوقف هو فى نجد بنى خمر ، وجعل أميرا من العثمانيين يسمى رمضان فيما بين شهارة وبنى خمر فى عسكر كثير ووجه الأمير ذا الفقار إلى حميمة على شرق شهارة ، ثم رتب الأماكن حول شهارة من جميع جوانبها ، لكى يظفروا بالإمام ، لكن دون طائل ٠[٢]

خلال ذلك وقعت عدة وقعات منها موقعة (المحافر) سنة ١٠١٠ هـ ـ ١٦٠٢ م فقد جهز ابن المعافا جيشا فى مكان يسمى المحافر شرق شهارة وهى عبارة عن أكمة لأنه يعتقد أن حفظه لهذا المكان يمكنه من أهل شهارة وقد بذل الأموال الطائلة للعسكر حتى يثبتوا فى أماكنهم ، وعمروا فى هذا المكان أربعين موضعا ، وجلبوا أهل الأهنوم للعمارة ، فحملوا الأخشاب والأبواب من كل مكان ولما استقروا فى المكان خرجت عليهم جماعة من أهل شهارة وأصحاب الإمام نحو مائة نفر لتخريب المكان ، لكنهم لم يستطيعوا لقوة العثمانيين وكثرتهم فى هذا المكان ، ورغم ذلك فانهم حاربوهم وثبتوا فى أماكنهم يوما كاملا من طلوع الفجر حتى الغروب ٠ وكان سلاحهم الحجارة ، وكان العثمانيون فى تلك الأكمة ، وأصحاب الإمام من فوقهم يرمون بالحجارة فى الهواء[٣] ٠

---

(١) الجرموزى ـ النبذة المشيرة ص١٣٤

(٢) الشرفى ـ اللآلى المضيئة ص ١٩٢

(٣) المنجنيق كالمدفع الهاون الذى استعمله العثمانيون

حتى انتهت المعركة بقتل رئيسهم الأغا محمد ، فلما قتل ضعفت عزائمهم ، وتركوا المكان ومابه من خيام يقدر عددها بنحو تسع خيام ، أخذها أصحاب الإمام ونصبوها فى شهارة عند الإمام[1] . وفى نفس العام ١٠١٠ هـ - ١٦٠٢ م عمل ذو الفقار على قطع طريق الاتصال بين شهارة الفيش وشهارة الأمير فوقف فى مكان يسمى الرحبة ، فاحتال حتى نصب مترسا[2] مرتفعا وحصنه بوضع من يحميه من خاصته . فلما علم الإمام بذلك اجتمع مع أهل الشهارتين ، وطلب منهم الاستعداد لقتال العثمانيين ، وأن يهبوا له أعمارهم فى ذلك اليوم ، فكان له ما أراد ، واستعدوا لتخريب هذا المترس ، فنزل الإمام معهم حتى ركزهم بالقرب من حصن المنصورة ، فلما اكملوا التعبئة كبـروا ، والتقى الفريقان فرماهم العثمانيون بالبنادق واختلط الرجال ودخان البنادق وشعـاع النيران حتى صار الضوء كالشمس وقد حدث فى ذلك الوقت خسوف القمر فأظلم المكان ، ورجع أصحاب الإمام بعد أن هزموا العثمانيين وأخربوا المتـراس ولـم تكن خسائرهم كبيرة .[3]

استمرت الحروب المتتالية على شهارة طول مدة الحصار ، فكان بعض أصحاب الإمام ينزلون على بعض مواقع العثمانيين فيأخذون ما فيها ، ويقتلون من يتعـرض لهم ،[4] وكانت الحرب سجالا .

ونظرا لطول مدة الحصار وقلة المؤن فى شهارة اختفى الإمام فى كهف بالقرب من المنصورة بشهارة ، وكان الحاج أحمد بن على بن دغيش الغشمى يرسل السعاة سرا فى البلاد الخاضعة للإمام ليجمع المؤن والزاد للإمام ويعطيها للحاج سالم الحكمى والحاج محمد بن زياد وهم من بلد قريبة من شهارة الفيش ليصلوا بهذه المؤن للإمام وذلك لمعرفتهم بالطرق ، وكان الإمام ينزل إليهم ليأخذ ما معهم بعد التأكد منهم ، ولما طالت مدة الحصار وعانت شهارة من قلة المؤن أكثر فأكثر ، يئس الإمام من التفريج عن شهارة ، فوجد أن الحل الوحيد هو خروجه منها ليسهل رفع الحصار عنها ودخول المؤن

(١) الجرموزى - النبذة المشيرة ص ١٤٠

(٢) المترس - هو ما يستتر به من العدو كالحائط (المنجد)

(٣) الجرموزى - النبذة المشيرة ص ١٤٠

(٤) الشرفى - اللآلىء المضيئة ص ١٩٣

لأهلها ، وبعد أن شاور أصحابه فى كيفية الخروج واجتمع رأيهم ، خرج الإمام فى يوم ٣ شوال سنة ١٠١٠ هـ ـ ١٦٠٢ م وفرح أصحابه بذلك ، وصحب معه الفقيه على الشهارى والرئيس على بن وهان العذرى ، وترك أبناءه محمداً والحسن والحسين وعليا وأحمد ، وترك خطابا عند الشيخ ابراهيم بن المهدى الجحافى ليجيب عن مطالب أهل شهارة ، وما يحتاجون إليه ٠

وجد الإمام وأصحابه الكثير من المشاق فى الخروج من شهارة إلى جهات برط لشدة الحراسة على شهارة من قبل العثمانيين ، وصعوبة الهبوط فى الليل لعسرها وطول مساحتها وعدم معرفة الطرق ليلا ، اذ كانوا يسيرون ليلا ويختفون نهارا ٠ فلما وصلوا بلاد بنى سفيان وبها أمير من العثمانيين اختبأوا فى مغارة عظيمة ، وكان هناك شيخان من نهم هما الشيخ سريع والشيخ سعيد عملا على اخفاء الإمام فى تلك المغارة ، وما جاء إليها أحد الا صرفاه ٠ وكان العثمانيون كلما اختفى الإمام عن أعينهم شددوا فى الحراسة ، فكانوا يخرجون الخيل تطوف حول الأماكن لتستطلع اخبار الإمام ، ولماجاء الليل خرجوا إلى البطنة فسمعوا صوت الخيل فاختفوا حيث أمضوا ليلتهم ، وكان نعل الإمام قد سقط فقطع الطريق وهو حافى القدمين ، فشق عليه المشى ، حتى انه قطع من ثيابه على أقدامه وأكمل سيره فى الليلة الثانية حتى وصلوا حوث ، وطلعوا الجبل الأسود من بلاد سفيان وأشعلوا النار فوق الجبل لتدل من فى شهارة أنهم وصلوا بأمان ، ففرح أهل شهارة بسلامة وصول الإمام ، وفرح ولده محمد وأظهر البشرى ، ثم ارتحل الإمام إلى برط[1] ، ولما وصل هناك احتفر بئرا ، وبنى مسجدا جعله مقرا لدعوته ، وسمى الموضع (الهجرة) وهو قريب من ذى محمد ، بطن من بطون برط ، والتف حوله بعض أتباعه من العلماء والفقهاء وقصده مريدوه من كل أنحاء البلاد لتلقى تعاليمه ، أو لتسليمه الأموال والنذور التى يتبرع بها أتباعه ٠

بقى الإمام فى برط بعض الوقت بعيدا عن متناول العثمانيين حتى أتيحت له الفرصة لإعلان الحرب ثانية ، غير أن اقامته هناك لم تكن آمنة تماما ، فقد تبرم بعض أهالى برط من اقامته بينهم خوفا من بطش العثمانيين بهم اذا امتدت أيديهم إلى بلادهم ، كما لم تكن اقامته آمنة كذلك لأن حاكم صعدة المسمى قرا جعه وصل إلى الهجرة التى

---

(١) برط ـ جبل متين واسع الاطراف فى رأسه أودية زراعية ،وآبار جوفية يزرع فيه العنب ومن الشمال يشرف على نجران ٠

بناها الإمام ، مما اضطر الإمام إلى الخروج منها فى القفار البعيدة ، ولما وصل العثمانيون خربوا الهجرة وهدموا المسجد ، واتجهوا إلى جهات برط للقبض على الإمام لكن لم يتم لهم ذلك ، فهم يبذلون الأموال الكثيرة للقبض عليه ، وجعلوه همّهم وموضع قصدهم ، لظنهم أنهم اذا تمكنوا منه أطفئت نار الفتنة ، وقد بعثوا الجواسيس وأكثروا من الجند للبحث عنه ، لما ذاقوه من مرارة حربه منذ ظهور دعوته ولما عرفوا عنه من الهمة والصبر واقبال الرعية إليه[1] . وقد حاول الإمام الارتحال إلى نجران فى الشمال أثناء وجوده فى برط ، بعد أن والاه بعض أهلها لكن عند وصوله إليها حدثت حروب استشهد فيها بعض أصحابه ، لأن أهلها من الباطنية ، فلم يستقر بها لخوفه من خبث أهلها ومعارضتهم للأئمة فعاد إلى جهات برط ثانية .[2]

خرج الإمام القاسم من شهارة كما ذكرنا وترك أمر الدفاع عن الحصن لابنه محمد الذى واصل الحرب والصبر فى وجه العثمانيين ، لكن الإمام أثناء وجوده فى برط عمل على اخراج أولاده على ـ الحسن ـ والحسين من شهارة ، فقد ارتدى بعض أصحابه ملابس الحطابين ليحتالوا على حراس العثمانيين ويستطيعوا دخول شهارة واخراج أولاد الإمام ، وبالفعل تم لهم ذلك ، وقد حاولوا اخراج ابنيه أحمد ومحمد فى المرة الثانية لكن محمداً أبى ذلك وقال : « لقد وهبت نفسى لله سبحانه ، ولبن فى شهارة المحروسة بالله مع المسلمين والعلماء والمستضعفين ، وإن الإمام لم يأمرنى بذلك ، وفى بقائى سلامة لمن فى شهارة »[3] .

لما علم العثمانيون بخروج الامام وأولاده من شهارة ، اضطربت أحوالهم وهاجوا وصبوا غضبهم على القبائل ، وأخذوا منهم الرهائن وهدموا بيوتهم وخاصة قبائل حاشد وبكيل[4] . وأما أهل شهارة فقد صبروا بعد خروج الإمام وخاضوا عدة حروب كاد يذهب فيها ابن الإمام ، لكن العثمانيين وأعوانهم من آل شرف الدين كانوا مازالوا محاصرين لشهارة ، وقلت المؤن أكثر فأكثر ، وأهل شهارة يعانون من شدة التعب ،

---

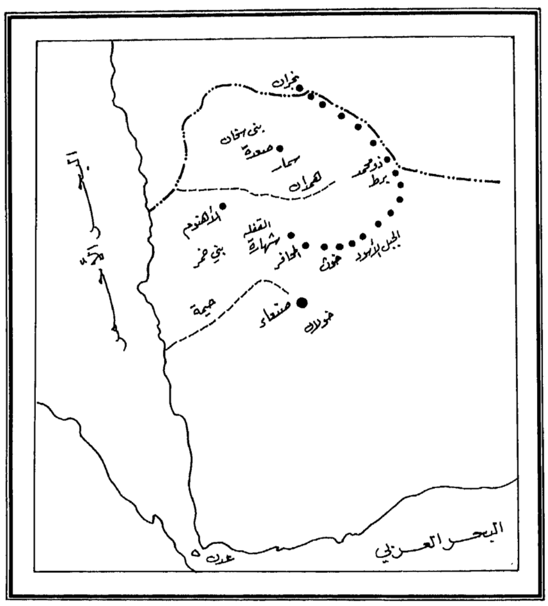
(١) الشرقى ـ اللآلىء المضيئة ص ١٩٥

(٢) الشرقى ـ اللآلىء المضيئة ص ١٩٥

(٣) الجرموزى ـ النبذة المشيرة ص ١٤٠

(٤) الجرموزى ـ النبذة المشيرة ص ١٣٦

فاضطر محمد ابن الإمام الى الموافقة على تسليم نفسه للعثمانيين ، فأرسل الفقيه صلاح ابن عبدالله الشطبي إلى ابن المعافا بخطاب ، فما كان من ابن المعافا الا أنه ارسل يستدعيه لتمام تسليم شهارة إلى أيدى أحمد بن محمد بن شمس الدين حاكم كوكبان ، وكان هو من جملة المحاصرين لشهارة وشرطوا أن تخرج القوات الإمامية من الحصن



حصار شهارة سنة ١٠٠٩هـ وخروج الإمام منها إلى برط

بأمان ومعها أسلحتها ، وان يذهب الجنود إلى حيث يشاءون وهكذا تم تسليم الحصن للعثمانيين على هذه الشروط فى أول شهر محرم سنة ١٠١١ هـ ـ ١٦٠٢م[١] ، وان كان قد ذكر فى بعض المخطوطات أن خروج ولد الإمام ٢٧ ذى الحجة سنة ١٠١٠ هـ[٢] • وعلى أى حال فإن التاريخين متقاربان ، فيكون بذلك حصار شهارة حتى خرج الإمام منها أحد عشر شهرا وسبعة وعشرين يوما ، ثم حفظها محمد ابن الإمام سنة كاملة[٣] • وقد وافق العثمانيون على هذه الشروط خوفا من انتقام الإمام القاسم رغم ضعف قوته حينذاك ، وحتى لايثيروا الأهالى ضدهم اذا قتلوا محمدا ابن الإمام أو نكلوا به •

بذلك انتهت النهضة الأولى من دعوة الإمام القاسم ، والتى دامت خمس سنوات ، استطاع الإمام خلالها أن يبسط سيطرته على أغلب الأقاليم الشمالية وحصونها ، ثم عاد فخسر كل هذه الممتلكات ولجأ الى برط ، واستعمل العثمانيون القسوة البالغة فى مناهضة الإمام فقد طاردوا رسله فى البلاد ونكلوا بهم وجعلوهم عبرة لغيرهم ، وقتلوا عمه عامرا ، كما سبقت الإشارة إلى ذلك ، واشتدوا فى معاملة أتباعه وجيوشه عندما بدأت سيطرته فى الانكماش ، فقد أخذوا ينكلون بالأسرى ويقتلون بعضهم ، ويأخذون من بين قبائلهم الرهائن الكثيرة ، وقد آتت هذه السياسة أكلها فى مناهضة الإمام حيث تقاعست بعض القبائل عن مناصرته ، عندما قرر إعلان الحرب من جديد على العثمانيين من برط ، وذلك كما فعلت قبائل وادعة الشام ، فقد رفضت الاستجابة لدعوته ، بل واستعدت لمحاربته ، وذلك رغم أن هذه القبائل كانت من أهل السبق والمحبة له ، هذا بالاضافة إلى تعاون أمراء آل شرف الدين وغيرهم من الأمراء الزيديين الموالين للعثمانيين ، هذا التعاون القائم على المصلحة ، ومع ذلك فإن الإمام استعد من جديد ليخوض غمار الدعوة والحرب من برط ، وبدأت بذلك النهضة الثانية •

---

(١) الجرموزى ـ النبذة المشيرة ص ١٤٠

(٢) يحيى بن الحسين ـ أنباء أبناء الزمن ص ١٤٧

(٣) الجرموزى ـ النبذة المشيرة ص ١٣٤

الفصل الثاني

ولاية سنان باشا سنة ١٠١٣-١٠١٥هـ

النهضة الثانية

أ - عرض الصلح على الإمام القاسم في ولاية سنان باشا سنة ١٠١٣هـ .

ب - التطورات في النهضة الثانية وفكرة رحيل الإمام للبصرة .

ج - انضمام الأمير عبد الرحيم بن عبد الرحمن للإمام وبقية التطورات .

د - عودة شهارة للإمام القاسم سنة ١٠١٥هـ ثم عقد الصلح مع سنان باشا قبل رحيله .

ظل الإمام القاسم فى برط لمدة سنتين ، يجمع الأعوان حوله ويتأهب لبدء الحرب على العثمانيين من جديد ، ومن هنا تبدأ النهضة الثانية من دعوته ، لكن أهل برط كانوا يكرهون بقاءه فى بلادهم خوفا من سنان الذى أصبح واليا على اليمن بدلا من حسن باشا فى سنة ١٠١٣ هـ ـ ١٦٠٥م ، الذى ظلت ولايته على اليمن خمساً وعشرين سنة سنة ٩٨٨ هـ إلى ١٠١٣ هـ الموافق سنة ١٥٨٠م الى ١٦٠٥م ، وفى آخر السنة الثانية عشرة بعد الألف وصلت الأوامر من السلطان أحمد الأول بتولية سنان ولاية اقليم اليمن عوضا عن الوزير حسن ، وأعطى الوزير حسن ولاية مصر[١] .

وجد سنان باشا أنه من الأفضل بعد هذه الحروب المضنية بينه وبين الإمام القاسم دون النيل منه ، بالاضافة الى تألب الأهالى عليه ، واستعماله الشدة معهم ، أن يعقد صلحا مع الإمام ، ومن ثم اتفق مع الأمير أحمد بن محمد صاحب كوكبان على أن يرسلوا للإمام يعرضون عليه الصلح وهو يومئذ فى برط . فأمر السيد الحسن بن شرف الدين الكحلانى ـ وكان فى حبس كوكبان ـ أن يكتب إلى جهة برط ، ويعرف الإمام بشأن الصلح ، وما ينبغى من تسكين الفتنة ، على أن يقيم الإمام أينا أحب من الهجر ، ويجعل له جانبا من البلاد ، مع كفايته هو وأولاده ، وكان هذا بمثابة تواطؤ بين الأمير أحمد بن محمد وسنان باشا ، لكى يغروا الإمام بإقطاعه أرضا حتى يترك هذا الأمر ، ظنا منهم أن هدفه من وراء تلك الدعوة والحروب المميتة هو السيادة والحكم ، لكن الإمام رفض هذا الأمر لأن ذلك لم يكن هدفه من وراء هذه الحروب ، وقد أجاب الإمام على ذلك الخطاب بجواب طويل « وتحققنا ماذكرتم ، أبقاكم الله ولم تذكروا فى

(١) الموزعى ـ الاحسان فى دخول اليمن تحت ظل عدالة آل عثمان ص ٤٤

كتابكم تحقيق أحوالكم وأحوال أولادنا السادة ، مع أنه نقل الينا حسن صنيع الأمير صفى الدين أحمد بن محمد بن شمس الدين ابن أمير المؤمنين ، من فعل المعروف الطائل ، الذى جاء شكره على لسان كل قائل ، وورد به الرجال ، والركبان ، فالله يحسن إليه ٠٠

أما ماذكرتم ابقاكم الله من ترك الفتنة والميل إلى الراحة فهيهات اترك قول الله تعالى « من كان يريد الحياة الدنيا وزينتها نوف إليهم أعمالهم فيها وهم فيها لايبخسون » إلى أن قال : « وأما ماذكرتم من اقطاع بلاد فأنا أحق بها ، بلى ان يتركوا شهارة وبلادها ، ووادعة ، وبلاد خولان ، وجبل رازح مع برط ٠ ويعقد صلحا سنين معروفة طولها وقصرها إليهم ، فان ذلك مشروع ، فان يرضوا فقد رضينا ولاننقض ان شاء الله تعالى عهدا واوفوا بالعهد ان العهد كان مسؤولا ، والامير صفى الدين يضمن لنا وعلينا »[1]

وهكذا اشترط الإمام أن تكون له بلاد شهارة ، ووادعة وخولان وجبل رازح وبرط ويكون هذا الصلح لمدة معينة ، لكن سنان باشا لم يرض بهذه الشروط بل أراد أن يمنحه بعض تلك الأراضى ويجعل له اسم الإمارة ، ويخضعه كباقى أمراء آل شرف الدين ولكن الإمام لم يرض بذلك ، فما كان من سنان إلا أن أرسل للامام مرة أخرى بواسطة محمد بن شمس الدين يهدده بأن يقبل بذلك ويتخلى عن هذا الأمر ، والا سوف يعذب أولاده ويقتلهم ، فلم يكن من الإمام الا أن رد عليه بقوله : « أما من عندكم من المأسورين فافعلوا بهم مابدالكم ، وأقسم بالله لأبلغن فى حربكم ونكالكم كل مبلغ ، ولأروغن لكم روغان الثعلب ، ولأثبن عليكم وثوب الاسد »[2] .

فقد وقع هذا الخطاب فى قلوب العثمانيين موقعا عظيما هدّ من قواعدهم وأيقنوا أن الإمام القاسم ليس بالشىء السهل الذى يستهان به ، أو تغريه مباهج الحياة الدنيا فقد قدم أولاده فداء دعوته وتحقيق غايته ٠

---

(١) الجرموزى ـ النبذة المشيرة ص ١٤٥

(٢) الشرفى ـ اللآلىء المضيئة ص ١٩٧

وهنا نلاحظ أن الإمام هو الذى أملى شروط الصلح على سنان ، مما يظهر لنا مدى تخوف العثمانيين منه ، ومدى ماوصل إليه من مكانة خلال خمس سنوات خاض فيها غمار الحرب ، ولما وجد سنان ذلك من الإمام لم يكرر المخاطبة معه فى الصلح واستعد للقتال من جديد ، بعد ان أنهكه وأصحابه لمدة خمس سنوات كانت الحرب فيهـا سجالا ٠

ورغم ماكان الإمام يعانيه من شدة من أهل البلاد فى برط ومن التنقل من مكان الى آخر ، لم يقبل هذا العرض المغرى ، ففى أيام بقائه فى برط ومعه أولاده وأصغرهم الحسين كانوا يعانون من شدة الجوع حتى إن الإمام كان يبكى وولده الحسين قد سقط من شدة الجوع[1] فلوكان هدفه السيادة أو الإمارة لقبل بعرض سنان فورا ٠

وانتقاما لرفض الإمام عرض سنان باشا ، توجه سنان إلى الحَيْمة ، والتقى به أحمد ابن محمد صاحب كوكبان ليدخلوها عنوة ، وكان أهل الحَيْمة قد مالوا مع الفقيه على ابن يوسف الحماطى ، وطلبوا منه التقدم إلى بلادهم والجهاد معهم فوصل اليهم واستخلف على حصن مسار بعض أصحابه ، فلما وصل الحماطى إلى موضع يسمى (حد بنى النمرى) من بلاد الحَيْمة ، ولم يكن أهل الحيمة راضين جميعا عن وصوله ، ولذا بقى فى موضعه ، فتوجه إليه من صنعاء النقيب سعدان بن عبيد ـ وهو أمير كبير فى عسكر العثمانيين ـ فالتقوا فى جبل الركب عند حصن رُدَمان من بلاد حُضور ، وأرسل ابن شمس الدين بعض أمرائه فى جمع كبير ليقابلوه من الشاحدية ويدخلوا الحيمة من أسفلها ، وكل هذه الجموع التقت بالحماطى ووقع القتال ، فلما رأى أهل الحيمة تلك الجموع انكسرت عزائمهم وخافوا على حريمهم وبيوتهم ، فلما أحس بذلك الحماطى وتخاذل أهل الحيمة مال إلى ناحية بعيدة فى الليل ، ثم رجع الى مسار وواجه العثمانيون الموقف ، وقتلوا اكثر من ثمانية وعشرين رجلا ، ودخل الجنود بلاد الحيمة واسروا كثيرا من النساء المجتمعات فى حصن العر ، فتشفع فيهن الامير احمد بن محمد بن شمس الدين عند النقيب سعدان ، وآل الأمر إلى أن أذن بدخول الحصن بعد ان أعطوه

---

(١) الجرموزى ـ النبذة المشيرة ص ١٤٩

العهود والمواثيق على سلامة من فيه من الرجال والنساء والأطفال وكانوا زهاء سبعمائة شخص ، ولكن النقيب سعدان نكث بالعهد ، وأباح من فى الحصن للعثمانيين ، فأسروا النساء والأطفال وهرب الرجال ، ثم سعى ابن شمس الدين فى اطلاق بعض المأسورين ، واختير من جملتهم أربعون شخصا كرهائن ، كل رهينة امرأة وطفل وطفلة وأطلق الباقون[1] .

هذه المعاملة القاسية التى عاملوا بها اهالى البلاد زادت من كراهية أهل اليمن فى بقائهم تحت حكم العثمانيين ، فكانوا ينضمون إلى أى حركة مضادة لهذا الحكم ، لكن هدف العثمانيين من وراء ذلك كان ارهابهم ، لكى لاينضموا الى الإمام القاسم ، وقد آتت هذه السياسة أكلها فى أول الأمر ، ولكن بعد الانتهاء من المعارك كانوا مايلبثون أن يرجعوا للانضمام للإمام ، وتشجيع دعوته والنصرة له للتخلص من الحكم العثمانى ، وقد اتخذ الإمام الجانب الدينى والاختلاف المذهبى بين الاهالى والعثمانيين سببا لجذب هذه القبائل إليه مرة ثانية .

ثم توجه سنان إلى حراز لحصار حصن مسار لوجود الحماطى به ، وبعد حصار دام ثلاثة أعوام وأربعة أشهر تسلم سنان الحصن[2] ووجه سنان باشا الأمير قراجمعه واليه على صعدة للتقدم الى برط لمحاربة الإمام القاسم بن محمد ، فساروا إليه ، ولم يقدر أهل برط على منعهم ، وكان الإمام قد عمر موضعا فى المحلات الخالية ، والقفارات النائية وسكن فيه بأصحابه ، ولما بلغه مسيرهم إليه ، تحول عنه إلى محل بعيد عنه ، فوصل العثمانيون إلى محله الذى كان فيه فلم يجدوه ، فرجعوا إلى صعدة ، فلبثوا فيها مدة ، ثم عادوا إلى برط ، لكن أهل برط تغيروا على الإمام ، واشتد خوفهم من العثمانيين ، لأن العثمانيين كانوا يأخذون الرهائن منهم ويكتبونهم فى ديوان عساكرهم ويوجهونهم إلى اليمن الأسفل مع أمير لهم يسمى أحمد الأخرم ، وكذلك كانوا يفعلون

---

(١) الشرقى ـ اللآلىء المضيئة ص ١٩٦

(٢) الجرموزى ـ النبذة المشيرة ص ١٤٧



حروب الحَيْمة وصعدة في النهضة الثانية

مع باقى قبائل حاشد وبكيل لأن الأمير سعدان العبدلى قال لسنان « كل من كان فى دفتر الامام فأنا زعيم بادخاله دفترك »[1]

وقرب الجند العثمانى من المكان الذى كان فيه الإمام لكن النزاع دب بينهم مما فرق كلمتهم فرجعوا إلى صعدة ٠

كان موقف أهل برط ، وغزو قراجمعة صاحب صعدة للامام ، من أهم الأسباب التى حملت الامام على الخروج من برط ، وقد رأى الامام أنه من الأرجح الخروج إلى بلاد بنى سفيان ، فطلع الجبل الأسود أعلى من عيان ، لكن العثمانيين كانوا حريصين كل الحرص على توزيع الجنود على المحطات المختلفة ، للانقضاض على الامام خاصة بعد تفرق أهل البلاد عنه لخوفهم من العثمانيين ، ولكثرة هزائمهم فى هذه الفترة ، ووضعوا فى بلاد حاشد وبكيل فرقة من الجند وكذلك فى خمر والصرارة وعمران وذئبين ، ووادعة ، والهجر من بلاد الأهنوم والسودة ، وبلاد ذئبان ، وتفرق العلماء والفضلاء فى أطراف البلاد فى غاية من التخفى ٠

فلما وصل الامام إلى عيان رفض أهله نصرته ، وانضموا إلى بعضهم بعضا ، فلما وجد الامام ذلك خرج إلى الشرق ووصل إلى أسفل بلاد خيار من بنى صريم ٠

يئس الامام من تفرق الأهالى عنه ومنعه من دخول بلادهم ، لتخوفهم من العثمانيين ، وتوالت على الامام الهزائم وتربص العثمانيون به من كل الجهات ، وشددوا فى التجسس عليه وأرسلوا ضده الحملات من صعدة وكوكبان وغيرهما ، واشتد الأمر على الإمام وكان يعتقد أن ما أصابه سببه عدم الجهاد وعدم الاستعداد لمنابذة العثمانيين ، وبقاؤه فى برط مدة دون حرب العثمانيين ، لكن ما الحيلة وقد تفرقت عنه جميع القبائل والعلماء ، ففكر فى أن يرحل إلى البصرة سنة ١٠١٣ هـ - ١٦٠٦ م[1] حتى يأتيه الفرج والنصر من الله ٠

ولا ندرى لماذا وقع اختيار الامام القاسم على البصرة بالذات ؟ ولكنا نرجح أن يكون هذا الاختيار راجعا إلى أن العراق هو مهد الشيعة حيث أقام به الخليفة على ابن

---

(١) الجرموزى - النبذة المشيرة ص ١٥٣

(٢) يحيى بن الحسين - أنباء أبناء الزمن ص ١٤٨

ابى طالب ، مدة خلافته ، وحيث كثرت زيارات مؤسس المذهب الزيدى الامام زيد إلى العراق ، وقد يكون تفكيره هداه إلى الذهاب للعراق لطلب العون من الدولة الفارسية الشيعية ، حيث كان النزاع قائما ومستمرا بين الشيعة فى العراق والدولة العثمانية السنية للسيطرة على العراق ، فكان التقاؤهما ، وكانت كل منهما تسعى لفرض زعامتها على العالم الاسلامى حينذاك ونحن نعرف تاريخيا أنه من ضمن الأسباب غير المباشرة لدخول العثمانيين اليمن هو مهاجمة الشيعة الصفويين من الجنوب ، حين عجزوا عن حسم الموقف معهم فى العراق ، ومن محاربتهم من الشمال ، حيث الجليد وصعوبة الجبال الشاهقة وقسوة الجو .

وبعد خروج الامام من برط إلى بلاد خيار بنى صريم ذهب إلى شاطب ومنها إلى وداعة ، ولما وصل الامام أطراف البلاد اضطربوا وخافوا العواقب لما قد أصابهم أيام استجابتهم له فى أول الدعوة ، ومن أسر مشايخهم الذين لهم الرياسة وحبسهم فى الدار الحمراء ، وتنكيل العثمانيين بهم ، ورغم أن أهل وادعة قد وعدوا الامام بالنصر والقيام معه ، الاّ أنهم بعد وصوله إلى المصنعة رموه بالبنادق ومنعوه من دخول بلادهم ، فأرسل الإمام الشيخ عبدالله بن سعيد الطير ليشعل النيران فى بلده العفيرة ، وهى أعلى من وادعة ، وقد أعطى الامام الشيخ عبدالله الطير نقودا فضية ليؤلف بها قلوب أهل العفيرة فتم له الأمر ، وكانت تلك الوسيلة لتأليف قلوب القبائل التى كانت تعانى من الفقر وقلة المال بسبب الانهيار الاقتصادى للبلاد فى تلك الفترة ، وكثرة الضرائب والأموال المفروضة عليهم من قبل العثمانيين فكان المال يغريهم للانضمام إلى أى فريق .

لما رأى الامام النيران قال لأهل وادعة (هؤلاء أهل العفيرة أقرب منكم إلى العدو وقد والونا) ، فكان ذلك من أسباب صلاحهم ونصرتهم للامام ، وكانت تلك طريقة (تكتيكية) من طرق الإمام القاسم فى جذب القبائل ، فأجاب الإمام بعضهم على خوف وخطر وبعضهم امتنع عن إجابته لشدة الحذر ، واستجاب للامام ما يقرب من الألف وبايعوه وقد جمع الامام أهل وادعة فى قرية الصبيحات وتكلم فيهم وهدأ من روعهم وقال : « إن كان لكم رهائن فأولادى أكثر وأصحابى رهائن فى كوكبان وهاأنا

وأولادى بينكم ـ واشار إلى أولاده الثلاثة ـ رهائن عندكم ٠٠٠ ولا فارقت وادعة إلا منصورا أو مقتولا »[١] ٠ فقام أهل وادعة وتشاوروا فى الأمر ، وتم الرأى على نصرة الامام ، وعاهدوه على ذلك ، وكان ذلك فى شهر جمادى الثانية سنة ١٠١٣ هـ ـ ١٦٠٦ م ٠

ثم كتب الامام بعد ذلك إلى بنى جبر فأجابوه ، فوجه إليهم ولده الحسن والسيد على بن صلاح العثالى ، وكانت هذه أول مرة يخرج فيها إليهم الحسن وهو يومئذ ابن خمس عشرة سنة ، ولما وصل إلى ذئبين ، وبلغ سناناً بقاء الإمام فى وادعة ، وجه الأمير عبدالله بن المعافا إلى خمر ، والأمير درويشًا إلى الصرارة ، والأمير عبدالله بن المطهر إلى بلاد عبدالرحيم ، والأمير أحمد الأخرم إلى ذئبين ، فلما رأى الحسن بن القاسم تلك الجموع رجع إلى مرهّبة مختفيا ، وبقى فيها عشرين يوما ، ثم رجع إلى وادعة عند والده ، ودخل الأمير أحمد الأخرم ذئبين وخربها وأخذ مافيها فهربت قبائل بنى جبر وتركوا بلادهم خالية ٠

وأما ابن المعافا فقصد وادعة ، فتلقاه الشيخ عبدالله بن سعيد الطير وقبائل وادعة ، فهزمه أقبح هزيمة ، وقتل من أصحابه عدة ، وقطعت رؤوسهم[٢] ٠

كان لهذه الوقعة أهمية عظيمة فى نفس الإمام ، اذ بعد انتصار أصحابه فيها تقوّت عزيمته وعدل عن فكره فى الرحيل إلى البصرة ، وانضم إليه بعض القبائل ونصروه ، وانضم إليه عبدالرحيم بن عبدالرحمن بعد نكثه العهد فى أول الدعوة سنة ١٠٠٦ هـ كما سبقت الاشارة إلى ذلك فى الفصل الأول ٠

كانت هذه الهزيمة قاطعة لطمع العثمانيين ، فلم يعودوا لمحاربة وادعة بعد ذلك[٣] ، وكان عبدالرحيم قد أرسل إلى الامام فى برط يعتذر ويتوب عما حدث منه بعد نكثه العهد والتغرير بأصحاب الامام ، وأن مراده القيام مع الامام ونصرته والنهوض بدعوته ، واحترام المواثيق والعهود ، ومكاتبته القبائل له وحثهم على نصرته[٤] ، ومع

(١) الجرموزى ـ النبذة المشيرة ص ١٥٤
(٢) يحيى بن الحسين ـ أنباء أبناء الزمن ص ١٤٨
(٣) الشرفى ـ اللآلىء المضيئة ص ١٩٧
(٤) الكبسى ـ اللطائف السنية ص ١٢٥

هذا فقد تمهل عبدالرحيم فى اعلان انضمامه للامام خوفا من أن ينقلب عليه سنان باشا عندما تستتب له الأمور فى اليمن نظرا لقوة العثمانيين وكثرة جنودهم وأموالهم وخيلهم بالنسبة لعبدالرحيم[1] ، فلما بلغه قيام أهل وادعة مع الإمام ، وانتصار أصحاب الإمام فى ذئبين ووادعة تقوى فى إعلان انضمامه للامام ، وفرحت القبائل والإمام بذلك رغم ما كان يشتهر به عبدالرحيم من سوء الخلق ، لكن انضمامه قوى من شوكة الإمام ، لما لعبدالرحيم من قوة وشدة بالاضافة إلى أن الإمام يكون قد كسب أميراً زيدياً تابعاً لأعدائه العثمانيين ، خاصة وأن نفوذ عبدالرحيم قد تقوى واتسع فى البلاد أثناء انشغال العثمانيين بمناهضة الإمام فى النهضة الأولى ، فالعثمانيون كانوا يعتمدون عليه إلى حد كبير .

وكان سنان باشا معروفا بأنه لا يرضى بوجود شخصية قوية إلى جواره ، وكانت الوحشة بين عبدالرحيم وسنان باشا فى سنة ١٠١٤ هـ ـ ١٦٠٦ م ، وكان سببها أن الشيخ حسن بن عاطف الأهنومى كان فى شهارة عندما تسلمها العثمانيون فى النهضة الأولى ، وذهب هذا إلى محمد بن عبدالرحمن ثم إلى أخيه عبدالرحيم هربا من سنان ، لما كان بينهم من ضغائن ، فأمنه عبدالرحيم عنده فى حجة ، لكن سنان أرسل فى طلبه ، فخاف عليه عبدالرحيم من سنان ، فأرسل له سنان عهدا أنه اذا وصل إليه سوف يعود سالما ، فأرسله عبدالرحيم فقتله سنان ، فعظم ذلك على عبدالرحيم ، وتيقن من غدر سنان به أو بغيره إذا تمكن منه[2] . فاضمر عبدالرحيم فى نفسه الخلاف ، ومما أشعل نار هذا الخلاف والفتنة أكثر ، أن الشيخ ناصر البهيلة كان منحرفا عن الباشا سنان فرفع إلى مسامع عبدالرحيم أقوالاً ملفقة ووشايات زادت من تلك الوحشة[3] .

وقيل : إن سبب الوحشة بين عبدالرحيم وسنان ، أنه بعد استيلاء عبدالرحيم على بلاد الشرف وحجة من الإمام فى النهضة الأولى ، قد جعل العثمانيون إقليم الشرف وحجة له وكتبوا له عهدا بذلك ، وكان للشرف مكانة عظيمة عند العثمانيين ، لما

---

(١) الشرفى ـ اللآلىء المضيئة ص ١٩٧

(٢) الجرموزى ـ النبذة المشيرة ص ١٥٠

(٣) عيسى بن لطف الله ـ روح الروح جـ ٢ ص ٨٤

يتحصل لهم منه من أموال طائلة من الخراج ، فخاف عبدالرحيم أن ينزع العثمانيون من يده هذا الاقليم ، فهم لا تطيب أنفسهم بتركه ، وأنه لابد أن يأتى اليوم الذى يقاتلونه من أجله ويخرجونه منه وذلك عظيم على نفسه ، فهو لا يستطيع مقاومة العثمانيين لما لهم من رجال وخيل[1] . وكان عبدالرحيم يعلم بمحبة الرعايا للامام وميلهم إليه ، واسراعهم إلى جانبه ، لذلك لم يتردد فى إعلان نصرته للامام وخلافه مع سنان باشا .

لما علم سنان باشا بخروج عبدالرحيم عليه ، أظهر عدم الاهتمام لكنه هدد قائلا : « ما غير عبدالرحيم الا على نفسه ، ولا أزال الا نعمته ، وسوف أملأها عليه خيلا وأوسع أصحابه أسرا وقتلا »[2] .

وسرعان ما تحول التقارب بين الإمام القاسم وعبدالرحيم إلى خطوات عملية ، فقد أمر عبدالرحيم بالدعاء للامام القاسم فى الأقاليم التابعة له ، وفى مقابل ذلك طالب الإمام أتباعه المنتشرين فى تلك الأقاليم بالوقوف إلى جانب عبدالرحيم ، الذى كان يمثل سلطة العثمانيين فى أقاليمه ، فتشجع هؤلاء على الاعلان عن أنفسهم دون خوف من العثمانيين ، أو دون خوف من عبدالرحيم نفسه ، وهو الذى كان يشتهر بالغلظة والشدة ، وتشجع الإمام بدوره كذلك على إعلان الحرب ثانية على العثمانيين ، والانتقال من برط إلى منطقة الظاهر التى تقع إلى الجنوب من صعدة لإثارة قبائلها ضد العثمانيين[3] ، وذلك بعد أن ضاقت به بلاد برط وضاق به الحال من القبائل وفكر فى الرحيل إلى البصرة كما ذكرت قبل ذلك ، فكأن انضمام عبدالرحيم للامام وأصحابه هو الذى أحدث هذا التغيير فى الموقف .

وكما ذكرنا بأن عبدالرحيم بدأ خطواته العملية بأن أرسل أخاه أحمد بن عبدالرحمن إلى بلاد قُراضَة ولاَعة ، فاستفتحها ، وجرد عسكرا إلى جزع وبلاد عفار ، وجهز أخاه مطهر بن عبدالرحمن إلى ظليمة والأهنوم وما والاها فاستفتحها[4] .

---

(١) الشرفى ـ اللآلىء المضيئة ص ١٩٧

(٢) عيسى بن لطف الله ـ روح الروح ص ٨٤ الكبسى ـ اللطائف السنية ص ١٢٥

(٣) الشرفى ـ اللآلىء المضيئة ص ١٩٨

(٤) عيسى بن لطف الله ـ روح الروح جـ ٢ ص ٨٤

وبعد أن انتهى أحمد بن عبدالرحمن من فتح قُراضَة ولاعة تقدم إلى بلاد كوكبان فاستفتح أكثرها ، فخرج الأمير محمد بن أحمد إلى الطويلة وجهز النقيب سنبلا بعسكر كوكبان إلى بنى الذواد ، وانضم إليهم الأمير عبدالله بن المطهر بجماعة من العثمانيين ، فجهز إليهم عبدالرحيم طائفة من عسكره ، وانضمت إليهم قبائل تلك الجهة ، فحاصروهم حتى سلموا وخرجوا إليهم ، ولما وصلوا إلى عبدالرحيم أخذ مامعهم من السلاح الكامل والعدة الوافرة ، وملأ بهم السجون ، وافتتح الحرب على العثمانيين من جميع الجهات[١] .

بعد هذه الانتصارات التى أحرزها عبدالرحيم وهو فى جانب الإمام ، تشجع كثير من مشايخ القبائل ممن يسيطرون على قبائل وبلاد واسعة بالخروج على العثمانيين مثل الشيخ على بن فلاح صاحب قبيلة الحدا .

كذلك الحماطى صاحب أنس لما علم بخروج الإمام من برط إلى وادعة جمع مشايخ الحَيْمة وعسكرها ، وطلع جبل تيس فى جمع كبير فوصل إلى رئيسهم فأطاعهم ، وخرج الأمير محمد بن شمس الدين من كوكبان إلى الطويلة ، ثم جهز عسكرا إلى الشاحذية وأمرهم بحرب من فى شمسان من أصحاب الحماطى ، فتركوا الحماطى فى الحيمة وانهزم من فى شمسان من أصحاب الحماطى ودخل ابن شمس الدين شمسان والشاحذية ، ثم ذهب الفقيه على بن يوسف الحماطى ومن معه إلى الشاحذية لحرب أصحاب ابن شمس الدين ، وهؤلاء لجأوا إلى شمسان ، وحوصروا فيها .

فى ذلك الوقت وصلت نجدة من سنان باشا إلى ابن شمس الدين وكانت حوالى ثلثمائة مقاتل ، رئيسهم الشريف صلاح الوزلى ، وضم إليهم ما أمكنه من القبائل لاستخلاص أصحابه فى الشاحذية فلما رأى الحماطى هذه الغارة تأخر إلى الحيمة ، وأخذ بذلك ابن شمس الدين جبل تيس من أصحاب الإمام[٢] .

لم يستسلم الحماطى للهزيمة بل رجع إلى الحَيْمة ليجمع الجنود والقبائل حوله ويستعد للقاء ابن شمس الدين ثانية ، فبقى فى الحيمة خمسة عشر يوما ، ثم خرج إلى

---

(١) الكبسى ـ اللطائف السنية ص ١٢٥

(٢) الشرفى ـ اللآلىء المضيئة ص ١٩٩

أصحاب ابن شمس الدين فى شمسان فوقعت الحرب بينهم ، وكان النصر فيها للحماطى ، وفى اليوم الثانى أرسل ابن شمس الدين من الطويلة بفرقة قاتل بها الحماطى ، فقتل من أصحابه اثنان وعاد بمن معه إلى الحيمة مرة ثانية دون أن يحصل على شىء .

فى نفس الوقت الذى خرج الحماطى إلى شمسان ، تجهز الهادى بن غوث الدين ، أحد قادة الإمام ، لقتال من فى الأهجر فانتصر عليهم ، واستقر فى الأهجر مدة ثلاثة أيام ثم عاد إلى الحيمة هو ومن معه إلى الحماطى ، ليعاودوا القتال على ابن شمس الدين من جديد ، وبعد شهر مالوا إلى التساحذية ، وكان فى شمسان أصحاب ابن شمس الدين مع فرقة قدرها ألف ، رئيسهم النقيب ياقوت والنقيب سنبل أتسول ، والشريف صلاح الوزلى ، ووقعت الحرب فانهزم أصحاب ابن شمس الدين وقتل النقيب ياقوت وعشرة من رجاله . بعد هذه الهزيمة خرج أصحاب ابن شمس الدين لمقاتلة الحماطى والهادى بن غوث الدين فى نواحى الأهجر ، ولكنهم عادوا منهزمين هذه المرة وقتل النقيب سنبل وسبعة عشر من رجاله .

بعد هذه الانتصارات التى أحرزها الحماطى ، والتى رفع فيها من شأن الإمام وأصحابه ، بعد أن سلبت منهم جميع الأراضى فى النهضة الأولى ، رجع الحماطى إلى الحيمة[1] ، فى نفس الوقت الذى كان احمد بن عبدالرحمن قد استولى على حصن الجميمة بالقرب من كوكبان ، استولى عبدالرحيم على بلاد مسور وملك حصونها كلها ، وتقدمت عساكره إلى بيت عذاقة ، فاستقرت فيه ، وبقى أحمد بن عبدالرحمن محاصرا لحصن عولى[2] ، مدة سنة ، ثم سلمه بعد موت أحمد بن محمد بن شمس الدين فى أول شهر ربيع سنة ١٠١٥ هـ ـ ١٦٠٨ م[3] .

كذلك استولى مطهر بن عبدالرحمن على بلاد شطب وغربان ، ودخل مدينة السودة قهرا ، وقتل جماعة منها ، وحاصر حصن قرن الباغى وفيه حسين بن المعافا حصارا

(١) الشرقى ـ اللآلىء المضيئة ص ٢٠٠

(٢) عولى ، الجميمة ـ كلها حصون بالقرب من مسور .

(٣) الشرقى ـ اللآلىء المضيئة ص ٢٠١



حروب النهضة الثانية سنة ١٠١٣هـ - ١٠١٦هـ

شديدا ، حتى أشرف على الهلاك ، لكن حدث خلاف بين مطهر وأخيه عبدالرحيم جعله يترك حصار السودة ، فخرج ابن المعافا من السودة ، وفتح بلاد شطب وسلم هو وأولاده من الوقوع فى يد عبدالرحيم ، فتقدم عبدالرحيم إلى السودة بعساكره واستدعى أصحاب الإمام ، منهم الفقيه على بن محمد الشهارى فتقدموا جميعا إلى السودة ، وقصدوا ابن المعافا الذى لاقى هزيمة منكرة هو وأصحابه ، واستولى عبدالرحيم على السودة .

بعد ذلك استطاع الإمام أن يمد نفوذه على بلاد الظاهر جميعها ، وبلاد ذئبان وبنى علىّ ، وعيال عبدالله ، وبعض بلاد نهم القريبة من صنعاء ، ولم يبق فى يد العثمانيين الا الرجو وهزم وما حولها ، وكانت جنود العثمانيين فى هذه الأماكن وأصحاب الإمام فى أطراف البلاد ، ووقعت بين الطائفتين حروب كثيرة ، وبقى الأمر كذلك مدة ، وصبرت قبائل تلك الجهات الذين فى جانب الإمام صبرا عظيما ، حتى ملوا هذه الحروب والفتن لما أصابهم من تخريب بيوتهم ، ووصل جنود العثمانيين إلى قرية مُدَّر وحاصروا أصحاب الإمام فيها ، وانتهى أمرهم بأخذ تلك القرية وما حولها ، فرجع أصحاب الإمام إلى الظاهر ، واستولى العثمانيون بعد هذه الحروب على أكثر البلاد التى أخذها الإمام فى تلك الجهات ، وظلت الحال على ذلك إلى سنة ست عشرة وألف ١٠١٦ هـ - ١٦٠٩ م[١] .

أوضحنا أن الإمام استطاع أن يمد نفوذه إلى أكثر البلاد الشمالية بمساعدة عبدالرحيم وأصحابه ، مما أقلق سنان وأرهبه ، فاشتد غضبه على من فى السجون من الرهائن ، والأسرى ، من الرجال والنساء والصبيان ، فضيق عليهم أشد التضييق حتى هلك أكثرهم[٢] .

فى ذلك الوقت كانت شهارة فى يد عبدالله بن المعافا ، بعد أن خرج الإمام منها فى النهضة الأولى ، فتركها له العثمانيون على أن يكون تابعا لهم ، مع تعيين فرقة من الجيش عليها أغا من العثمانيين ، وشيخ من العرب هو الشيخ ناصر بن الأبيض ،

---

(١) الجرموزى - النبذة المشيرة ص ١٧٤ ، ١٧٥

(٢) يحيى بن الحسين ، غاية الامانى ص ٧٩٠

وآخران من مشايخ حاشد وبكيل ، وضموا إليهم نحوا من مائتى نفر لحفظها • وبدأوا فى تعميرها ، وأصلحوا مدرجها الكبير ، وأكثروا فيها المؤن ، وعين عبدالله بن المعافا أخاه ابراهيم فى الهجر مع فرقته ليحفظوها ، وبقى هو فى السودة ، وكان عبدالرحيم بعد انضامه إلى الإمام القاسم ، قد أخذ يفتح البلاد طولا وعرضا باسم الإمـام ، كما أشرنا ، ويدعو له على المنابر ، والإمام يكاتـب النـاس باجابتـه ويأمرهـم بمواصلـة مناصرته ، أرسل أخاه المطهر بن عبدالرحمن إلى إبرق ظُليمة ، فافتتحها ، وكذلك بيت ابن علا ، ثم أرسل من حاصر شهارة بمن معه ، من عسكر عبدالرحيم ، وكذلك السودة ، وطال الحصار عليهما ، ولم يستطع ابـن المعافـا تخليصهـا من مطهـر ابن عبدالرحمن فأرسل ابن المعافا إلى الإمام سرا ، أنه يريد تسليم شهارة له لتخوفه من عبدالرحيم ، فان عبدالرحيم كان يقول : « لئن ظفرت بابن المعافا ليكوننّ من المثلة التى لايفعلها الا هو »[1] ، وكذلك أهل الأهنوم كانوا لا يحبون عبدالرحيم لما يتميز به من الغلظة والقسوة ، فقد وصفه الشرفى فى مخطوطته بقوله : « كان عبدالرحيم سيىء الطبع سريع البادرة ، ملولا عظيم السطوة لا يراعى حقا فى الأغلب •• وان الصديق والعدو كانا بمنزلة واحدة فى الخوف منه ، مع عدم وفائه بالعهود واستهانته بها »[2] ، لذلك خافت قبائل الأهنوم أن تسلم عبدالرحيم شهـارة خوفـا من انتقامـه منهـم واذلالهم ، فلما طلب عبدالله بن المعافا من الإمام الحضور لتسليمه شهارة كان يضمر فى نفسه شيئا لكى يخلص شهارة من وقوعها فى يد عبدالرحيم ، فكان يرى أن حضور الإمام سوف يستغرق وقتا حتى يتم ، وفى هذه المدة تكون قد وصلته نجدة من سنان باشا تساعده على رفع الحصار عن شهارة ، ولكن الإمام كان أسرع مما يتصور ابن المعافا ، فأرسل فى الحال جماعة من الأعيان لمعاونة مطهر بن عبدالرحمن ، وأرسل أحد أصحابه واليا إلى عُذر ، كما أرسل ولده الحسن ، وتقدم الإمام إلى شهارة ، فلما علم ابن المعافا بمقدمه دخل شهارة بمن معه من عسكر العثمانيين وكانت شهارة تعانى من قلة المؤن لطول الحصار عليها وبدخول إبن المعافا مع ما معه من العسكر ، زاد من هذه

---

(١) الجرموزى ـ النبذة المشيرة ص ١٦٤

(٢) الشرفى ـ اللآلىء المضيئة ص ٢٠١

الشدة ، ومن قلة المؤن أكثر فأكثر حتى قيل عنهم : « انهم أكلوا الكلاب ولحوم الدواب ، وبلغت الوقية الملح ثلاث كبار »[1] ، وكان ذلك من أهم الأسباب التى أدت إلى تسليم شهارة للامام ، ولما وصل الإمام اليها خرج إليه جميع العسكر ، فأمنهم على أنفسهم ، وجمع سلاحهم ، وأخذ عليهم عهدا ، ألا يعودوا إلى حربه مرة ثانية ، فعاهدوه على ذلك ، وكان تسليم شهارة إلى الإمام فى شهر شعبان سنة ١٠١٥ هـ ـ ١٦٠٧ م حيث استمر حصارها أكثر من سنة[2] .

كان تسليم شهارة للامام نصرا عظيما ، لما لها من منزلة عند الإمام ، فهو محب لها ولأهلها ، وقد فتحها الله عليه دون قتال ، وكانت فرحة الإمام وأصحابه بذلك عظيمة ، واجتمع أهل شهارة على الولائم تعبيرا عن فرحتهم بقدم الإمام إليهم بدلا من أن يتسلمها عبدالرحيم ، وقد قيل الكثير من الشعر تعبيرا عن هذا النصر العظيم ، ومما قيل :

هبنا بهذا الفتح يابن محمد	وحمدا لمن أولاك سؤلى ومقصدى
على بعد عهد فى الزمان وموعد	وبعد إياس من ولى ومعتدى
وثبت إلى العلياء بصدق عزيمة	فنلت الثناء والنصر والفتح عن يدى[3]

خرج الجميع إلى الإمام فأطلق سراحهم وأمنهم الا ابراهيم بن المعافا ، فقد اعتقله الإمام فى شهارة وشدد عليه فى الحراسة لأنه كان يريده ، رهينة عنده ليستطيع أن يفدى به ولديه المأسورين فى كوكبان ، محمدا وأحمد ، منذ حصار شهارة سنة ١٠٠٩ هـ لكن ابراهيم بن المعافا استطاع الفرار من شهارة بمساعدة بعض أهلها الموالين له ، وأخفوه فى بعض الأودية ، فعلم الإمام بذلك فأغار على ما يجاور شهارة ووصل إلى صور من أعمال شهارة الفيش وأمر الناس بالتفتيش عنه فى تلك الأودية ، وتظاهر أنه لا يعلم مكانه وبأنه هو الذى هرب بنفسه ، كى لا يثير القلاقل والفتن فى شهارة ويربى العداوات بينه وبين أحد فيها ، وكان هذا من حسن صنيع الإمام

(١) الجرموزى ـ النبذة المشيرة ص ١٦٥

(٢) عيسى بن لطف الله ـ روح الروح ص ٨٦

(٣) الجرموزى ـ النبذة المشيرة ص ١٦٥

وإحسانه معاملة أهالى البلاد التى يفتحها [1] ، وعهد إلى المفتشين بأنهم إذا وجدوه عظموه وعاملوه معاملة حسنة . فلما وجدوه طلعوا به إلى الإمام فأحسن معاملته ، أما شهارة فكانت تعانى من قلة المؤن ، وارتفاع الأسعار لطول مدة الحصار كما ذكرت وكان أصحاب الإمام لا يأكلون الا العنب أو من النذور والعطايا من الأهالى ، وجمع الإمام مشايخ الأهنوم وطلب منهم طعاما لمن يحفظ شهارة ، فأرسل المشايخ نحو ثلاثين زيديا يطوفون فى البلاد لجمع الامداد حتى اجتمع قدر عظيم من الأقوات جعلت لمن يحفظ حصن شهارة .

لما علم عبدالرحيم بتسليم شهارة للامام اشتد غضبه على أخيه المطهر ، وعزله عما كان تحت يده ، فلما تيقن المطهر بعزله رفع الحصار عن السودة التى كان بها عبدالله ابن المعافا ، وكان ذلك سببا فى انحلال قوة عبدالرحيم [2] .

خاف المطهر سوء المصير الذى سوف يلقاه من أخيه جزاء عمله فكاتب العثمانيين سرا ، بأنهم إذا جعلوه أميرا على شهارة وبلاد الشرف كان تابعا لهم ويدخل فى خدمتهم ، فوعدوه بذلك ، وأرسل جنوده إلى بيت ابن علا ، كما أرسل فرقة من جنوده لحراسة طريق حجة خوفا من أن يغزوه أخوه منها ، فقلت بذلك جنوده المحاصرون لشهارة ، فكان ذلك من أهم الأسباب التى مكنت الإمام من دخول شهارة دون عناء ، لكن مطهر بن عبدالرحمن تيقن من عدم مساعدة العثمانيين له ، وأنهم لايوفون بعهدهم ، وهو خائف من أخيه ، فأرسل إلى جنوده بترك ساحة القتال ليصلوا إليه ليحتمى بهم من العثمانيين وأخيه ، ووقف الجند ومطهر فى مكان يسمى المسَارِحة ، ووقف العثمانيون فى الجهة الأخرى من نفس المكان ، بينما كان عبدالله بن المعافا فى السودة ، وكانت أصواتهم المرتفعة تسمع بوضوح من شدة الاختلاط والكثرة ، فخاف أصحاب الإمام من هجومهم على شهارة وهم قلة ، وقد تفرقت أكثر القبائل عنهم لعدم توفر ما يأكلون فى شهارة .

---

(١) الجرموزى ـ النبذة المشيرة ص ١٦٧

(٢) عيسى بن لطف الله ـ روح الروح ج ٢ ص ٨٦

لكن النزاع حدث فيها بينهم وتفرق شملهم وبقيت شهارة فى يد الإمام ، وخرج منها الإمام بعد أن ولى عليها من يحفظها وأقام الجنود ليحفظوا أطراف البلاد ممن فى السودة ، أعنى من عبدالله بن المعافا والعثمانيين ، ووصل الإمام إلى ظُليمة وولى عليها ابنه الحسن ، ثم عاد هو إلى وادعة لتجهيز السرايا إلى الشمال والشرق وبلاد الحيمة وجهات اليمن[1] .

لما علم عبدالرحيم بتسليم شهارة للامام ، ورأى ما أحرزه الإمام من انتصارات ، وقعت فى قلبه الغيرة والتكبر ، وأصبح ينشر بين الناس أن الامام لا رأى له ، وأنه لولا قيامه معه لما فتح الإمام أى بلد ، وأنه كان يبيت النية للغدر بالإمام بعد أن يفتح البلاد باسمه ، وكان عبدالرحيم يطمع فى أن يأخذ شهارة ثم كوكبان والحيمة ، ثم يغدر بالإمام وبأخوانه الذين ساعدوه فى فتح تلك الجهات ، فلما علم بتسليم شهارة اضطربت أحواله فكان تارة يخطب للامام وتارة يثور ويغضب ، فأرسل له الإمام حاجبه المسمى البواب ليبشره بما فتح الله عليه من البلاد طمعا فى أن يهدىء من غضبه ويكسبه إلى جانبه فلما وصل إليه الحاجب حاول عبدالرحيم قتله[2]., وبذلك تيقن الإمام من سوء نية عبدالرحيم .

فى هذه الأثناء علم الباشا سنان بعزله عن اليمن فخاف أن يخرج والفتنة فى أثره ، وأنه يخشى وثوب الإمام أو عبدالرحيم على صنعاء فى أثناء تغير الولاة ، واذا حدثت مثل هذه الفتنة فى اليمن تكون عاقبتها خطيرة ، لذلك أرسل سنان باشا الحاج التاجر أحمد الوادى للوساطة عند الإمام لطلب الصلح لمدة سنة أو أكثر ، لكن الإمام استغرب طلب سنان لما له من السطوة والقوة والبغض للامام ، ولما وجده منه أثناء مناهضته منذ ظهور دعوته ، فظن الإمام الظنون فى سنان والحاج أحمد الوادى ، وخاف أن تكون خدعة من سنان باشا ، فأرسل إلى القاضى على بن أحمد بن أبى الرجال يستشيره فى الأمر ويطلب منه تيقن الخبر من الأمير على بن مطهر بن الشويع وكتب إليه : « وصل الحاج أحمد الوادى من عند هذا الطاغية العظيم يطلب صلحا ولا عرفت السبب الموجب لطلبه

(١) الجرموزى ـ النبذة المشيرة ص ١٦٧

(٢) الجرموزى ـ النبذة المشيرة ص ١٨٠

مع ضعفنا عندهم وقوتهم ، واستظهارهم علينا ، وهل يريدون معرفة حالنا أو هو حق وصدق فهو المحبوب المطلوب »[1] ، وتمهل الإمام حتى علم أن طلب الصلح صحيح ، ففرح بذلك وعقد الصلح لمدة سنة بينه وبين سنان بواسطة الحاج أحمد الوادى سنة ١٠١٥ هـ .

أراد الإمام أن يشمل عبدالرحيم هذا الصلح لكن عبدالرحيم رفض ، واتهم الإمام بالعجز لقبوله هذا الصلح ، فتركه الإمام وشأنه مع العثمانيين ، وعقد هو الصلح وحده ، على أن يكون للامام ما تحت يده من البلاد المفتوحة ، ومعنى عقد الصلح هذا أنه اعتراف صريح من الدولة العثمانية بالإمام القاسم بعدما أضنتها الحروب والفتن معه ، ولا ننسى ما قد عرضه سنان على الإمام من صلح قبيل توليه ولاية اليمن رغم ما يتمتع به سنان من القوة والإمام من الضعف بالنسبة لقوة الدولة العثمانية فى ذلك الوقت ، فلما علم العثمانيون بترك عبدالرحيم للامام وخروجه عليه ، جمعوا جنودهم للحرب ضده ، واستمرت الحروب بين الطرفين أربع سنوات ، حتى هلك معظم جند عبدالرحيم ، وقد قيل : « ما من موضع فى بلاده كلها الا وسال عليه الدم »[2] .

وقتل عبدالرحيم أصحابه الذين اشتركوا مع مطهر فى رفع حصار السودة وتركوا الجهاد ، ومكنوا ابن المعافا من دخولها سلما ، وكان عبدالرحيم كارها له ، وأما مطهر فانه استجار بالإمام وترك أخاه يتجرع من حرب العثمانيين ،[3] وضعف عبدالرحيم بعد تفرق أخوانه عنه بسبب سوء معاملته وقسوته عليهم ، ومن ثم كان هلاكه كما سيأتى فى الفصل الثالث ..

---

(١) الجرموزى ـ النبذة المشيرة ص ١٧٨ .

(٢) الجرموزى ـ النبذة المشيرة ص ١٨٠ .

(٣) تاريخ دولة الترك ـ المؤلف مجهول ص ١٤ .

الفصل الثالث

صلح ١٠١٦ هـ ونتائجه

أ – سياسة جعفر باشا .

ب – صلح ١٠١٦ هـ ، استقرار الإمام في شهارة .

ج – تفرغ جعفر باشا للأمير عبد الرحيم بن عبد الرحمن

د – أسر عبد الرحيم ونفيه ١٠١٨ هـ .

فى التاسع عشر من جمادى الأولى من سنة ١٠١٦ هـ ـ ١٦٠٧ م وصل جعفر باشا واليا على اليمن ، بعد عزل سنان باشا[١] ، الذى كان قد قرر الصلح مع الإمام القاسم قبيل رحيله ، كما ذكرت فى الفصل الثانى ، مع أنه كان قد اتصف بالقسوة والشدة والجور حتى قيل : « كان اليمن مع سنان وعبدالرحيم كالنار »[٢] ، وفى ذلك قال الفقيه عبدالله بن داعر : « ان الباشا سنان أساء السيرة فى اليمن وعامل أهله بالاحن ، ورماهم بالمحن ، وتوصل إلى أخذ أموالهم الجليلة بكل حيلة ، حتى لقد بلغ أهل الأموال فى كتم ما بأيديهم منها بكل حال »[٣] .

وكان سنان قبل خروجه من صنعاء ، قد قتل الأمير حسين الدفتردار فى ديوان القصر ، حتى لا يفشى المظالم التى ارتكبها فى حق أهل اليمن فيرفعها إلى السلطان ، أو الوالى الجديد جعفر باشا ، لذا بادر فى قتله .

وقيل ان سبب قدوم جعفر وعزل سنان ، أنه قد شكا أعيان أهل اليمن مرارا إلى مسامع السلطان ما يفعله سنان ، ولكن وزير السلطان الأمير درويشاً كانت بينه وبين سنان مودة ، فكتم عن السلطان هذه الشكاوى ، ثم حدثت بين السلطان ووزيره درويش مخالفة ، فقتله ، فوجدوا هذه الرقاع المتضمنة الشكاوى ، فبادر السلطان بارسال جعفر باشا إلى اليمن بدلا من سنان باشا .

---

(١) المحبى ـ خلاصة الاثر جـ ١ ص ٤٨٥

(٢) الجرموزى ـ النبذة المشيرة ص ١٨١

(٣) يحيى بن الحسين ـ غاية الامانى ص ٧٩٢

ويرجع السبب فى عدم معرفة السلطان بأمر اليمن وما يحدث فيه من الظلم والجور بالأهالى الى بُعد اليمن عن مركز الدولة العثمانية فى الآستانة ، وكان من الصعب معرفة أحوال أهله ومشاكلهم .

وكان سنان قد لجأ إلى هذه السياسة لاخضاع اليمن للسيطرة العثمانية ، وقد نجح فى تحقيق غرضه من وراء استعمال القوة ، غير أن هذا النجاح كان مؤقتا ، وسرعان ما انقلب إلى اضطراب وفوضى .

لذلك ترك سنان باشا اليمن وهو ملتهب بالحروب والاضطرابات ، فكان على الوالى الجديد جعفر باشا مواجهة ذلك عند بداية ولايته ، فكان من الحكمة أن يغير سياسه سلفه سنان باشا ليستطيع أن يمسك بزمام الأمور فى اليمن ، ولذلك أظهر العدل بين رعايا اليمن لتهدئة الأحوال ، وتخفيف حدة الاضطرابات ، من ذلك أن أهل زبيد شكوا إليه ما نالهم من الجور الشديد والظلم من سنان ، وانه جعل أموالهم أوقافا ، فرد جعفر تلك المظالم وأمر بقتل القاضى عمر أفندى صاحب المخا لتواطئه مع سنان ضد أهل البلاد[1] .

وكان الجباة يحصلون الأموال المقررة فى سجلات الدولة من أصحاب النخيل أو من ذريتهم كما هى ، بغض النظر عما اذا كان هذا النخيل مازال قائما أم لا ، أم أنه مثمر أو غير مثمر ، فأمر جعفر باشا باحصاء النخيل المثمر سنويا ، لتكون الضرائب مطابقة للواقع ، كما أنه وحد ظاهرة تجميد الضرائب على البقر فى وادى زبيد كما كانت مجمدة على النخيل ، فكانت الضرائب تؤخذ على عدد رؤوس الأبقار سواء الحية منها أو الميتة ، أى على ما كانت عليها وقت احصائها ، وكان بعض الأهالى أو ورثتهم قد اضطروا إلى احتراف المهن المختلفة لتسديد الأموال المقررة عليهم حسب ما هو مسجل فى دفاتر الدولة « فأذهب عنهم جعفر باشا هذه المظلمة المطلوبة على المفقود ، ولم يبق عليهم الطلب الا فيما هو موجود فهذه صدقة باقية »[2] .

---

(١) يحيى بن الحسين ـ أنباء أبناء الزمن ص ١٤٩

(٢) الموزعى ـ الاحسان فى دخول اليمن تحت ظل عدالة آل عثمان ص ٥٢

كانت ازالة هذه المظلمة عن الأهالى ذات وقع كبير ، لما كانوا يعانونه من الفقر الاقتصادى للبلاد من جهة ، بالاضافة إلى الخسائر التى كانوا يتعرضون لها بسبب الآفات الزراعية كالجراد مثلا أو انقطاع الأمطار ، أو بسبب قطع الأشجار لاستعمالها فى البناء ، أو أن تيبس الأشجار ذات النفع الاقتصادى ، كأشجار البن مثلا ، ففى جبل صبرة ـ جنوب اليمن ـ كانت أشجار البن قد يبست وقطعها أصحابها ، لعدم نفعها ، فقل بذلك المحصول ، وقد تعرضت الأراضى الزراعية فى نفس هذه المنطقة للحروب المتتالية فى سنة ١٠٠٦ هـ • بسبب هجوم أهل الحجرية المتكرر عليها لمناهضة العثمانيين ، ففى أثناء هذه الحروب أخذ أهل الحجرية فى قطع أشجار البن ، وحرقوا جذوعها ، فتلفت بذلك الأراضى الزراعية ، وقل نفعها الاقتصادى وتعرض أهلها للفقر والدمار والتشرد بسبب ذلك ، لأن الدولة كانت تأخذ منهم خراجا ثابتا بصرف النظر عن جودة المحصول أو خرابه •

فلما جاء جعفر باشا أزال عنهم هذه الغمة ، وأمر بأن يمر وقت ثمرة البن فى جبل صبره مباشرون عارفون بغلة البن لتقديره ، مع كاتب من قبل الكاشف ومندوب شرعى من قبل قاضى تعز يكون محل الثقة عارفا بحق الدولة وحق الرعية معا ، ويقدرون ماهو موجود من البن ، ويأخذون ما للدولة ، ويقررون بذلك فى سجلات ودفاتر خصصت لذلك « واستمر الحال على هذا المنوال يوجد فيه الموجود ولا يطالبون بالمفقود »[1] •

وقد أدرك جعفر باشا أن رضاء اليمنيين على الوالى العثمانى أو سخطهم عليه ، انما يتوقف أساسا على نجاحه أو فشله فى النواحى الادارية والمالية ، فعمل على كسب الأهالى إلى جانبه بالقضاء على المظالم المالية السائدة قبيل ولايته ، وذلك ، بأن ربط الضرائب بالثروة الحقيقية للأفراد ، ومنع من تجميدها رغم تغير ظروف هؤلاء المالية •

وقد عمد جعفر باشا كذلك إلى تقريب الفقهاء والعلماء على اختلاف مذاهبهم إليه ، واجراء المناقشات الطويلة معهم ، وذلك لاذابة الفوارق المذهبية ولتقريب وجهات النظر فى المسائل السياسية والدينية •

---

(١) الموزعى ـ الاحسان فى دخول اليمن تحت ظل عدالة آل عثمان ص ٥٢

فقد اشتهر جعفر باشا بعلمه وتفقهه فى الدين ، وتعظيمه للعلماء والأشراف ومعرفته بحقوقهم ، لأنه كان على قدر كبير من المعرفة بالعلوم الشرعية والعقلية وكان شاعرا مجيدا[1] ، وقد ذكر المحبى فى كتابه « انه قد ذكره الامام الطبرى فى تاريخه وقال : سمعت من لفظ والدى قال : تباحثت أنا واياه ـ جعفر باشا ـ فى خمسة علوم ، التفسير والحديث والمعانى ، والبيان ، والقراءات فوجدته فى كل منها كاملا »[2] .

كما ذكره محمد بن كانى الرومى فى تاريخه « كان جامعا بين محاسن الخصال ، ومراتب الكمال ، وكان عالما عاملا ، وفيه من الديانة والتهجد ماهو كثير على أمثاله ، وكان خليقا بكل وصف حسن ، الا أنه كان يحب الفخر وفيه من التيه شىء لطيف .. ولو أنه سلم من سفك الدماء فى آخر مجيئه إلى اليمن لكان ممن ملك القلوب وهو معذور فى هذا الأمر »[3] .

لذا نجده قد قرب إليه بعض الفقهاء الزيديين المعتدلين ، وأحسن إليهم ، مثل السيد محمد بن عز الدين المؤيدى المعروف بالمفتى ، والسيد محمد الحوتى والسيد الحسن بن شمس الدين بن جحاف وغيرهم ، وقد ناقشهم فى أمور فقهية عديدة حتى أظهر لهم « أن الخلاف انما هو لفظى فيما بينهم »[4] وذلك يرجع لقدرته على المناقشة وغزارة علمه ، اذ يعتبر ممن يهتمون بنشر العلم حتى قيل عنه انه هو الذى « أخرج تفسير أبى السعود فنسخ من عدة نسخ وانتشر فى اليمن وظهر »[5] .

وكان هذا التفسير لم يعرف من قبل ، اذ كان جعفر باشا يورد على علماء صنعاء

---

(١) الكبسى ـ اللطائف السنية ص ١٢٧

(٢) المحبى ـ خلاصة الاثر جـ ١ ص ٤٨٥

(٣) نفس المصدر والصفحة

(٤) يحيى بن الحسين ـ أنباء أبناء الزمن ص ١٥٢

(٥) نفس المصدر والصفحة .

وتفسير أبى السعود نسبه إلى ابى السعود بن محمد بن العماد الحنفى ٨٩٨ ـ ٩٨٢ هـ من علماء العثمانيين المستعربين ، كان مفسرا وشاعرا ، تقلد القضاء ، وأضيف إليه الافتاء وكتابه فى التفسير هذا اسمه السابق « ارشاد العقل السليم فى مزايا الكتاب الكريم » حاجى خليفه (كشف الظنون)

مباحث من أبى السعود لم يعرفوها ، حتى حملهم ذلك على الرغبة فى الكتابة والتحصيل .

وبهذه الطريقة جذب نحوه العلماء والفقهاء ليكونوا فى جانبه بدلا من أن يكونوا ضده ، لما لهؤلاء العلماء من تأثير على الأهالى وخاصة أهل الجبال الشماليين ، لما لهذا الجانب من أعظم الأثر فى نفس الجبلى أو الصحراوى ، لذا كانت خطة جعفر باشا ذكية فى مس هذا الجانب الحساس ، لكل هذا كانت الفترة التى تولى فيها جعفر باشا فترة هادئة بفضل السياسة التى استخدمها لتنفيذ أغراضه فى اليمن وتهدئة أحواله ، وخاصة أنه عقد مع الإمام القاسم صلحا لمدة عشر سنوات ، وقضى على عبدالرحيم بن عبدالرحمن كما سنفصل ذلك فيما هو آت .

وقد وصف أحد المعاصرين حال اليمن فى فترة ولاية جعفر باشا بقوله : « انقادت له الأرض بالطول والعرض ، وكان فى أيامه اليمن كله جنة عدن لما حل فى قلوب أهله من الأمان والأمن »[1] .

ونحن نرى هنا أن سياسة جعفر باشا متمثلة فى جانبين : الأول رفع المظالم المالية عن الأهالى ، والثانى الجانب العلمى لفئة واحدة فقط دون سائر الأهالى وهى فئة العلماء والفقهاء ، ولم ينظر جعفر باشا ولا غيره من الولاة العثمانيين المصلحين فى اليمن إلى جوانب أخرى كتطوير الزراعة مثلا ، أو الصناعة أو التجارة ورفع شأنها ، أو تقديم الخدمات العامة للأهالى ، مثل تسهيل طرق المواصلات ، والبريد أو بناء المدارس والمستشفيات وغيرها ، اذ أن هذه الأعمال تركت على أنها من مهمة الأهالى أنفسهم وفقا لتقاليدهم وأوضاعهم الخاصة .

أما اهتمام الولاة العثمانيين بهذه الأمور ان اهتموا بها فانما يكون من أجل زيادة موارد الاهالى فى البلاد ، لزيادة موارد الدولة ، أو من أجل رغبة بعض الحكام فى تخليد ذكراهم باقامة المنشآت الدينية كالمساجد أو بناء القلاع أو الحصون وكذلك اهتمامهم بمظاهر الحياة الدينية والاجتماعية العامة .

---

(١) الموزعى ـ الاحسان فى دخول اليمن تحت ظل عدالة آل عثمان ص ٤٧

كذلك لم نجد أى تغير فى الأوضاع القبلية فى اليمن التى تحتاج إلى تغير حضارى كبير ، لأن قدرة الولاة وامكانيتهم محدودة ، اذ لايمكن تحقيق هذا التغير فى اثناء حكم معين ، أو خلال مرحلة تاريخية معينة وذلك لأنه يحتاج إلى امكانيات كبيرة وفترات طويلة ، فتغير هذه النظم أو الأوضاع لايتحقق الا اذا تغيرت ظروف معيشة القبائل ، ولا يتأتى هذا الا عن طريق نشر التعليم مثلا بين الأهالى ، أو عن طريق امتصاص طاقتهم وجهودهم فى القيام بأعمال انشائية وعمرانية كبيرة ، زراعية كانت أم صناعية خاصة أن أرض اليمن خصبة وغنية بالثروات المعدنية ، وتنفيذ هذه الخطوة الحضارية لايتم الا عن طريق حكومة قوية مستقرة ، ووال قوى يستطيع أن يتعاون مع هذه القبائل ليتغلب على ظروف بيئتها الطبيعية الصعبة التى يغلب عليها الطابع الجبلى أو الصحراوى ·

وبطبيعة الحال لم يكن فى مقدور الدولة فى ذلك الوقت القيام بمثل هذه الأعمال لأن هدف العثمانيين من وراء حكمهم لليمن فى ذلك الوقت لم يكن لاحداث تغير حقيقى فى أوضاع البلاد الاجتماعية ·

ولذلك لم تمتد جهود جعفر باشا لإحداث مثل هذه التغييرات ، وانما اكتفى بهذا القدر الذى أشرنا اليه ·

أما عن صلح سنة ١٠١٦ هـ واستقرار الإمام فى شهارة ، فقد اتسعت هوة الخلاف بين الإمام القاسم وعبدالرحيم ، وخاصة بعد أن عقد الإمام مع سنان باشا الصلح قبل رحيله ، وقد رغب الإمام القاسم فى أن يشمل صلحه مع العثمانيين عبدالرحيم ، لكن الأخير رفض واتهم الإمام بالضعف والعجز ، وكانت الوحشة بين عبدالرحيم وسنان ، لذلك نجد أنه بعد تولى جعفر باشا ولاية اليمن سارع عبدالرحيم بالاتصال به لاقامة علاقات ودية معه تتمثل فى صلح يعقد بينهما ، وأظهر له أن خلافه مع سنان باشا كان بسبب عداوة كانت بينهما بسبب الوشاة ، وأظهر منابذته ومخالفته للإمام ، وانه راغب فى عقد صلح معه ، سُرَّ جعفر باشا لهذه المبادرة من جانب عبدالرحيم[1] لكن الأخير أرسل أخاه إلى كوكبان للقيام ببعض الأعمال العسكرية لتوسيع مناطق سيطرته أثناء

---

(١) عيسى بن لطف الله ـ روح الروح ص ٨٧ ، الكبسى ـ اللطائف السنية ص ١٢٦

مفاوضات عقد الصلح ، وكان ذلك سببا فى شك جعفر باشا فى صدق نية عبدالرحيم ، وزاد من هذا الشك أيضا أن جعفر باشا أرسل إليه أحد الفقهاء ليعرض عليه الصلح على أن يترك له ما تحت يده من البلاد ، وهو حين ذلك فى كوكبان ، فلما وصل الفقيه إليه أحسن استقباله ، وأظهر سروره بوصوله لما كان بين الفقيه وعبدالرحيم من مودة ، فلما علم أنه وصل لعقد الصلح واغماد سيف الفتنة اشتد غضبه ، وخرج إلى مكان يسمى حورة واركب الفقيه معه ثم صلبه على شجرة هناك فاستشاط جعفر باشا غيظا[1] .

قال الشرفى فى مخطوطته « كان عبدالرحيم كتب إلى الباشا جعفر يريد منه أن يكون من جملتهم ، ويعطوه من البلاد ما فرضاه ، فوقع الخوض فى ذلك مدة فلم يتهيأ بينهما اتفاق ، لخبث عقيدة الأمير عبدالرحيم وسوء أفعاله[2] » .

ولم يتم عقد الصلح ولذلك رأى جعفر باشا أن فتح الحرب فى جبهتين أمر صعب ، وأن الأولى أن يعقد صلحا مع الإمام القاسم ، اذ كان اشتعال الحروب ضد العثمانيين فى المنطقة الشمالية من جانب الإمام القاسم وعبدالرحيم يغرى جعفر باشا على عقد الصلح مع أحدهما ليتفرغ لمحاربة الآخر ، أو حتى مع كليهما لإطفاء نار هذه الحروب التى واجهته عند بداية توليه أمر اليمن ، ومادام جعفر باشا قد فشل فى عقد صلح مع عبدالرحيم ، فقد كان ذلك دافعا قويا الى تقرب جعفر باشا من الإمام ، وعقد معه الصلح .

وقيل ان الباشا سنان قبل رحيله من صنعاء أشار على جعفر باشا بالصلح مع الامام ومتابعة عبدالرحيم[3] .

وقد أجاب الإمام على جعفر باشا بالموافقة على الصلح لما رآه من المصلحة الظاهرة للأهالى ، وذلك لأن القبائل ملوا الفتنة وطول الحروب بسبب الخسائر التى خسروها فى المال والأهل من جراء تلك الحروب ، كما أنه رأى أن كثيرا من رجال

(١) تاريخ دولة الترك ص ١٥ ـ المؤلف مجهول

(٢) الشرفى ـ اللآلى المضيئة ص ٢٠٥

(٣) نفس المصدر

القبائل كانوا يميلون لمن يدفع لهم أكثر من الأموال ، ونظرا لقوة الدولة العثمانية بالنسبة للإمام فى ذلك الوقت ، فقد كانت أغلبية القبائل تميل إليها بعد أن كانت فى جانب الإمام ، وذلك راجع لحاجتهم إلى الأموال بسبب فقرهم ، بالاضافة إلى ميل أمراء آل شرف الدين للدولة العثمانية وتعاونهم معها ضد الإمام ، فكان الإمام بذلك يحارب فى جبهتين متمثلتين فى الأمراء اليمنيين من آل شرف الدين والدولة العثمانية ، وكذلك ما ظهر من عبدالرحيم من كره للإمام والغدر به ، وخاصة عندما أرسل حاجبه شمس الدين البواب ، فأشعل عبدالرحيم النار لاحراقه ٠

كما رأى الإمام أن فى عقده مصلحة كبيرة ، فهو بذلك يستطيع أن يخرج أولاده من أسرهم فى كوكبان وكذلك باقى المأسورين والرهائن هناك ٠

فكل هذه الأسباب مجتمعة جعلت الإمام يبادر بالموافقة على الصلح ، وأرسل الإمام القاضى مجد الدين سعد الدين بن الحسين المسورى إلى صنعاء ليعقد الصلح مع جعفر باشا ، وعمل فى سبيل عقد الصلح من جهة الدولة العثمانية من الامراء ، الأمير عبدالله بن المعافا والحاج أحمد الوادى ٠

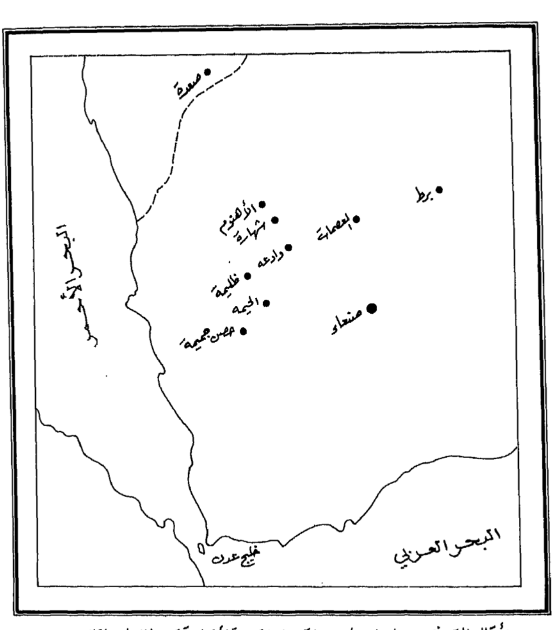
وبالفعل عقد الصلح فى يوم الاثنين الحادى عشر من شهر ذى الحجة سنة ١٠١٦ هـ ـ ١٦٠٨ م لمدة عشر سنين[(١)] ٠

كانت شروط الصلح التى وافق عليها كلا الطرفين هى : أن يبقى للامام ما تحت يديه من أقاليم المنطقة الشمالية وهى الأهنوم ، وعذر ، ووادعة وظليمة والعصيات وشهارة ، وبرط ، والحيمة ، ورد له جعفر باشا حصن حميمة السعدا وبلادها وكانت تحت سيطرة العثمانيين ،[(٢)] وأن يؤمن سكان المناطق من الجهتين ، ويسمح لهم بحرية التنقل فى أى البلاد ، وان كان لأحد حق فى أحد الجانبين سمح له بالاتصال به ليأخذ كل ذى حق حقه ٠

---

(١) المحبى ـ خلاصة الاثر جـ ١ ص ٤٨٥

(٢) الشرفى ـ اللآلى المضيئة ص ٢٠٩



الأقاليم التي نص عليها صلح سنة ١٠١٦ هـ وبقاؤها تحت يد الإمام القاسم

كما وافق جعفر باشا كذلك على فك أسر أولاد الإمام محمد وأحمد من كوكبان وجميع أهلهم وأصحابهم ، وإطلاق من فى سجن صنعاء من الرهائن ،[1] واطلاق رهائن الحيمة ، وكان قد قبض على مجموعة منهم أيام الحرب مع سنان فى النهضة الثانية ، فى حروب الحَيْمة الشهيرة التى مرّ ذكرها فى الفصل الثانى ، واشترط الإمام أن يبقى سلاح أهل الحَيْمة معهم لمناصرتهم الإمام ، وقد وافق جعفر باشا على ذلك فيما ترجح لاسترضاء الإمام ولتهدئة الأوضاع فى شمال اليمن ،[2] ولما تم عقد الصلح بادر جعفر باشا بتنفيذ الشروط لتهدئة الحالة المضطربة فى اليمن ، وبدأ اطلاق سراح أولاد الإمام وأهلهم وأصحابهم من أسر كوكبان ، فيما بين شهر رجب وآخر رمضان سنة ١٠١٧ هـ - ١٦٠٩ م[3] .

وقد خرج الجميع إلى شهارة مستقر حكمهم ، واستقرت بذلك أحوال الإمام وأولاده .

وكانت الأمور خلال الصلح على أحسن حال ، ولم يحدث أى منافرة بين الجانبين حتى نقض الصلح سنة ١٠٢١ هـ فى النهضة الثالثة كما سنفصل ذلك فى حينه .

والواقع ان هذا الصلح كان تتويجا لانتصارات الإمام القاسم عند نهاية النهضة الثانية ، وتثبيتا لأقدامه فى المنطقة الشمالية ، وذلك على عكس ما حدث له عند نهاية النهضة الأولى التى انتهت بسلب جميع ما استولى عليه من البلاد وعُرض للهزيمة مما جعله يلجأ إلى جبل برط للاختفاء به .

فقد استطاع الإمام فى نهاية النهضة الثانية أن يفرض وجوده على العثمانيين ، وأن يجبرهم على الاعتراف به ، واعتراف العثمانيين بالإمام وموافقتهم على شروط الصلح يعتبر مظهرا من مظاهر ضعف الحكم العثمانى فى اليمن وخلخلة نظمه اذ يعتبر ذلك بداية نهاية الحكم العثمانى فى اليمن ، لأن العثمانيين كانوا يحرصون على بقاء هذا الصلح لحاجتهم إليه ، فيعملون بدورهم على تهدئة الأحوال مع الأئمة سادة الشمال للتفرغ

---

(١) يحيى بن الحسين - أنباء أبناء الزمن ص ١٥٠
(٢) الجرموزى - النبذة المشيرة ص ١٨٢
(٣) الشرفى - اللآلى المضيئة ص ٢٠٩

لحل مشاكلهم فى باقى اقاليم اليمن ، والحقيقة أن كلا من جعفر باشا والإمام القاسم كان فى حاجة إلى هذا الصلح لتنظيم شؤونها داخل أقاليمهما .

فالإمام قد أحرز عدة انتصارات بالفعل لكن هذه الانتصارات لم تكن تعنى السيطرة الكاملة على تلك المناطق نظرا لموقف القبائل منه ، كما أنها لم تكن تعنى انتشار دعوته فى المنطقة الشمالية جميعها ، فقد ظلت القبائل تخاف بطش العثمانيين بها وتتردد فى مناصرة الإمام ، بالإضافة إلى أن بعض القبائل وقفت فى جانبه طمعا فى الغنائم وليس لنصرة دعوته التى كانت تعتمد على التعاليم الدينية ، تلك التعاليم التى كانت تمثل الفكر السياسى الذى تقوم عليه سيطرته ونفوذه فى الاقاليم الخاضعة له ، فقد كانت هناك الكثير من البدع والخرافات منتشرة بين أهل اليمن ولمَ يستطع الإمام القضاء عليها ، أو اقامة الحدود لانشغاله بالحروب المستمرة وتنقله من بلد الى آخر ، فكان فى حاجة لهذا الصلح ليدعم نفوذه فى البلاد ويقيم الحدود الشرعية ويقضى على البدع والخرافات ويؤسس البذرة الأولى لدولته القاسمية .

أما جعفر باشا فقد كان فى حاجة ماسة كذلك لهذا الصلح ، لأن سنانا قد ترك له اليمن وهو ملتهب بالحروب والاضطرابات ، وتعتريه موجات الغضب والتذمر من الأهالى ، بالاضافة إلى تمرد عبدالرحيم وموقفه من جعفر باشا بعد قتل الفقيه القادم إليه للتفاهم معه لحل المنازعات واغماد سيف الفتنة ، كذلك الاضطرابات السائدة فى صعدة من قبل متوليها العثمانى الذى اتخذ موقفا استقلاليا متمردا من جانب الدولة العثمانية ، مستغلا فى ذلك بُعد اقليم صعدة عن مركز حكم العثمانيين فى اليمن - صنعاء - مما شجعه على التشبث به ، فكان لهذا الأمير حكم صعدة منذ ولاية حسن باشا وبقى بها طوال ولاية سنان باشا الذى كان قد عزم على اقالته من منصبه عندما لمس ميوله الاستقلالية ، لولا انشغاله بحروبه مع عبدالرحيم[1] ، فكان على جعفر باشا التصدى له والقضاء عليه ، وكذلك دارت الحرب بين جعفر باشا والكتخدا عبدالله شلبى الذى أعلن تمرده عليه كما سنفصل ذلك فى الفصل الرابع ، بالاضافة الى تعدد الاضطرابات فى باقى اقليم اليمن ، مما كان يضعف فى نهاية الأمر من جانب العثمانيين ويقلل من هيبتهم .

---

(١) الجرموزى - النبذة المشيرة ص ١٩٥

وهكذا يمكن القول بأن هذا الصلح كان توطيدا وتدعيا لأقدام الإمام فى المنطقة الشمالية ، وقد شبه الجرموزى هذا الصلح بصلح الحديبية[١] ، وسوف نحلل هذا التشبيه فى خاتمة الرسالة ٠

كذلك كانت الاضطرابات التى واجهت جعفر باشا سواء من جانب حاكم صعدة العثمانى أو من جانب عبدالرحيم على السواء بداية لامتداد سيطرة الإمام إلى الاقاليم الشمالية ، ثم إلى باقى أقاليم اليمن على عهد أولاده من بعده ، كما كان هذا الصلح فاتحة خير على الإمام ، فقد اتصل به كثير من الناس وناصروا دعوته ، وانضموا إليه بالآلاف لأنهم آمنوا واطمأنوا بهذا الصلح[٢] ٠

وبعد عقد الصلح مع الإمام القاسم ركز جعفر باشا جهوده ضد عبدالرحيم ابن عبدالرحمن ، وخاصة بعد ماتيقن من سوء نيته ، عندما أرسل له رسوله لعقد الصلح معه ، فما كان من عبدالرحيم الا أن قتل الرسول ومثل به ، كما ذكرنا سابقا ٠

وكان صاحب كوكبان ، وهو الأمير اسماعيل بن احمد بن محمد بن شمس الدين ، يرسل لجعفر باشا باستمرار عن جميع الأعمال الجريئة التى يقوم بها عبدالرحيم ، وتعديه على بلاده ، فكانت تلك الشرارة التى اشعلت النار فى الهشيم ، فانهارت أمور عبدالرحيم وتضعضعت أحواله بعد ذلك ٠

جهز الباشا جعفر جيوشه لمحاربته ، بعدما اطمأن من جانب الإمام القاسم حيث عقد معه صلح سنة ١٠١٦ هـ ، وفى يوم السبت ١٧ ربيع الثانى من سنة ١٠١٧ هـ - ١٦٠٨ م وجه جعفر باشا جنوده بقيادة عمر كخيا وجماعة من أهل كوكبان الى قلعة المشفق من بلاد مسور ، وكان عددهم يبلغ نحو ستة آلاف جندى ، وكان فى مسور أحمد ابن عبدالرحيم فهزم ، ثم دخل الجيش لاعة ، أما أحمد بن عبدالرحمن فخرج من مسور إلى هرية ، فقصده الأمير درويش ، ثم خرج عند أخيه عبدالرحيم فى حَوْرةَ ، وتشابك الجيشان فانهزم أحمد بن عبدالرحمن ورحل إلى حصن شمسان بنى عكاب ، وكانت الحروب على أشدها والرمى بالبنادق من كل مكان ، وكان عبدالرحيم يثبت أصحابه ويقتل منهم من انهزم عن مركز الحرب ، مما جعلهم يخافون منه فيثبتون الثبات

(١) نفس المصدر

(٢) الشرفى ـ اللآلى المضيئة ص ٢١٠

العظيم « حتى صار يضرب بهم المثل فيقال هذا من عسكر عبدالرحيم يمدحونه بذلك »[1] ، ولكن رغم ما أبداه جند عبدالرحيم من بسالة الا أنه قتل منهم عدد كبير ، وكان عبدالرحيم فى ذلك الوقت فى كوكبان ، فلما رأى شدة الحروب وقوة الجنود خرج إلى الذنوب ، حيث لم يبق فى يده الا الذنوب وحصن كوكبان وحجة وحصن مَبْين .

وفى تلك الأثناء أعلن من فى كوكبان وحجة خروجهم على عبدالرحيم ، وخضوعهم للعثمانيين ، وأرسلوا لعمر كخيا يطلبون منه الأمان وتسليم حجة له ، فأسرع عمر كخيا لاستلامها ،[2] ثم أرسل جعفر باشا المدافع الثقيلة لمحاصرة مبَينْ ، فحاصروها وكان فيها أحمد بن عبدالرحمن وأخوه الأمير عبدالرحيم ، فلما ضاق به الحال وخاف أن تحيط به أيدى العثمانيين من كل مكان ، وكانت بلاد الشرف باقية تحت يده ، رأى أن يخرج إليها ، ويخلف أخاه محمداً فى حصون حجة ليستطيع النجاة اذا احتاج إلى الفرار وليتمكن كذلك من محاربة العثمانيين بفضل الامدادات من أهل البلاد التى مازالت خاضعة له ، وقد فكر عبدالرحيم فى أن يلجأ للإمام القاسم لكى يتوسط له لدى العثمانيين ، أو أنه يتفق معه ليكونوا يدا واحدة لمحاربتهم ، فيتقوى بالإمام لعلمه بمحبة القبائل له ، فهو مسموع الكلام لديهم[3] ، لكن ذلك لم يتم لأن عبدالرحيم سبق أن اتهم الإمام بالعجز عندما أراد أن يشركه فى صلحه مع العثمانيين ، وطال الحصار على مَبْين ، فسلم احمد بن عبدالرحيم الحصن للعثمانيين ، وطلب منهم الأمان فسيروه إلى صنعاء ، بعد ما أخذوا جميع مافى حصن مبَينْ من خزائن عبدالرحيم واسلحته ونقوده وجميع الأثاث والكتب القيمة ، التى كانت من محاسن الكتب لدى عبدالرحيم ، ثم توجهوا إلى جهات الشرف لملاقاة عبدالرحيم ،[4] فلما وصل عبدالرحيم بلاد الشرف حيث خرج إليها ليلا متخفيا ، وكان أخوه محمد بن عبدالرحيم فى حصن المفتاح ـ أحد حصون بلاد الشرف ـ تنكر هذا لأخيه عبدالرحيم لسوء أفعاله معه ، فتوجه

(١) يحيى بن الحسين ـ أنباء أبناء الزمن ص ١٥٠

(٢) عيسى بن لطف الله ـ روح الروح ص ٨٧

(٣) الشرفى ـ اللآلىء المضيئة ص ٢٠٩

(٤) نفس المصدر ص ٢٠٥

عبدالرحيم إلى حصن كحلان الشرف ، فلما بلغ جعفر باشا أن عبدالرحيم يتنقل من حصن إلى آخر ثار عليه وغضب ، فأرسل له فى الحال الأمير محمد بك الكردى السردار بعساكر كثيرة لمحاربة عبدالرحيم[1] ، وفى نفس الوقت أرسل محمد بن عبدالرحمن إلى عمر كخيا يطلب منه الأمان ويسلمه حصن المفتاح ، فأسرع عمر كخيا فى الحال لاستلام الحصن فقابله الشيخ ناصر المحبشى بجميع قبائل الاحابشة وسلموه بلادهم ، ثم تقدم بعساكره وتسلم حصن المفتاح[2] ، وسار عمر كخيا بمحمد بن عبدالرحمن إلى صنعاء ، ثم حاصروا عبدالرحيم فى حصن كحلان الشرف ومنعوا الداخل إليه والخارج منه[3] .

فلما رأى عبدالرحيم ذلك من اخوته وتنكرهم له بسبب سوء فعاله معهم ، وقسوته مع القبائل الذين فضلوا الانضام للعثمانيين عن الانضمام إليه ، خوفا من بطشه بهم ٠ رأى ان يخرج من كحلان الشرف طالبا الأمان من جعفر باشا سنة ١٠١٨ هـ - ١٦٠٩ م فخرج إلى الأمير محمد الكردى السردار ، وطلب منه الأمان ، فأخرج له الأمير محمد مرسوما بالأمان من جعفر باشا ، ثم اتجهوا إلى صنعاء ، فلما قربوا منها كان فى استقباله الأمير عبدالله بن المعافا ، واختاره الباشا جعفر بالذات ليكون فى استقباله لما بينهما من العداوة ، وقد أرسله جعفر باشا لاستقباله من أجل الشماتة بعبدالرحيم ، فلما وقعت عين عبدالرحيم عليه تغير وجهه وعرف ان الشر ينتظره ، فلما وصل صنعاء كان فى استقباله اخوته وكافة الأمراء والأغوات ، ولما قابله جعفر باشا وبخه على اعماله القبيحة ، وأمر أن يضعوه فى الدار الحمراء بصنعاء لحبسه فيها[4] ٠

استمرت الحروب بين جعفر باشا وعبدالرحيم مدة سنتين بعد عقد الصلح مع الإمام القاسم ضعف فيها حال عبدالرحيم وكان مصيره الهلاك ٠

وكان دخوله إلى الدار الحمراء يوم الأحد سادس ربيع الآخر سنة ١٠١٨ هـ - ١٦٠٩ م وبقى فى الدار الحمراء لمدة سنتين ، وكان العثمانيون قد استولوا على جميع البلاد التى كانت تحت يده ٠

---

(١) الموزعى - الاحسان فى دخول اليمن تحت ظل عدالة آل عثمان ص ٥٨

(٢) يحيى بن الحسين - أنباء أبناء الزمن ص ١٥٠

(٣) الكبسى - اللطائف السنية ص ١٢٦

(٤) الكبسى - اللطائف السنية ص ١٢٧

أما أحمد ومحمد أخوا عبدالرحيم فقد جعل العثمانيون لكل منهما مرتبة الامارة اسما فقط دون فعل ، إلى أن مات محمد بن عبدالرحمن فى شوال سنة ١٠٢٧ هـ وكذلك أخوه أحمد بن عبدالرحمن[١] ، وفى شهر شعبان سنة ١٠٢٠ هـ أرسل جعفر باشا بعبدالرحيم إلى استانبول بصحبة أغا من أغواته ، فلما وصلوا هناك حبس فى القلعة المشهورة فى وسط استانبول المسماة يَدْىَ قُله فاجتمع هناك بأعمامه وأولادهم وأولاد مطهر بن شرف الدين[٢] ٠

بذلك زالت دولة عبدالرحيم ، وزالت دولة الإمام شرف الدين ولم يبق منها الآ بنو شمس الدين فقط ٠

وكانت سيرة عبدالرحيم فى اليمن غير مرضية ، وأعماله قبيحة ، اشتهر بقسوته حتى فى معاملة أقرب الناس إليه وهم اخوته ، مما جعل أخاه محمداً والشيخ ناصر المحبشى يدبران له الحيلة حتى أدخلاه إلى حصن كحلان الشرف فتمكن منه العثمانيون ، فلم يملك غير تسليم نفسه ، كما أن له أخباراً شنيعة فى مخالفة الشريعة الاسلامية منها شربه للخمر ، وقتله النفوس بغير حق ، فقد ضرب مرة عنق عبد مملوك له ، فقيل له : ما السبب فى ذلك ؟ فقال : لأن عنقه طويلة تصلح لضربه ٠ ولا يستبعد ان يكون عبدالرحيم قام بمثل هذا العمل فمن يقتل والده يمكن ان يعمل كل شيء مشين ٠

وكذلك ما فعله بوالده ، فقد قتله وادعى أن العبد هو قاتله فقتل بذلك العبد ، وما فعله فى أولاد القحطانى وأمهم فقد علقها فى شجرة مع أولادها بحورة مكشوفة بسبب مسيرة القحطانى إلى محطة جعفر باشا فى بداية الحرب بينه وبين جعفر ،[٣] وكذلك عرف بالغدر ودليلنا على ذلك ما فعله مع الإمام القاسم فتارة يدعو له على المنابر ، وتارة يخرج عليه ، ويغدر به وينقلب عليه ، ويحاول قتل رسله إليه ، فتميزت شخصية

---

(١) الشرفى ـ اللآلىء المضيئة ص ٢٠٩

(٢) الموزعى ـ الاحسان فى دخول اليمن تحت ظل عدالة آل عثمان ص ٥٩

(٣) يحيى بن الحسين ـ أنباء أبناء الزمن ص ١٥١

عبدالرحيم بهذه الصفات القبيحة ، فهى سخصية غريبة جلبت على نفسها المحن ، وحتى بعد خروجه من اليمن إلى استانبول لم يسلم العثمانيون من سوء أفعاله ، فقد حجزه السلطان مع بعض العساكر ، فدبر المكائد معهم وأتلف أكثرهم فأمر السلطان بقتله وقال : « لأن من يفعل هذه المكيدة العظيمة لا تؤمن مكائده »[1] .

□□□□

(١) يحيى بن الحسين ـ أنباء أبناء الزمن ص ١٥١

الفصل الرابع

تأسيس الدولة القاسمية الزيدية في اليمن

الحالة بعد عزل جعفر باشا سنة ١٠٢١ - سنة ١٠٢٩ هـ

النهضة الثالثة والرابعة

أ - عودة جعفر باشا للولاية بعد عزله وموت ابراهيم باشا وما أعقبها من تطورات ١٠٢١ - ١٠٢٥ هـ (أسر الحسن ابن الإمام - موقعة غارب أثلة - موقعة الشقاب).

ب - الوالي محمد باشا وسياسته ١٠٢٥ هـ.

ج - الصلح مع الإمام ١٠٢٨ هـ.

د - وفاة الإمام القاسم ١٠٢٩ هـ.

سبقت الاشارة فى الفصل الثالث إلى أمير صعدة ونزعاته الاستقلالية ، وتصدى الباشا جعفر له ، فقد هزم جعفر باشا قوات هذا الأمير ، بعد صدام قصير ، وما كان من هذا الأمير الاّ أن جمع أمواله وغادر اليمن مع بعض أتباعه إلى بلاد الشام ،[1] ويبدو أن أمير صعدة كان ذا صلات وثيقة ببعض رجالات الدولة فى الآستانة ، اذ قيل إن صدامه مع جعفر باشا كان أحد أسباب عزل جعفر باشا عن ولاية اليمن بعد ذلك بقليل .[2]

فقد عزل جعفر باشا فى سنة ١٠٢١ هـ - ١٦١٢ م وعين بدلا منه ابراهيم باشا الذى وصل اليمن فى أول ربيع الأول سنة ١٠٢٢ هـ - ١٦١٣ م[3] .

وقد زادت الاضطرابات فى صنعاء بين صفوف العثمانيين عند عزل جعفر باشا ، فقد سارع عبدالله شلبى - كتخدا جعفر باشا بالانضام الى الوالى الجديد ابراهيم باشا ، ولم يرحل مع جعفر باشا كما هى العادة ، ونادى فى العسكر يطلب منهم الانضمام معه إلى ابراهيم باشا ، فلم يقبل أحد منهم ذلك ، فلما علم جعفر باشا بأمر عبدالله شلبى غضب وتعجب لحسن ظنه به ،[4] فعين جعفر باشا كتخدا له آخر هو الأمير حيدر .

---

(١) عيسى بن لطف الله - روح الروح جـ ٢ ص ٩٩

(٢) الجرموزى - النبذة المشيرة ص ١٧٢

(٣) الشرفى - اللآلىء المضيئة ص ٢١١

(٤) الموزعى - الاحسان فى دخول اليمن تحت ظل عدالة آل عثمان ص ٦١

أما ابراهيم باشا فقد انشرح صدره بانضمام عبدالله شلبى إليه ، نظرا لمعرفة الأخير بشؤون اليمن ، وبذلك يمكنه الاستفادة من خبرته بشؤون البلاد ، فعينه واليا على صنعاء لتمهيد الأمور بها حتى وصوله إليها ، وأخذ شلبى يجهز جيشا لحرب الإمام ، وطوائف الزيدية ، خوفا من اغتنامهم فرصة تغيير الوالى والاستيلاء على البلاد ، لكن ابراهيم باشا أصيب بالحمى وهو بذمار ، وما لبث أن وافته المنية فى يوم الاثنين ٢٨ جمادى الأولى سنة ١٠٢٢ هـ - ١٦١٣ م[١] وقيل إنه مات مسموما ، وكانت مدة ولايته حوالى شهرين فقط ٠

أدت وفاة ابراهيم باشا إلى انفجار الأزمة بين جعفر باشا وعبدالله شلبى ، فقد عاد جعفر باشا من زبيد قاصدا صنعاء ، بناء على طلب طائفة الاصباحية[٢] ، الذين خرجوا مع ابراهيم باشا ، وكان قائداهم أحمد أغا وسليمان أغا ، فلما علم عبدالله شلبى بعودة جعفر باشا خاف منه لما سلف منه ، فهاج وماج وأخذ ينشر بين الأمراء والعسكر أن جعفراً قد عزل ولا ولاية له فى اليمن ، والباشا ابراهيم قد جعله خليفته ، وأن مراده حفظ البلاد إلى أن يأتى وال جديد من الآستانة فخاف العسكر منه ، ووافقوه فى الظاهر بعد أن أخذ منهم العهد على امتثال أوامره ، ومنع عبدالله شلبى جعفراً من دخول صنعاء وتجهز لحربه ،[٣] وأرسل شلبى إلى الإمام يعرض عقد صلح معه على ألا يتعدى أصحاب الإمام المواضع التى هم فيها ، وذلك ليضمن جانب الإمام[٤] ٠

والواقع أن أكثر العسكر كانوا يميلون لجانب جعفر باشا لكونه أعلى مرتبة من عبدالله شلبى ؛ ورغم أن جعفر باشا كان قد أرسل الى عبدالله شلبى ، بموافقته على ابقائه فى منصبه حاكما لصنعاء ، فقد خاف الأخير انتقام جعفر باشا منه ، ورفض الاعتراف بولايته لليمن بعد عزله ، وقد اتخذ عبدالله شلبى موقفا معارضا صريحا لجعفر

---

(١) الكبسى - اللطائف السنية ص ١٢٨

(٢) الاصباحية - هى طائفة من الجند العثمانى ، ويبدو أن اللفظ محرف ، وأن المقصود به الاصباهية أو السباهية وهى طائفة الفرسان فى الجيش العثمانى ٠

(٣) يحيى بن الحسين - أنباء ابناء الزمن فى تاريخ اليمن ص ١٥٢

(٤) الشرفى - اللالىء المضيئة ص ٢١٧

باشا أدى الى ظهور الانقسام بين صفوف العثمانيين ، اذ اقترح فى رده على خطاب جعفر باشا تقسيم اليمن بينهما ، على أن يكون له صنعاء وما يليها شمالا ، وأن تكون الأقاليم الممتدة من ذمار الى عدن جنوبا لجعفر باشا ،[١] ولما لم يوافق جعفر باشا على هذا التقسيم اتسعت هوة الخلاف بين الطرفين ، فأرسل جعفر باشا الأمير حيدراً الى صنعاء ، فاجتمع بعسكر عبدالله شلبى سرا وأظهر لهم أمانا من جعفر باشا ، وأنه أولى بالولاية والطاعة ، فمال اليه أكثر العسكر ودارت بينهم الحرب ، فانهزم أصحاب شلبى ، وكان ذلك سببا فى انحياز باقى العسكر الى جعفر باشا ، وساروا اليه بذمار ، فقتل من الرؤساء جماعة منهم الفقيه على الشهارى الذى نكث العهد مع الإمام القاسم ، وسلم البعض الآخر من القتل ، ثم تقدم الأمير حيدر إلى صنعاء لحرب عبدالله شلبى ، ولما قرب منها وصلت اليه كتب الأمراء والجند بالموالاة لجعفر والتبرؤ من شلبى ، ثم خرجوا من الخندق الذى اختبأوا فيه ، وهؤلاء هم عبدالله بن المطهر وأخوه ابراهيم ، وعبدالله ابن المعافا ، وصلاح المؤيدى ، ومحمد المؤيدى ، والأمير درويش وعلى بن الشويع ، والأمير أحمد الأخرم ، فأخذوا الأمان من حيدر لأنفسهم ولأهل صنعاء ، وفتحوا له الخندق على شرط عدم تخريب صنعاء أو الإضرار بأهلها ، فدخل أصحاب الأمير حيدر من الخندق ، فالتجأ شلبى وجماعة من أصحابه الى قصر صنعاء ، ولم تنهب صنعاء أو تخرب على حسب الاتفاق ، بل حاصر أصحاب حيدر القصر الذى به شلبى ، فلما وجد شلبى أن الأمر خرج من يده ، ولا مفر له استسلم وطلب الأمان من حيدر ، فأمنه ، وكتب إلى الباشا جعفر بأمانه ، فلم يجبه إلى ذلك ، بل أمره أن يقتله ويأتيه برأسه ، وتقدم جعفر باشا إلى صنعاء فاستقر فيها[٢] .

هذه الاضطرابات التى سادت صنعاء بسبب الفتنة بين عبدالله شلبى وجعفر باشا جعلت الإمام القاسم يفكر فى نقض الصلح الذى عقده مع جعفر باشا سنة ١٠١٦ هـ ، لان الإمام كان يرى فى الصلح مصلحة لأهل اليمن من أجل تسكين الفتنة مادام جعفر باشا باقيا ، أما وقد عزل فقد خاف الإمام من استيلاء الوالى

---

(١) الموزعى ـ الاحسان فى دخول اليمن تحت ظل عدالة آل عثمان ص ٦٤

(٢) عيسى بن لطف الله ـ روح الروح جـ ٢ ص ٩٠ ، الكبسى ـ اللطائف السنية ص ١٢٨

الجديد على ما تحت يده من البلاد ، وعدم الاعتراف بحق الإمامة ، فتثور عليه البلاد وتتراجع عن مناصرته القبائل ، نظرا لأنهم كانوا قد استراحوا إلى الدعة أيام الصلح ، فاستشار الإمام أصحابه فى ذلك الأمر ، فاجتمع الرأى على نقض الصلح والحرب ، فانتظر الإمام الى أول شهر ربيع الأول سنة ١٠٢٢ هـ ـ ١٦١٣ م ، وذلك بعد خروج الباشا جعفر من صنعاء بأيام ،[١] وبذلك بدأ الإمام النهضة الثالثة من دعوته ، فقد كان الامام ينتظر وصول موافقة ابراهيم باشا لتجديد الصلح معه ، غير أن الأخير وافته المنية كما أشرنا سابقا فور وصوله إلى ذمار ، كما أن الامام لم يثق بما أرسله إليه عبدالله شلبى بشأن عقد الصلح معه وبقاء الأوضاع على ماهى ، ورأى الإمام أن الفرصة مواتية لتوسيع نفوذه فى البلاد ، خاصة وأن عبدالله شلبى أثناء الفتنة بينه وبين الباشا جعفر قد سحب أكثر جنوده إلى صنعاء لمساعدته فى الوقوف أمام قوات جعفر باشا ، فأصبحت أغلب الحاميات العثمانية فى المنطقة الشمالية خالية من الجند العثمانى ، ودفع هذا بالتالى قبائل هذه المناطق على اعلان انضمامهم للإمام ومبايعته ، ولهذا بدأ الإمام فى ارسال قواته الى الأقاليم المختلفة فور ذلك ، فوجه ولده عليّا إلى بلاد الشرف ، وولده الحسن إلى بلاد شطب والسّوْدة وعَفَار ، والقاضى هادى ابن عبدالله بن أبى الرجال ، والحاج أحمد بن عواض الأسدى والشيخ سعيد الطير إلى بلاد الظاهر ، فأما علىّ فأستولى على بلاد الشرف ، ثم تقدم إلى بلاد عَفار فاستفتحها بعد حروب شديدة ، وأما الحسن فانه فتح شطب والسّوْدة وارتفع الى جبل بنى حجاج فالتجأ أصحاب الأمير عبدالله بن المعافا إلى قرن الناغى أحد حصون السودة ، أما الظاهر فدخلوا فى طاعة الإمام طوعا ، كما أخضع الفقيه على الشهارى بلاد عيال يزيد للامام[٢] .

بذلك نجح الإمام فى مد سيطرته إلى الكثير من أقاليم المنطقة الشمالية مثل بلاد الشرف وعَفار والظاهر وجبل عيال يزيد ، وهذه الأقاليم التى كانت تحت سيطرة

---

(١) الشرفى ـ اللآلىء المضيئة ص ٢١٧

(٢) يحيى بن الحسين ـ أنباء أبناء الزمن فى تاريخ اليمن ص ١٥٢

الأمير عبدالرحيم قبل نفيه إلى الآستانة ، وكانت كل هذه الفتوحات أثناء خروج ابراهيم باشا ورحيل جعفر باشا وفتنة عبدالله شلبى .

ولم تكن المنطقة الشمالية فقط هى التى سادت فيها الاضطرابات فى هذه الفترة ، بل فى المنطقة الجنوبية أيضا ، فقد تمرد بعض جنود حامية تعز على أميرها ، وعاثوا فى المدينة فسادا ، حتى تم تعيين أمير جديد لها من قبل ابراهيم باشا ، فعمل على اعادة الهدوء إليها بعد أن قبض على زعيم الجنود المتمردين ، وقد استغل بعض أهالى ولايتى تعز والحجرية هذه الاضطرابات فخلعوا طاعة العثمانيين ، مما أجبر جعفر باشا على ارسال بعض قواته إلى هذه الجهات لاعادتها إلى الطاعة ، وذلك بعد أن استقرت أحواله ثانية فى صنعاء بعد القضاء على تمرد عبدالله شلبى الكخيا[1] .

هكذا أصبحت اليمن فى حالة من الفوضى والاضطراب سواء فى شمالها أو جنوبها ، بسبب عزل جعفر باشا وفتنة عبدالله شلبى ، ولكن عودة جعفر باشا إلى الولاية مرة ثانية بعد قضائه على تمرد شلبى ، أعطى العثمانيين قوة جديدة ، ردت لها بعض ما ضاع منها من أقاليم ، فجهز جعفر باشا قواته لحرب الإمام القاسم بقيادة الأمير حيدر الذى خرج من صنعاء فى تسعة آلاف مقاتل ، وقيل عشرة آلاف مقاتل ، فوصل عُمران وأرسل بعض الجند إلى جبل عيال يزيد ، وكان الحسن ابن الامام اذ ذاك فى موضع يسمى بيت عِلْمان ، فلما علم بوجود حيدر انتقل منه إلى بلاد الأشمور ، ولم يكن معه غير مائتى نفر ، أما بقية جنوده فتركهم فى جبل تيس ، فلما وصل قرب عُمران ورأى جنود الأمير حيدر رجع إلى موضع بالقرب من بلاد المصانع ، فخرجت عليه فرقة من جند الأمير حيدر من مدع ، فحدثت مناوشة أثناء مروره ، ثم أقبل علىّ بن الإمام القاسم من بلاد حضور الشيخ لنجدة أخيه الحسن ، وكذلك أقبل أحمد ابن الإمام الحسن بن علىّ من حجّة ، والحاج أحمد الأسدى بجموع غفيرة ، فاشتدت الحرب واستمرت مدة سبعة أيام ، حتى كاد أصحاب الإمام يتغلبون على جند العثمانيين ، الا أن حامل الراية من أصحاب أحمد ابن الإمام الحسن انهزم ومعه أهل حجة ، فتضعضع بقية الناس ووقع فيهم الرعب ، فتتابعت الهزيمة على أصحاب الإمام ، فخاف الحسن

(١) الموزعى ـ الاحسان فى دخول اليمن تحت ظل عدالة آل عثمان ص ٥٠

ابن القاسم ان طال عليه الحصار وعلى أهل العُرّة أن يأخذهم العثمانيون قهرا ، ففضل أن يسلم نفسه ويطلب الأمان لأهل العُرّة ، فخرج إلى الأمير حيدر فأرسل به إلى جعفر باشا ، فسجنه فى سجن صنعاء المعروف بالدار الحمراء ، وذلك فى رمضان سنة ١٠٢٢ هـ الموافق سنة ١٦١٣ م[١] ، ولما علم الإمام بأسر ولده الحسن خاف على بلاده ، فأرسل للباشا جعفر يطلب منه اعادة الصلح على الشروط الأولى لصلح سنة ١٠١٦ هـ ، لكن جعفر باشا لم يجبه إلى طلبه[٢] .

هذه المحنة كان لها أثر عظيم فى قلوب الناس ، فقد أصابهم الرعب والفشل حتى ان بعض خواص الإمام وملازميه طلبوا الاذن لهم بمفارقته ، منهم الفقيه أحمد بن يحيى الحداد الصعدى ، فقال له الإمام : « الخيار إليك ، اما أن تكون من جملتنا فى الشدة والرخاء ، وترضى بما جاء من عاقبة وبلاء .. واما أن تفارقنا ولا أجبرك بشىء »[٣] ، ومكن ذلك الأمير حيدر كلما قصد مكانا من بلاد الإمام فتحه دون مشقة وتعب ، ولم يبق فى يد الإمام غير وادعة والأهنوم ومالبث أن ضاعت منه وادعة كذلك .

خرج الإمام القاسم من شهارة وهو فى أشد المحنة ، حتى إنه كان يدعو الله ويتضرع ويبكى بكاء شديدا حتى يخرجه الله من هذه المحنة ، فانتقل بعد ذلك إلى صعدة فأقبل عليه أهلها واستبشروا بقدومه إليهم .

لما علم الأمير حيدر بوجود الإمام بصعدة توجه بجيوشه وأمرائه إليها ، منهم الأمير حسين ، والأمير رستم ، والأمير أحمد الأخرم والأمير مطهر بن الشويع والأمير عبدالله ابن المعافا ، فلما وصل إلى الهَجَر ترك الأمير عبدالله بن المعافا هناك ومعه كثير من الجند ، ثم توجه هو وبقية الأمراء إلى صعدة ، فلما علم الامام بالخبر أمر أولاده الحسين وعلياً والسيد أحمد ابن الإمام الحسن بالتقدم لمحاربة الأمير حيدر ، لكن الأمير حيدراً كان أسرع منهم واستطاع دخول صعدة دون قتال ، فرأى الحسين بن القاسم أن

---

(١) يحيى بن الحسين ـ أنباء أبناء الزمن فى تاريخ اليمن ص ١٥٣
الشرفى ـ اللآلىء المضيئة ص ٢٢٢

(٢) عيسى بن لطف الله ـ روح الروح جـ ٢ ص ٩١

(٣) يحيى بن الحسين ـ غاية الأمانى فى أخبار القطر اليمانى ص ٨٠٢

يتفرق الجند فى بلاد صعدة حتى يقطعوا المؤن على حيدر ، فما كان من الأمير حيدر الا آن أرسل إلى السيد يحيى المؤيدى - والى العثمانيين على أبى عريش - أن يتقدم إلى رازح ، فلما علم الإمام بذلك أرسل ولده الحسين لحرب السيد يحيى المؤيدى فحاربه وانتصر عليه ، وأرجع السيد يحيى إلى أبى عريش واستولى على جميع أمواله ، فلما رأى ذلك الأمير حيدر وجه فى الحال الأمير رستماً الى بعض بلاد صعدة ، ولكن القبائل هاجمته ، فلما علم حيدر بذلك أرسل الأمير أحمد الأخرم لنجدته ، وكان بين الأمير أحمد ورستم عداوة قديمة فتمهل الأمير أحمد الأخرم فى المسير إليه ، فلما وصل إليه كان عليّ ابن الإمام القاسم قد قتل الأمير رستماً ، واستولى على جميع ما معه ،[1] فتقدم الأمير حيدر إلى أولاد الامام فوقعت الحرب بينهم ، فانهزم حيدر ، وقتل من أصحابه جماعة ، فلما رأى ذلك الأمير أحمد الأخرم أراد الالتجاء إلى الإمام خوفا من ملامة الأمير حيدر ، لأنه لم يصل إلى رستم فى الوقت المناسب ، لكن أصحاب الإمام قتلوه وأرسلوا برأسه إلى الإمام فبعث به إلى ولده محمد فى شهارة ، فأمر محمد بن القاسم أن يعلق رأس الأخرم خارج بلاد الأمير عبدالله بن المعافا فى الليل ليثير الرعب والفشل فى قلوب العثمانيين ، فلما رآه ابن المعافا انزعج وداخله الخوف الشديد وانحصر ابن المعافا فى الهجر ، أما حيدر فقد دبر أمره بالحيلة للخروج من صعدة فخرج منها إلى خمر[2] .

يقول الجرموزى فى مخطوطته « كان جعفر باشا قد ندم على نقض الصلح فأمر الشيخ ناصر بن على المحبشى أن يستوقف الإمام فى الشام (الشمال) ويسعى فى الصلح الأول فلم يجبه الإمام »[3] ولم يوافق الامام على الصلح رغم ما كان فيه من المحنة لأنه كان قد عاهد أهل خولان على عدم تسليمهم للعثمانيين ، وكانت رغبة جعفر باشا العودة إلى حدود صلح سنة ١٠١٦ هـ ، لذلك لم يقبل الإمام بالصلح .

قويت عزيمة أصحاب الإمام بعد حروب صعدة ، وخرجت بعض القبائل على طاعة العثمانيين ، وخاصة عندما خرج محمد بن القاسم الى بنى سعد ، وحارب حسين

---

(١) الكبسى - اللطائف السنية ص ١٢٩

(٢) عيسى بن لطف الله - روح الروح جـ ٢ ص ٩١

(٣) الجرموزى - النبذة المشيرة ص ٢١٢

ابن المعافا الذى فر إلى السودة فقتل محمد من أصحابه عددا كبيرا وأخذ ما معهم من سلاح ، ثم توجه إلى الهجر ، وأقام الحصار على عبدالله بن المعافا ، فلما طال الحصار على عبدالله بن المعافا وليس لديه طعام فكر فى طلب الأمان من الإمام ، وتسليم نفسه إليه ، على أن يخرج عسكر العثمانيين ويسلموا سلاحهم كذلك ، ولما علم الأمير حيدر بأمر حصار ابن المعافا ، دبر الحيلة لاخراجه ، فأرسل الأمير درويشاً وغيره من الأمراء فى جيش وافر إلى الهجر ، ولكن ابن المعافا كان فى حالة سيئة من شدة الحصار وقلة الطعام ، كما أن درويشاً لم يستصحب معه شيئا من الطعام والمؤن لأنه لم يأت ألا لانقاذه ، فعظم الأمر على عبدالله بن المعافا وأشار على أصحابه بالخروج من الهجر فورا قبل اجتماع أصحاب الإمام ، وكان الإمام قد وصل من جهة صعدة إلى حبور ، وترك ولده عليا لحفظ صعدة ، ولم يكن معه غير ولده الحسين ، فلما استقر فى حبور ، بلغه مسيرة درويش لتخليص ابن المعافا ، فأمر ولده الحسين بالتأهب لقتال الأمير درويش وجنوده وهم عائدون من الهجر ، فلما عاد الأمير درويش ومعه ابن المعافا وبقية الأمراء إلى المكان المعروف بغارب أثلة ، وهو موضع ضيق الجوانب ، هجم عليهم الحسين وأصحابه ، وكان محمد بن القاسم قد أتى لمساعدته بمن معه من القبائل ، وقد أهمل عبدالله بن المعافا والأمير درويش تحصين قرن الوعر واغتروا بكثرتهم وخيولهم ، وقال الأمير عبدالله للأمير درويش : « نحن فى هذه الكثرة والخيل والجمع ما عسى أن تفعل بنا ألفاف القبائل »[1] فكان ذلك مما يسر للحسين الهجوم عليهم ولم يشعروا الاّ وقد هاجمتهم عساكر الحسين ، فقتل الأمير درويش والأمير عبدالله بن المعافا وغيرهما من الأمراء ومن معهم من العسكر ، ولم ينج منهم غير جماعة قليلة لجأت إلى حصن قرن الوعر ، فحاصرهم الحسين بن القاسم ، حتى سلموا أنفسهم فأخذ الحسين سلاحهم وعُددهم ، وتقدم بهم إلى أبيه ،[2] فأودع جماعة منهم السجن ، وفرق بقيتهم فى القبائل ينتفعون بهم فى أعمال الزراعة ، وكانت هذه الموقعة فى يوم الأحد ١٣ جمادى

---

(١) عيسى بن لطف الله ـ روح الروح جـ ٢ ص ٩٢

(٢) الشرفى ـ اللآلىء المضيئة ص ٢٣١

الثانية سنة ١٠٢٣ هـ ـ ١٦١٤ م ، وبعد هذه الموقعة استرجع الإمام أكثر البلاد التى أخذها منه الأمير حيدر[1] .

وكان لهذه الموقعة أثر عظيم فى نفوس أصحاب الإمام اذ قوت من عزائمهم بعد ماسلبت جميع البلاد التى أخذها الإمام أثناء فتنة عبدالله شلبى ، وحتى البلاد التى كانت للإمام أيام صلح سنة ١٠١٦ هـ وأصبح الإمام صفر اليدين ، هذا من جانب الإمام القاسم أما العثمانيون فكان لها وقع سيء عليهم ، مما جعل كثيرا من الجنود العثمانيين يلجأون للإمام القاسم ، بالاضافة إلى أن الأمير حيدراً خرج للانتقام من الإمام القاسم بعد علمه بمقتل الأمير درويش والأمير عبدالله بن المعافا فى خمر ، رغم ما كان يعانيه من خوف من الإمام ، فهمّ مسرعا إلى صنعاء واضطربت أحواله ، فأشار عليه عبدالله بن المطهر بالثبات فى خمر ، وقوى عزيمته على ذلك فرجع مرة ثانية إلى خمر .

لما بلغ عليًّا بن القاسم انتصار أبيه فى موقعة غارب أثلة ، وكان هو محاصرا لصعدة ، أراد أن يهجم على من فيها من العثمانيين علّه يظفر بهم ، فجمع أصحابه وأتباعه وقصدهم فى موضع يسمى الشقاب بالقرب من صعدة ، وهو مكان سهل مكشوف[2] ، لذا أشار عليه بعض أصحابه بالبعد عن هذا المكان ، لكنه صمم على نزال العثمانيين فيه ، فوقعت حرب عظيمة ، كانت خيل العثمانيين فيها كثيرة العدد بالنسبة لما مع علىّ بن القاسم ، وانتهت المعركة بقتل علىّ بن القاسم وقطع رأسه ، وحمله إلى صنعاء . وقتل معه جماعة من مشايخ خولان أيضا ، وكان ذلك فى يوم السبت ١٩ جمادى الأولى سنة ١٠٢٣ هـ ـ ١٦١٤ م[3] وقد حزن الإمام القاسم كثيرا على مقتل ولده .

بعد موقعة الشقاب وقتل علىّ ابن الإمام القاسم ، أخذ العثمانيون يعملون على إفساد القبائل بشتى الطرق ليقضوا على الروح المعنوية المرتفعة عند أصحاب الإمام

---

(١) الكبسى ـ اللطائف السنية ص ١٢٩
(٢) الشرفى ـ اللآلىء المضيئة ص ٢٣٣
(٣) الجرموزى ـ النبذة المشيرة ص ٢٢١

بسبب انتصارهم فى معركة غارب أثلة وتم لهم ذلك ، وفى أول شهر الحجة سنة ١٠٢٣ هـ ـ ١٦١٤ م تمردت قبائل عفار وكحلان ، وبلاد مسور وحجة على الإمام فدخلها العثمانيون ، وأخذ حيدر يعمل فيها السيف كما استولى على عَرّان قهرا وأسر جماعة منهم وقتلهم وأرسل برؤوسهم إلى صنعاء • ثم وقعت موقعة الفاشى التى انتصر فيها أصحاب الإمام وغنموا غنائم كثيرة من سلاح وآلات حربية ،[1] وكانت الحروب قائمة أيضا فى الظفير والموسم ، وخلالها وقعت موقعة غريان المشهورة التى انتصر فيها أيضا أصحاب الإمام وولى حيدر منهزما هو وجميع جنوده إلى خمر •

بعد موقعة غريان مل العثمانيون القتال وقلت شوكتهم وانهكتهم الحروب المتتالية « وكلما راموا سد ثغر انفتح عليهم آخر »[2] وظلوا هكذا حتى وصل الخبر إلى صنعاء بعزل جعفر باشا من منصبه وتعيين محمد باشا بدلا منه ، وذلك سنة ١٠٢٥ هـ ـ ١٦١٦ م فسعى جعفر باشا حينذاك إلى عقد صلح مع الإمام لمدة عام لأنه كما قيل « خالف (خاف) أن يسير والفتنة فى أثره »[3] وقد أشار على جعفر باشا بعض أصحابه بأن يوسط الحسن ابن الإمام القاسم المأسور فى صنعاء بطلب الصلح من والده على أن يترك الإمام الأمير صفر يخرج من صعدة سالما ، وإلاّ سوف يأخذ الحسن معه إلى الآستانة ، ولكن الحسن اعتذر بحجة أن هذا الأمر ليس فى يده ، ولكن جعفر باشا أرغمه على إرسال خطاب له ، فأرسل هذا الخطاب على هيئة أبيات من الشعر دون أن يذكر اسمه قائلا :

مولاى إن الصلح أعذب مورد ... فاسلك له سبيلا سويا أجردا
أرسل ولاء الحلم فى ضافية كى ... يروى ظمأه المسلمين عند الصدا

فقرأ الإمام الخطاب ولم يعرف أنه من ولده بل ظن أنه من أحد المتوددين إليه فأجابه بقوله :

يا مانحاً محض النصيحة مرشدا ... إن الهدى عندى لمن يبغى الهدى
والحلم نحن تجاره يروى لها ... ظامى الحشا ويثور عدل عقيدتى

(١) الشرفى ـ اللآلىء المضيئة ص ٢٣٩

(٢) نفس المرجع

(٣) الجرموزى ـ النبذة المشيرة ص ٢٣٥

ووافق الإمام على عقد الصلح ، وتمت المكاتبة بهذا الصلح سرا ، وأرسل الإمام الفقيه جمال الدين بن عامر الزمارى إلى صنعاء لعقد الصلح[1] .

كانت شروط الصلح كالتالى : أن يترك للامام ما تحت يده وقت الصلح الأول وهى بلاد الحِيَمْة وحضور ، وجبل مسور وبلاد صعدة ، وان الاسرى فى صنعاء مثل الحسن بن القاسم يبقون فى صنعاء ولاينقلون منها إلى مكان آخر . لأن الإمام خاف أن جعفر باشا يأخذ ولده معه إلى الآستانة ، ثم أرسل الإمام من أخرج الأمير صفر من صعدة ، وجعل ولاية صعدة للأمير صلاح بن أحمد بن الحسين المؤيدى . وأما مدة الصلح فسنة واحدة تبدأ من أول رجب سنة ١٠٢٥ هـ إلى سنة ١٠٢٦ هـ وتم الصلح على هذه الشروط .

إن الإمام القاسم بذلك أحرز نجاحا عظيما فى توسيع حدود ممتلكاته ، اذ سقطت أغلب أقاليم المنطقة الشمالية فى يده ، ولم يبق للعثمانيين بها الا بعض المراكز الرئيسية مثل صعدة ، التى مالبثت هى الأخرى أن سقطت فى يد القبائل الموالية للامام ، ولم يبق للعثمانيين غير خمر وكوكبان فقط فى المنطقة الشمالية[2] . لكن هذه الانتصارات التى أحرزها الامام لم تكن تخفى حقيقة هامة ، وهى أن العثمانيين مازالوا أكثر عددا وأحسن تسليحا بالنسبة لقوات الامام ، بالاضافة إلى أن الأرض التى أخذها الامام كانت أرضاً فقيرة جبلية يكلف الاحتفاظ بها الشىء الكثير ، لذا كان على الإمام أن يسعى فى استمرار الصلح بينه وبين الوالى الجديد محمد باشا .

قبل أن نبدأ فى المفاوضات التى جرت بين الإمام القاسم ومحمد باشا لابد أن نتعرض لهذا الوالى الجديد وسياسته فى اليمن ، اذ يعتبر هذا الوالى ضمن الولاة الذين حاولوا تثبيت أقدامهم فى داخل ولاياتهم بطريقة سلمية ، كما فعل جعفر باشا من قبل . فقد أدخل محمد باشا بعض الاصلاحات أيضا ، التى حاول بها أن يهدىء من الأحوال فى اليمن ، لأنه دخل اليمن وأحواله مضطربة بسبب كثرة الحروب بين الدولة العثمانية والإمام القاسم ، وقد صور لنا عيسى بن لطف الله حالة اليمن قبيل وصول

---

(١) الجرموزى ـ النبذة المشيرة ص ٢٣٦

(٢) تاريخ دولة الترك ص ٢٤ ـ المؤلف مجهول

محمد باشا فقال : « كان وصوله واليمن قد عمته الخطوب والفتن ، وشملته النصب والحزن ، وتفرقت قبائله »[١] . لذا كان عليه أن يسير وفق خطة معينة ليستطيع أن يجذب إليه قلوب اليمنيين ، وإلا سوف تزداد الحروب وتشتعل نيرانها ، وقد تميز محمد باشا بصفات أهلته لأن يقوم بتلك الاصلاحات ، ووصفه كثير من معاصريه مثل المحبى بقوله : « كان رجلا حليما ، حازما فى جمع الأموال صبورا على الشدائد »[٢] . كما وصفه الكبسى كذلك بقوله : « كان هذا الباشا من أعقل العقلاء ، الوافر الذهن الحاضر ، والتدبير النافع »[٣] ، كما أنه استطاع أن يجذب قلوب اليمنيين إليه وخاصة الزيديين منهم فقد أحسن إلى الأسرى فى سجن صنعاء ، ومنهم الحسن بن الإمام القاسم ، الذى أسره جعفر باشا وأودعه سجن صنعاء المعروف بالدار الحمراء كما سبقت الاشارة إلى ذلك . فقد فك عنه القيود ورخص للعلماء . بالدخول إليه ، وأعطاه سرية وهى أم ولده أحمد ، وكان يأذن له بالخروج لكن بصحبة الحرس .[٤] مما كان له أعظم الأثر فى نفس الإمام القاسم ونفس الحسن كذلك فحصلت بينهما المودة ، وتبادلا الهدايا ، وأنشأ الحسن قصيدة يمتدح فيها محمد باشا نظير احسانه اليه[٥] . وعندما وصل إلى تعز أطلق جميع الأسرى من قلعة القاهرة ، ففرحوا بخروجهم أشد الفرح ، مما كان له أثر عظيم فى نفوس أهل اليمن ورضائهم عن ولايته لهم[٦] . مما جعل أحد المؤرخين يصفه بقوله : « أنه ألين من وطىء اليمن قدمه »[٧] . الا ان محمد باشا قد أخذ عليه أنه بخيل ، حريص على جمع المال ، حتى قيل إنه جمع كثيرا من الأموال عند دخوله تعز « لأنه خرج من الروم[٨] وهو فقير »[٩] .

---

(١) عيسى بن لطف الله ـ روح الروح جـ ٢ ص ٩٣

(٢) المحبى ـ خلاصة الأثر جـ ٤ ص ٢٩٦

(٣) الكبسى ـ اللطائف السنية ص ١٣٠

(٤) نفس المرجع ص ١٣٠

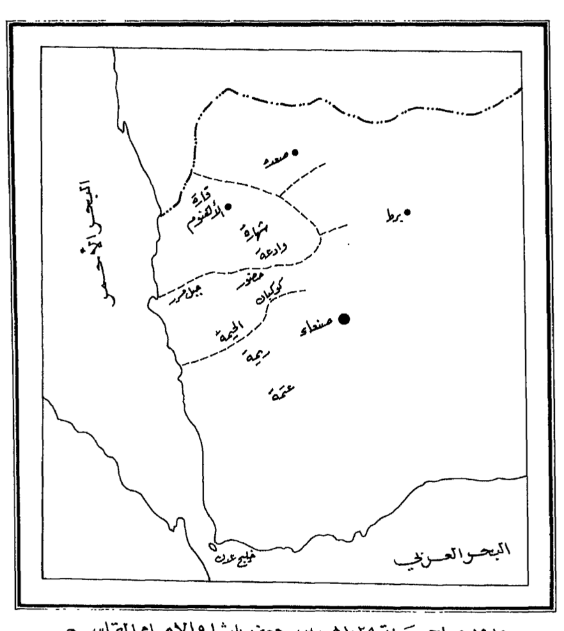
(٥) يحيى بن الحسين ـ أنباء أبناء الزمن فى تاريخ اليمن ص ١٥٨

(٦) الموزعى ـ الاحسان فى دخول اليمن تحت ظل عدالة آل عثمان ص ٧١

(٧) فاروق عثمان أباظه ـ الحكم العثمانى فى اليمن ص ٢٤

(٨) الروم ـ جرت العادة باطلاق كلمة روم على سكان القسم الاوربى من الدولة العثمانية ، اذ كانت ممتلكات الدولة العثمانية فى أوربا من قبل ممتلكات رومانية . حركة الاصلاح للدكتور محمد البحراوى .

(٩) الشرفى ـ اللآلىء المضيئة ص ٢٤١



حدود صلح سنة ١٠٢٥هـ بين جعفر باشا والإمام القاسم

وصل محمد باشا إلى اليمن فى شهر شعبان سنة ١٠٢٥ هـ - ١٦١٦ م ٠ قادما من مصر ، ولا غرابة فى ذلك فان السلطنة كانت فى أغلب الأحيان تختار ولاة اليمن من بين من تولوا نيابة غزة أو من بين ولاة مصر ، أو ممن تقلدوا وظائف هامة بها ، وذلك حتى يكونوا على دراية بأحوال اليمن ، وعلى علم بأخباره ٠ فقد كان محمد باشا كاتب الديوان بمصر للوزير حسن باشا قبل توليته على اليمن ، لذا نجده يقول :«إنه أدرى الناس بأحوال أهل اليمن» ، كما أن محمد باشا قد نهج على نهج جعفر باشا فى تقريب العلماء والفقهاء إليه ومناقشاتهم ، ومنهم السيد عبدالرحمن بن الصديق الطباطبى ، والسيد عيسى بن لطف الله ، والفقيه حسن أفندى ٠ كما كان كثير القراءة فى جميع الفنون ، ولديه مكتبة غاصة بالكتب[1] ٠ واهتم محمد باشا أيضا بإقامة العدل فى اليمن ، وأقام الديوان فى صنعاء عقب وصوله للنظر فى مظالم الأهالى ، (فانصف المظلوم من الظالم ، وساوى بطريق الحق بين المالك والمملوك ، والغنى والصعلوك ٠٠ فطمع الضعيف فى إنصافه ، وخاف القوى من انحرافه ، فحصل له فى القلوب هيبة ورهبة ومحبة)[2] ٠ كما صرف محمد باشا بعض جهوده للقيام ببعض المنشآت العمرانية ، فاهتم بتجديد سور صنعاء ، وبتعمير مسجد طلحة الصحابى بها ، واقامة منارته العظيمة ، وشيد مسجدا كبيرا فى بريم وعمر المدينة نفسها بعد تهدمها أثناء الحروب مع الإمام القاسم ، وأقام حولها سوراً يحفظها ، وفى نفس الوقت اهتم ببناء القلاع والحصون ، وخاصة قلاع حجَّة ، ورمم ما تهدم منها[3] ٠ وحفر بئرا فى صنعاء وهى المعروفة باسم بئر باشا[4] ، وأكملها من بعده فضلى باشا ، وأمر بعمارة البركة التى بجوار ضريح الشيخ احمد علوان بتعز وزاد فى المصلى ، وفرش جامع صنعاء ، وتنبه محمد باشا إلى شىء هام عند وصوله وزيارته لجبل الكبريت بزمار ، حيث وجد الكبريت فيه بكثرة ، وهذه المادة تستعمل فى صناعة البارود ، فأمر فى الحال بتحصينه وجعل الجند حوله ٠ والسبب فى ذلك أنه علم بأن أصحاب الإمام القاسم أصبحوا يجيدون

---

(١) يحيى بن الحسين - أنباء أبناء الزمن ص ١٥٦

(٢) عيسى بن لطف الله - روح الروح جـ ٢ ص ٩٥

(٣) نفس المرجع ص ٩٦

(٤) السيد مصطفى سالم - الفتح العثمانى الاول لليمن ص ٣٧٢

استعمال البنادق ، لكثرة ما اغتنموه من عسكر العثمانيين خلال حروبهم ، وبما أن البنادق تحتاج إلى البارود الذى يصنع من هذا الكبريت فلابد من استغلاله وحراسته ، فارتفعت أسعاره ، « حتى بلغ رطل البارود بثلاثة أحرف وقرش »[1] ، كما اهتم محمد باشا بالبحث عن السجلات والدفاتر ، ورواتب الجند ومحصول البلاد ، وكانت وظيفته فى مصر قد أكسبته الاهتمام بمثل هذه الأمور ، وكذلك اشتهر العثمانيون بدقة التسجيل واهتمامهم بالسجلات والدفاتر الحكومية ، وذلك منذ قيام دولتهم[2] ، لذا نجده عند وصوله يحاسب الباشا جعفراً على ماقى خزائنه من أموال ، وطالبه بمال إبراهيم باشا وعبدالله شلبى[3] ، واهتم محمد باشا كذلك بتجهيز قافلة المحمل اليمنى ، كعمل دعائى هام ، وذلك ليكسب جانب اليمنيين إليه ، بالاضافة إلى رضاء السلاطين العثمانيين فى الآستانة ، خاصة وأنه وصل اليمن وهو فى حالة سيئة من الحروب والفتن . وقد وصف الموزعى هذا الاهتمام بقوله : « ومن المآثر العديدة الزيادة العظيمة التى زادها من المحمل الشريف اليمانى ، فى زيادة الجمال والرواحل لركوب الضعفاء والفقراء والأرامل ، وزيادة البقسماط والبر والأرز والسمن والعسل وغير ذلك مما يحتاج إليه المحتاج من المسافرين والحجاج حتى الكعبة ، جعل جميع ذلك كافيا زائدا بحيث يحصل فيه المدد للحاج ذاهبا وعائدا »[4] .

وقد يرجع اهتمام محمد باشا بالمحمل اليمنى ، محاكاة منه لاهتمام ولاة مصر بالمحمل المصرى .

لما استقر محمد باشا فى صنعاء اتصل الامام به وطلب منه اطالة مدة الصلح الذى عقده مع جعفر باشا قبيل رحيله سنة ١٠٢٥ هـ - ١٦١٦ م . إلى عشر سنوات بدلا من سنة واحدة وذلك بحجة عدم أهمية المناطق الجبلية ، وفقر سكانها وقلة خراجها ، ولكن محمد باشا رفض هذا الاقتراح لأنه لم يتعرف على أوضاع اليمن بعد لقرب

---

(١) يحيى بن الحسين - أنباء أبناء الزمن فى تاريخ اليمن ص ١٥٦

(٢) على همت - أبوالفتح السلطان محمد الثانى وحياته العدلية (ترجمه من التركية محمد احسان) ص ٩١

(٣) الجرموزى - النبذة المشيرة ص ٢٣٥

(٤) الموزعى - الاحسان فى دخول اليمن تحت ظل عدالة آل عثمان ص ٧٦

وصوله إليه ، ولذلك « فلا ينبغى المبادرة إلى الهدنة إلا بعد معرفة أحوال البلاد »[1]
أما صلح جعفر فهو كما هو « لا ينقضه ناقض » وكان رفض محمد باشا هذا الاقتراح بداية النهضة الرابعة والأخيرة من مراحل دعوة الامام القاسم ، فقد انتهت مدة صلح سنة ١٠٢٥ هـ ـ ١٦١٦ م فى شهر جمادى الأولى سنة ١٠٢٦ هـ ـ ١٦١٧ م ٠
واستمرت الحروب بين الامام القاسم والباشا محمد ، وكان أولها فى بلاد حُضُور ، فوجه محمد باشا الأمير (تكريم) بجنده إلى هناك ، وكان قائد الامام الشيخ عبدالله بن سعيد الطير قائد أهل الحَيْمَة وقتل جماعة من الفريقين ، ثم جرت بعد ذلك حروب كثيرة فى مسور وبنى مطر وحروب فى منطقة القذف[2] ٠ أيضا انجلت تلك المعارك عن قتل الشيخ عبدالله الطير[3] ٠ واستطاع محمد باشا أن يأخذ تلك الجهات من الامام ٠

وفى الثالث عشر من شهر شعبان سنة ١٠٢٦ هـ ـ ١٦١٧ م وقعت حروب فى بنى حيس وقُدم وجنب ، استطاع أصحاب الامام الانتصار على قوات العثمانيين ، كما استطاع أصحاب الامام دخول حَجة ، ثم فتحوا بلاد قُراضَة ولاعة ومسور فى ٢٨ القعدة سنة ١٠٢٦ هـ ، وفى شهر جمادى الثانية سنة ١٠٢٧ هـ ـ ١٦١٧ م وقعت موقعة بنى علىّ وانتصر أصحاب الامام فيها بعد أن قتل منهم ستة رجال[4] ، ووقعت غيرها من الحروب التى أنهكت كلا الفريقين ، فما كان من الباشا محمد الا أنه أرسل باستدعاء الأمير صفر من الآستانة لمعاونته فى تلك الحروب ، فوصل فى شهر ذى الحجة سنة ١٠٢٧ هـ ـ ١٦١٧ م ٠

والحقيقة أن الحروب بين الفريقين كانت سجالا ، وكان محمد باشا يأمل فى أن يحرز نصرا حاسما أمام قوات الإمام القاسم ليرفع من شأنه لدى السلطان العثمانى ، وخاصة أنه كان يقول : إنه أدرى الناس بأحوال اليمن ، لانه كان على اطلاع مستمر بأحواله من واقع تقارير ورسائل ولاته ، وقد اغتر محمد باشا بمعلوماته النظرية عن أوضاع اليمن وأصر على شن الحروب على الإمام ، إلا أن واقع اليمن خيب آماله ، فقد خاض

---

(١) يحيى بن الحسين ـ أنباء أبناء الزمن فى تاريخ اليمن ص ١٥٥
(٢) القذف ـ منطقة غرب صنعاء ، وهى جزء من بلاد بنى شهاب ٠
(٣) الكبسى ـ اللطائف السنية ص ١٣٠
(٤) الشرقى ـ اللآلىء المضيئة ص ٢٥٣

غمار الحروب لمدة ثلاث سنوات متواصلة ، ولم يستطع أن يحرز انتصارا يذكر ، بل على العكس من ذلك تمكن الإمام خلال هذه السنوات أن يوسع ممتلكاته فى المنطقة الشمالية على حساب العثمانيين ، لذا نجد أن محمد باشا قد عاد ووافق على الصلح الذى طلبه منه الإمام قبل ذلك .

أرسل الأمير مصطفى ـ عامل محمد باشا على خمر ـ إلى محمد باشا يبلغه بأن الإمام يطلب الصلح منه لأن الفتنة قد طالت ، فجمع محمد باشا الأمراء والأعيان ، وطلب منهم المشورة فى هذا الصلح . وشرح لهم وضع البلاد وحال العسكر وتمردهم رغم كثرتهم وزيادة العطاء لهم ، فردوا عليه بقولهم : « الحركة على الإمام فى هذا الوقت ليس فيها صلاح ، ولا استمرار ، غيرُ بذل الأموال وذهاب الأرواح وترك كل شىء هو الرأى الصائب ، اذ أن الإمام القاسم ليس كما كان فى السابق ، وكذلك القبائل فقد عظمت شوكتهم وظهرت قوتهم وكثر معهم السلاح .. مع إقبال القبائل على الإمام ، لأن الإمام لا يأخذ منهم مالا ، ولا يعرض عن سؤال ، ولا يقبض منهم إلا الذى يطابق هواهم ، والعسكر الموجود ليس فيهم من عساكر الأروام الذين عرفوا بالاقدام ومارسوا الحروب غير شرذمة يسيرة »[1] ، ووافقوا جميعا على عقد الصلح ، فظهرت الأمور واضحة أمام الباشا محمد ، وأجاب الأمير مصطفى إلى ذلك ، كما وصل إلى الباشا الأمير على بن الشويع يطلب الأمان للسيد عبدالله بن شمس الدين بن جحاف للوصول لعقد الصلح ، فأعطاه محمد باشا الأمان وقابله بالاكرام ، وتم إبرام الصلح فى شهر جمادى الأولى سنة ١٠٢٨ هـ ـ ١٩١٩ م . لمدة عشر سنوات ، على أن يكون للامام جميع ما تحت يده من البلاد ، وإخراج الأسرى من الجانبين ، ماعدا الحسن ابن الإمام ، فقد اعتذر الباشا عن اطلاقه ، لأن جعفر باشا رفع أمره للسلطان ، فلا يمكن اطلاقه الا بإذن منه ،[2] لكن محمد باشا أبدى استعداده لاطلاق سراح الحسن ابن الإمام اذا ترك الإمام البلاد التى كانت تحت يده أيام صلح جعفر باشا ، ويقصد بها بلاد القذف من بنى شهاب غرب صنعاء نظرا لقربها من صنعاء وكثرة خيراتها بالنسبة

---

(١) يحيى بن الحسين ـ أنباء أبناء الزمن فى تاريخ اليمن ص ١٥١

(٢) الكبسى ـ اللطائف السنية ص ١٣٠

للباشا[1] . فلم يرض الإمام بذلك لما فى ذلك من المصلحة لأهل البلاد ، وفضل بقاء ولده أسيرا على تسليم تلك البلاد للعثمانيين ، فلم يكن من محمد باشا إلا أن فك قيود الحسن ، وأخلى له الطبقة العلوية من الدار الحمراء ، ولم يمنع من أراد الدخول عليه ، لاسترضاء الإمام . أما البلاد التى وقع عليها الصلح فهى بلاد غريان ، وغشم ، وبنى مالك من وادعة ، وبنى غشيمة من وادعة أيضا ، وبلاد بنى قيس ، وبنى صريم ، ومرهبة وبنى جبر ، وبلاد بنى زهير إلى حدود بنى جرموز ، وإلى حدود بلاد نهم وما ولاها إلى جهة الشمال ، وجهات شطب ، والموسم ، وبلاد عفار وجبل نيسا ، والظفير ، والشرفين ، وجزء من بلاد الحيمة ، وحراز وبلاد الظاهر وذئبان وعيال عبدالله ، وعيال أسد ، ظُليمة ، والأهنوم ، وعذر والعُصيات ، وبنى سفيان وخيوان ، وعيان وجهات صعدة وجبل رازح فهى كلها للامام . أما بلاد الكلبين وخمر فهى للعثمانيين ،[2] وبعد تمام الصلح شرع كلا الفريقين فى تنفيذ شروطه ، فانتقل الإمام من وادعة إلى شهارة ، ووصل الأسرى من صنعاء وكوكبان من أصحاب الإمام إلى شهارة ، وهم أكثر من مائتين وأربعين رجلا ، كما أطلق الإمام ما عنده من أسرى ، بعد أن كساهم كلهم وزودهم بالمال والزاد ، وكانوا فوق الأربعمائة ، ثم انسحب جميع جنود العثمانيين من بلاد الإمام إلى صنعاء[3] ، وبذلك تم الصلح على أحسن حال ، ووقف القتال بين الفريقين وهدأت الأحوال .

والحقيقة أن عقد الصلح كان فى مصلحة الطرفين : الإمام القاسم ومحمد باشا . لاضطراب البلاد ، وليستطيع كل منهما تنظيم شؤونه داخل أقاليمه ، فالإمام القاسم كان فى أمس الحاجة إلى هذا الصلح لتعرض بلاده للقحط وانقطاع الأمطار مدة طويلة ، وتعرض البلاد إلى شدائد الجوع والغلاء ، مما كان سببا فى اضطراب أهل البلاد وهجرتهم من بلادهم ، حتى إن البعض منهم هاجر إلى الحبشة سعيا وراء الرزق ، وكان البعض يموت جوعا و(اشتد عليهم الضرر وعظم ، ثم عقبه الموت العام

---

(1) الشرفى ـ اللآلىء المضيئة ص ٢٤٣

(2) نفس المصدر

(3) الجرموزى ـ النبذة المشيرة ص ٢٦٢



البلاد التابعة للإمام القاسم تبعاً لصلح سنة ١٠٢٨هـ
(صُلح سنة ١٠٢٨هـ بين الإمام القاسم ومحمد باشا)

فيهم ، حتى تعطلت القرى عن سكانها ، وخلت المساكن عن قطانها ، فكان يموت أهل القرية جميعهم .. فلا يجدون من يتولى دفنهم ، وهرب أكثرهم من الموت من بلد إلى بلد ، فأدركهم الموت إلى حيث هم)[1] ، هذا من جانب ، ومن جانب آخر كانت أكثر البلاد التى عمها القحط مثل خولان العليا تنقض عهدها مع الإمام ، وأصحبت تستهزىء به ، لأن العثمانيين كانوا يبذلون لهم الأموال الكثيرة مقابل تخليهم عن الإمام ، وهم فى ذلك الوقت فى أشد الحاجة إلى تلك الأموال نظرا لظروف البلاد التى تعانيها من الجدب والقحط والغلاء ، وكان أول من نقض عهد الإمام وطاعته بنو سّهام ثم بنو شداد ، وحاول العثمانيون إشعال الفتنة بين القبائل باثارة النعرة القبلية بينهم ، فاضطربت البلاد على الإمام ، بالاضافة إلى أن العثمانيين لما اشتدت عليهم الحروب ، واضطربت الأحوال ، حاولوا قتل الإمام القاسم ، ليستريحوا من هذه الفتنة ، بأن وضعوا له البارود تحت وسادته ، لكنه نجا من القتل واكتشف هذه المؤامرة ،[2] كما أن الإمام خاف على بلاده وأولاده بعد موته ، فان ترك البلاد على هذه الحال ، وهى مشتعلة بالحروب وقد عمها القحط ، ووهن أتباعه وضعفوا ، ولا يستطيعون مناهضة العثمانيين ، ويُقضى عليهم كما فُعل بأولاد المطهر ، وقد نقل الجرموزى حديثاً عن الإمام القاسم مما يبين أسباب موافقته على الصلح وطلبه قائلا : « قلت للامام أراك تبذل الرغائب فى الصلح ، وقد عالجوك فيه مع وصول محمد باشا فلم ترض ، والآن تطلبه . فقال الإمام : الأولى انى رأيت أن أختم عمرى بالجهاد وبتنغيص دنيا الظالمين (يقصد العثمانيين) ورأيت الأمر تفاقم ، وظننت قرب أجلى ، خفت أن يحدث الموت بى وأمور الاسلام على ماترى فلا يتمكن أهله من النصر ويحصل فى الاسلام ما يحصل ، فرأيت المسارعة حتى ينتزح الأتراك عنا وفرج الله »[3] .

أما من ناحية محمد باشا فقد كان فى حاجة أيضا لعقد الصلح اذ أن جنوده قد ضجروا ، وطلبوا رفع مرتباتهم ، وحدث بينهم اضطراب ، حتى إنهم هموا بقتله وأخذوا

---

(١) الموزعى ـ الاحسان فى دخول اليمن تحت ظل عدالة آل عثمان ص ٧٧

(٢) الجرموزى ـ النبذة المشيرة ص ٢٥٩

(٣) الجرموزى ـ النبذة المشيرة ص ٢٦١

منه أمولا كثيرة ، فان أكثر هؤلاء الجنود ليسوا من فرق الانكشارية الذين عرفوا بالاقدام ومارسوا الحروب ، بل كان أكثرهم من أهالى مصر الذين يجمعهم واليها من الفلاحين وقطاع الطرق عندما تطلب منه النجدة ،[1] بالاضافة إلى اضطراب الأحوال فى المنطقة الجنوبية مثل اقليم ريمة ووصاب وعتمة فهى بلاد جبلية وعرة تقوم فيها كثيرا الاضطرابات التى تقلق الدولة ، وكذلك الحال بالنسبة لأقليم الحجرية اذ تمرد حاكمها اليمنى الأمير على الشرجبى[2] على طاعة الوالى العثمانى ، وكان أحد شيوخ هذه المنطقة ، وكان جعفر باشا قد قربه إليه ومنحه لقب أغا ، ثم رقاه بعد قليل إلى رتبة السنجق[3] ، وقد اتسعت هذه الاضطرابات فى إقليم الحجرية إلى حد كبير خاصة أن الشرجبى قطع طريق عدن إلى تعز ، وطريق المخا من طريق مُوزع وعظم أمره ، وقد وجهوا إليه كثيرا من الأمراء لحربه فهزمهم وقتلهم ، واستفحل أمره حتى قلت المؤن على العثمانيين واضطربت أحوال عسكرهم وقد فشل كذلك محمد باشا فى حل النزاع القائم بين الأمير على الشرجبى وأحد جيرانه[4] ، واستمرت الحروب باقليم الحجرية حوالى عامين ، لم يستطع محمد باشا اخمادها الا بعد وصول الأمير صفر مددا له فى سنة ١٠٢٨ هـ ١٦١٩ م ، كما سبقت الاشارة إلى ذلك ، فذهب الأمير صفر إلى إقليم الحجرية على رأس قوة من الجند قدرها أربعمائة جندى .[5] .

كما وجد محمد باشا أن الأقاليم التى تحت يد الإمام جبلية وفقيرة وخراجها قليل ، والاحتفاظ بها يكلف الكثير ، فلا يتحصل منها على نصف المنفق عليها[6] .

لكل هذه الأسباب مجتمعة سواء من جهة الإمام القاسم أو من جهة محمد باشا فقد كان كل منهما يحبذ الصلح . ومن ثم كانت الموافقة عليه وكان كل منهما حريصاً على بقائه لحاجته إليه ، لكن هذا الصلح لم يكن يخفى حقيقة هامة هى ظهور ضعف

---

(١) يحيى بن الحسين ـ أنباء أبناء الزمن فى تاريخ اليمن ص ١٦٦

(٢) الشرجبى ـ نسبة لأقليم شرجب بالحجرية .

(٣) الموزعى ـ الاحسان فى دخول اليمن تحت ظل عدالة آل عثمان ص ٥١

(٤) الجرموزى ـ النبذة المشيرة ص ٢٦١

(٥) يحيى بن الحسين ـ أنباء ابناء الزمن فى تاريخ اليمن ص ١٥٧

(٦) عيسى بن لطف الله ـ روح الروح جـ ٢ ص ٩٩

الحكم العثمانى فى اليمن وخلخلة نظمه ، بالاضافة إلى أنه أخفى الفشل العسكرى الذى منيت به القوات العثمانية أمام المقاومة اليمنية ، كما أنه يرمز إلى ظهور قوة الإمام القاسم رغم شدة ظروف البلاد فى الأيام الأخيرة . ويظهر ذلك فى قول أصحاب محمد باشا عندما استشارهم فى عقد الصلح « فان الإمام القاسم ليس كما كان فى السابق ، وكذلك أصحابه ليسوا الآن كما كانوا فى ماضى الزمان ، بل صاروا أهل سلاح وعدة »[1] ، لذا نجدهم عند لقاء الإمام خاصة فى الأيام الأخيرة يحسبون له حسابا ، ومما يظهر ضعف نظم الدولة وخلخلة أوضاع العثمانيين فى اليمن حينذاك قول محمد باشا عند رحيله من اليمن « كنت أعتمد على دفاترى وحفظى من أخبار اليمن ، وأقول ليس أحد أعرف منى بأحوال اليمن ، وأعترف الآن أنى دخلت اليمن وخرجت منه ولا عرفت ولا حققت قدر أنملة »[2] .

وهكذا انتهت المراحل الأربع من نهضات الإمام القاسم والتى وضعت الأسس الأولى للدولة القاسمية الزيدية فى اليمن على يده ثم أيدى أولاده الذين استطاعوا إخراج العثمانيين للمرة الأولى من اليمن فى العشر الأوائل من شهر جمادى الأولى سنة ١٠٤٥ هـ ـ ١٦٣٥ م .

بعد عقد الصلح بسنة توفى الإمام القاسم بن محمد فى ليلة الثلاثاء الثانى عشر من ربيع الأول سنة ١٠٢٩ هـ ـ ١٦٢٠ م فى حصن شهارة[3] . ولم يكتم امر موته بل عرفه العامة والخاصة ، وكان سبب وفاته الحمى الحارة ، وكان قبل وفاته يشتد به ألم فى بطنه ، فكان يقعده عن الخروج من بيته ، حتى إنه ترك صلاة الجمعة أحيانا ، وطال به المرض ثلاثة عشر يوما ثم توفى ، وقبل وفاته أرسل إلى الفقهاء من خارج شهارة ومن داخلها[4] .

بعد وفاة الإمام القاسم اجتمع الأعيان والفقهاء الزيدية وتشاوروا فيما بينهم لمبايعة إمام جديد يجمعون عليه ، واتفقوا على مبايعة محمد ولد الإمام ، وكان محمد بن القاسم

---

(١) يحيى بن الحسين ـ أنباء أبناء الزمن فى تاريخ اليمن ص ١٥٨

(٢) الموزعى ـ الاحسان فى دخول اليمن تحت ظل عدالة آل عثمان ص ٧٤

(٣) الشوكانى ـ البدر الطالع جـ ٢ ص ٥٠ ، ٥١

(٤) الجرموزى ـ النبذة المشيرة ص ٢٧٠

فى ذلك الوقت مشغولا بتجهيز والده ، فطلبوه وأخاه الحسين ، وأعلموهما بأمر اجتماعهم فقال محمد : « يختار الفقهاء والسادة من يصلح من آل الرسول ، وأنا أول من يبايع وأقوم بمعاونته ، وأسلم ما لدى من بيوت الأموال إليه ، وان يده مع أيديهم »[1] ، ولكنهم أبوا الاّ قيامه بأمر الإمامة من بعد والده ، وأنه لايجوز له رفضها ، فقبلها مظهرا أنه كاره لها ، وقام السادة العلماء والفقهاء بمبايعة محمد فى تلك اللحظة ، ولقب بالمؤيد ، وبايعه أكثر من فى شهارة بيعة رضى ورغبة ، وكان الاتفاق ، ثم الاجماع على مبايعة الإمام المؤيد من العوامل الهامة التى أدت إلى استمرار وحدة القوى الزيدية ، وتماسكها أثناء حروبها فيما بعد مع العثمانيين ، مما حقق لها فى النهاية الانتصار عليهم ، وذلك على عكس ما حدث بعد وفاة الإمام المطهر ، اذ تنازع أبناؤه فيما بينهم على السلطة وكان مصيرهم الهزيمة والضعف ثم نفيهم إلى الآستانة .

وفى أثناء مبايعة الإمام المؤيد ، أمر المؤيد القاضيين يحيى بن محمد بن صلاح الأهنومى ، ويحيى بن صلاح الثلائى وغيرهما بغسل والده وتجهيزه ، ثم دفنه ولده المؤيد قبيل الفجر فى مسجد شهارة ، وأم المؤيد الناس للصلاة عليه ، وقد أجمع الفقهاء الزيدية على إقامة قبة فوق قبره ، رغم أن الإمام القاسم يكره ذلك ، وأمر الناس الا يعمروا القباب فوق موتاهم ، لأنه يرى أن هذه العادة بدعة ، وكان يقول لأصحابه: « لا بارك الله لمن عَمر عليه أو عين لنفسه مشهدا »[2] وقد نحرت العقائر وتصدق بها فى جميع البلاد وعلى أهل العلم وحفظة القرآن ، وقرىء القرآن على قبره عدة أشهر ، وحزن عليه الجميع ، وقيل فى رثائه الكثير ، ومن ذلك ما قاله القاضى على بن الحسين المسورى :

من الآن فلنبك العُلى والفضائل	ويهمل الا ذكرهن الفواضل
سلام على الدنيا سلام مودع	فقد أوحشت فيها علينا المنازل
وأظلمت الآفاق طرا وأكدرت	علينا لداهى الخطب فيها المناهل[3]

(١) الشرفى ـ اللآلىء المضيئة ص ٢٥٨

(٢) الشرفى ـ اللآلىء المضيئة ص ٢٥٨

(٣) الجرموزى ـ النبذة المشيرة ص ٢٧٧

وبعد أن تمت البيعة للمؤيد ، أرسل بكتاب إلى محمد باشا فى صنعاء أخبره بوفاة والده وأنه القائم بأمر الإمامة من بعده ، وأنه باق على الصلح الذى عقده مع والده « لا ينقضه ناقض » وأهدى إليه نسخة من كتاب الكشاف ،[1] وكانت نسخة عظيمة ، ورد محمد باشا على المؤيد بالموافقة على استمرار الصلح بكتاب هذا نصه :

« بسم الله الرحمن الرحيم ·· لقد كان لكم فى رسول الله أسوة حسنة ، وقدوة مستحسنة ، طريق سلكه سيد المرسلين وحبيب رب العالمين ، لله الحمد ، ما قضى وقدر وأمضى ، كل نفس ذائقة الموت ، وكل انسان وان طال عمره إلى الفوت ، انا لله وانا اليه راجعون وصائرون ومنقلبون ، فيعزى ولدنا المقام الأكمل الأعلم الافضل متبع الفضائل عمدة الافاضل مالك أزمة المفاخر والمعارف الجسيمة محمد بن القاسم ابن محمد ، منحه الله صبرا وكتب له أجرا بوالده الإمام العالم الأطول الأعلم الأفضل يغشاه الله برحمته ورضوانه واسكنه بحبوح جنته باحسانه وجعل نزله فى عليّين ·· والحمد لله الذى جعلكم القائمين من بعده ، والشادين شده لما اختاره الله من الخير من عنده ، وقيامكم بالأمر بعد استخارة الله سبحانه ، ومواطأة من العلماء الأخيار والقضاة الأطهار ، فانهم ان شاء الله لذلك أهل ولما وقع من اختياركم موضع ومحل ، تولى الله عونكم ورزقكم الصبر ، وكتب لكم على فراقه الأجر ·· وأنتم بمقامه أحق وإليه أسبق ، وذكرتم ان الذى بيننا وبين والدكم رحمه الله من العهود والمواثيق ثابت أساسها ، محكمة أمراسها زاد الله أساسها ومراسها ثباتا وامراسا وقوة ، كما هى الارادة المرجوة ونحن ان شاء الله على ذلك ما يبدو منا أمر مظهر فيه اختلال ، ولا يكون منا للموضوعات بقواعدها وعقودها انحلال ، بل انا لكم كما أنتم لنا وما هو الموجود عندكم هو كذلك عندنا والألفة الصافية الخالصة الوافية ، كماهى ما يغير تلك القواعد مغير ولا يكدرها مكدر ، ونحن لكم فى أمر الخير مساعدون ، وطرق مرضات الله معاضدون ، والله يختار لنا ولكم الخير ،ويأخذ بنواصينا إليه ويرشدنا ، ونحن دلائلنا عليه ، وحسبى

(١) الكشاف ـ كتاب فى علم التفسير واسمه الكشاف فى حقائق التنزيل ، للعلامة أبى القاسم جارالله محمود ابن عمر الزمخشرى الخوارزمى المتوفى سنة ٥٢٨ هـ (كشف الظنون جـ ٢ ص ١٤٧٥)

الله وكفى . تاريخ سابع عشر شهر ربيع الأول سنة ١٠٢٩ هـ بمحروس صنعاء »[١] .

ومن هذا الخطاب يتضح لنا مدى محاولة الباشا محمد استمالة الإمام المؤيد ومدى تمسكه بالصلح معه ، مما يوضح اضطراب الأحوال وخلخلة الأوضاع بالنسبة للعثمانيين ، ومدى قوة الدولة الزيدية وتماسكها .

وتميزت بداية عهد الإمام المؤيد بالهدوء والاستقرار ، لاتفاقه مع محمد باشا ، وأدى هذا الى إستمرار الهدوء النسبى فى اليمن حوالى ثمانى سنوات ، اذ لم تتجدد الحروب الا فى محرم سنة ١٠٣٦ هـ ـ ١٦٢٦ م حيث نقض الصلح قبل استكمال مدته بسنتين ، وكان السبب المباشر لنقض الصلح واعلان الحرب ضد العثمانيين ، هو أن حيدر باشا كان قد قتل فى رمضان سنة ١٠٣٥ هـ ١٦٢٥ م أحد الفقهاء من كبار أتباع الإمام المؤيد أثناء زيارته لصنعاء لقضاء بعض حاجياته[٢] وذلك لاتهامه بأنه كان يدعو الأهالى إلى مبايعة الإمام ، وقد طالت المكاتبات بين الإمام المؤيد وحيدر باشا حول تسليم قاتل الفقيه إلى الإمام لمعاقبته ، أو لدفع دية القتيل ، لكن هذه المكاتبات لم تنته إلى شيء . وكان يشجع الإمام المؤيد على إعلان الحرب على العثمانيين أن كثيرا من رؤساء وشيوخ المناطق الشمالية وغيرها كانوا يراسلون الإمام سرا لتأييده ، ولمطالبته بالهجوم على العثمانيين ، بل وكانوا يرسلون أبناءهم إليه رهينة لديه لتأكيد الولاء له . وقد أدى هذا إلى إشعال نيران الحروب فى اليمن[٣] ، وخلال الفترة مابين عقد الصلح ونقضه فى سنة ١٠٣٦ هـ تحقق تغير واضح فى ميزان القوى ، بين الزيديين والعثمانيين بالاضافة إلى أنها آخر فترات الهدوء التى سادت اليمن قبل خروج العثمانيين من اليمن .

---

(١) الكبسى ـ اللطائف السنية ص ١٣٠ ، ١٣١ الشرفى اللآلىء المضيئة ص ٢٥٩

(٢) تاريخ دولة الترك ص ٣١ (المؤلف مجهول)

(٣) يحيى بن الحسين ـ أنباء أبناء الزمن فى تاريخ اليمن ص ١٦٢

الفصل الخامس

الخلل في الاستانة

أ - نظرة عامة في أهم النظم العثمانية

ب - الخلل في الآستانة وأثره على اليمن

ج - التوازن بين الإمامة والولاية

شيد العثمانيون دولتهم على أسس سليمة من القوة والتعاون النـادر ، والنظـم الراقية ، التى مكنتهم من قهر أضخم القوى فى العالم المعروف كله ، ولا يمكن الحكم على مدى هذه الأسس بدراسة نظم حكمهم فى الأماكن النائية كاليمن ، فان أى نظام يخرج عن ميدانه الحيوى لابد أن يتعرض للفساد والافساد ، أو التطور على أى شكل كان ، ولكن إذا تطرق الخلل إلى تلك النظم فى عاصمة الدولة ، فان ذلك لابد أن ينعكس بطريقة أو بأخرى على البلاد المحكومة .

والحق أن ظهور العثمانيين على مسرح التاريخ كان أشبه بمعجزة ، اذ تميز نمو الدولة بالسرعة الخارقة ، فلم يمض وقت طويل حتى سيطرت على الشؤون العالمية ومصير الانسانية ، وكانت فى انتشارها فى آسيا ، وأوروبا وأفريقيا أشبه بمحيط ملىء بالعلوم والنظم والديانات المختلفة ، ولعل هذا هو السبب فى أن الدولة لم تجد فسحة زمنية لدراسة الفرعيات من هذه الأصول ، وتفهمها أو تذوقها ، كما حدث بالنسبة للزيدية فى الجنوب الغربى من شبه الجزيرة العربية ، ومن ثم كان لطبيعة الدولة نفسها دخل كبير فى تشكيل نظم الحكم فيها ، فالدولة العثمانية كانت قبل كل شىء آخر كأنها جيش قائم ، وقد ظل العثمانيون محتفظين ببعض ما كان للأتراك الرعاة من خصال خاصة ، أخصها أنهم ولدوا للحرب والفتح ، وكان الجهاد هو أول شىء فى الدولة ، وكانت نظم الحكم لنفس هذا الغرض ، ولكن بمرور الزمن وخاصة بعد فتح القسطنطينية بدأت الدولة تتجه للعناية بالنظم الإدارية ، وفى أيام سليمان الأول اتحد هذان الشيئان ، وسارا جنبا إلى جنب ، بيد أن طبيعة الدولة الحربية ظلت هى الغالبة .

كانت مهمة الجيش فتح البلاد ، ثم الحكم ، وبدأت المهمة الأولى تحتل مكان الصدارة منذ عهد السلطان محمد الفاتح ، ومع ذلك فالمهمتان ارتبطتا ببعض أشد الارتباط ، فكانت الحرب تحرك معها الحكومة بأسرها إلى جبهة القتال ، وفى أغلب الأحيان كان كبار موظفى الدولة هم فى نفس الوقت قواد الجيش ، وكانت أهم قوات الجيش الوحدات النظامية ، وهذه كانت تنقسم إلى الانكشارية وهم من المشاة والسباهية وهم الفرسان أو الخيالة ، وكان إلى جانبها وحدات خاصة بالمدفعية وهم طوبجيلر ، بالاضافة إلى بعض الوحدات غير النظامية ، وكانت أهم هذه الفرق توضع فى مقدمة الجيش لتحمل الصدمة الأولى من ضربات العدو ، كما كانت الدولة تستخدمهم فى العمليات الانتحارية والعمليات الشاقة عند اقتحام المواقع المنيعة ، أو فك الحصار ، فهم يعتبرون أخطر وحدات الجيش ، نظرا لبراعتهم فى القتال[١] .

وكانت الخيالة تنقسم إلى فرق السباهية ، وهى أهم الفرق ، ثم السلحدار وتليها فرقة العلوفة جى ، ثم فرقة الغرباء ، وهذه الفرق غير النظامية فرق احتياطية لم يكن لها مرتبات معلومة ، وإنما كانت معيشة أفرادها على ما يغنمونه من ساحة الحرب ، ولم يكن لدى العثمانيين خيل عربية ، وانما بغال ، وأكاديش وخيل شبه الكدش ، وقد أجاد العثمانيون استخدام المدفعية ، وكانت المدفعية العثمانية من القوة بحيث كان الواحد منها يقذف بكتلة الحجر التى تقرب من القنطار ، ومما يدل على جودة صبها وصنعها أنها نقلت إلى أسوار المحيط الهندى عن طريق السويس[٢] .

عرف عن القوة المحاربة العثمانية بسالة أفرادها ، والطاعة والنظام ، ونظافة المعسكرات ، واحتمال المصاعب ، والرغبة فى الحرب وضبط النفس وقت الشدة ، وإلى جانب هذه المميزات كانت هذه القوة من الناحية العامة تتميز بالوحدة ، وتظهر هذه الوحدة بشكل واضح فى القيادة ، بمعنى أن قائد القوة المحاربة هو السلطان ولا قائد غيره ، وهو الذى يقود الجيش فتلتف حوله الهيئة الحاكمة ، ويلتف حوله كذلك الانكشارية والسباهية ، وتظهر هذه الوحدة أيضا فى أن الجيش العثمانى بهذا الوضع

---

(١) الشناوى ـ اوربا فى مطلع العصور الحديثة جـ ١ ص ٥٣٠

(٢) البحراوى ـ فتح العثمانيين عدن ص ١٩٤

كان غير قابل للتجزئة ، لا فى القيادة ولا فى صفوفه ، أى ليس للدولة العثمانية غير جيش واحد ، وكان لهذا عيبه حين اتسعت فتوحات الدولة ، اذ كان معنى انشغال السلطان العثمانى مثلا فى الجبهة الشرقية أمام فارس ، أن الجبهة الغربية خالية من جيش رئيسى لمواجهة النمسا مثلا ، كما أثبت العثمانيون جدارة فائقة فى اقامة الاستحكامات والهندسة البحرية وكذلك عرفوا نظام الجاسوسية •

أما الأسطول البحرى ، فقد اعتنت به الدولة من عصر يزيد الثانى ، وفى عهد السلطان سليم الأول خطت البحرية خطوات واسعة ، نظرا لامتداد الدولة وإشرافها على البحرين الأبيض والأحمر ، مما زادها عددا ونشاطا ، ولكن التقدم فى البحرية العثمانية لم يسر جنبا إلى جنب مع اتساع الدولة ، ولا مع تقدم القوات البرية ، ومع أن الدولة أحرزت انتصارات حاسمة فى البر ، فان الأمر لم يكن كذلك فى البحر ، ومع أنه كان قد مضى على فتح القسطنطينية وقت طويل ، فان العثمانيين لم يفكروا فى بناء ترسانة فى استانبول الا فى سنة ١٥١٨ م حينما بدأوا فى انشائها على أنقاض ترسانة البيزنطيين ،[١] وإلى ذلك يعزى جزء كبير من فشل العثمانيين فى تحقيق مشروعاتهم فى المحيط الهندى وخليج فارس ، ومن ثم لم تتحقق الأغراض التى من أجلها فتحوا اليمن ، وقد امتدت السيطرة العثمانية إلى اليمن فى الوقت التى بلغت فيه الدولة أوج قوتها ومجدها ، ومعنى ذلك أن الدولة حينئذ كانت قادرة على دعم سيطرتها فى اليمن ، وعلى مدّ ولاتها هناك بما يحتاجونه من جنود ومعدات •

ويتأكد هذا إذا عرفنا أن الدولة العثمانية كانت تمتد من المجر غربا إلى حدود فارس شرقا ، ومن شمالى البحر الأسود شمالا إلى عدن جنوبا ، وأن البحرين الأسود والأحمر قد أصبحا بحيرتين عثمانيتين ، كما أصبح للأسطول العثمانى السيادة العليا فى البحر المتوسط ، وكان الجيش العثمانى حينذاك يفوق كثيرا الجيوش الأوربية من ناحية نظامه وتجهيزاته وذلك بالرغم من الاصلاحات التى أدخلت على تلك الجيوش فى ذلك الوقت ،[٢] وحين كان السلطان سليمان القانونى سنة ١٥٢٠ ـ ١٥٦٦ م ٩٢٦ ـ

---

(١) البحراوى ـ فتح العثمانيين عدن ص ١٩٥

(٢) السيد مصطفى سالم ـ الفتح العثمانى الاول لليمن ص ١٥٥

٩٧٤ هـ على رأس الدولة العثمانية بلغت الدولة أوج عظمتها ، بفضل ما تميز به هذا السلطان من صفات جعلت معاصريه يطلقون عليه لقب الكبير أو العظيم .

وبلغت الدولة العثمانية حينئذ شأوا بعيدا فى التنظيم العسكرى فى القرن السادس عشر الميلادى ، لكن بعد عهد السلاطين العظماء أخذ الخلل يتطرق إلى نظم الدولة ، ومن بينها النظام العسكرى ، مما جعله ينعكس على جميع ولاياتها ومنها ولاية اليمن ، ففى أواخر القرن السادس عشر وأوائل القرن السابع عشر الميلادى أخذ الضعف يستشرى إلى فرق الانكشارية ، الذين كانوا أساس قوة الدولة وسبب عظمتها ، ثم صاروا سببا فى توقفها وضعفها ، وخاصة حين اعتكف السلاطين فى السراى ، وأدى ذلك إلى ضعف الروح والنظام العسكرى [١] وكانت الدولة قد سمحت لأفراد فرق الانكشارية بالزواج والاقامة خارج ثكناتهم ،[٢] وكان من نتائج هذا الاجراء أن أصبح الانتماء إلى فرق الانكشارية وراثيا دون اعتبار للكفاءة العسكرية ، وقد حدث أن أدخل السلطان مراد الثالث ١٥٧٤ ـ ١٥٩٦ م فى فرق الانكشارية الأفراد الذين أسهموا فى المحافظة على النظام فى الاحتفالات التى كان يقيمها ، مما جعل ضمن فرق الانكشارية أخلاطا من العامة والسوقة[٣] وقد نجم عن فتح باب الالتحاق بفرق الانكشارية أن زاد عددهم زيادة ضخمة بحيث أصبحوا عبئا ماليا على خزانة الدولة ، هذا الفساد الذى استشرى بين أفراد فرق الانكشارية انتقل إلى سائر فرق الجيش ، ودب الحقد فى نفوس أفراد فرق السباهية بوجه خاص ، وقد هالتهم المنح والامتيازات التى أغدقت على الانكشارية ، وأخذوا كلما سنحت لهم الفرصة يمارسون أعمال السلب والنهب ، وإشعال الحرائق فى استانبول ، وكأنها غدت مدينة معادية فتحت عنوة وتستباح فيها أعمال العنف[٤] ، وبعد ذلك أصبحت الحكومة ألعوبة فى أيدى الانكشارية ، وكان هؤلاء يمارسون نشاطات إجرامية فى أوقات السلم ، ويشاركون فى

(١) د. محمد البحراوى ـ حركة الاصلاح ص ٨٢

(٢) محمد فريد ـ الدولة العلية ص ١٠٨

(٣) الشناوى ـ أوربا فى مطلع العصور الحديثة جـ ١ ص ٧٥٥

(٤) الشناوى ـ اوربا فى مطلع العصور الحديثة جـ ١ ص ٧٥٧

خلع السلاطين طمعا فى زيادة العطايا ، وتاريخ الدولة حافل بمثل هذه الأحداث منذ مطلع القرن السابع عشر الميلادى ، فالسلطان مصطفى الأول ١٦١٧ ـ ١٦١٨ م خلع بعد ثلاثة أشهر فقط من توليته ، وولى مكانه ابن أخيه السلطان عثمان الثانى سنة ١٦١٨ ـ ١٦٢٢ م ، وهذا أيضا عزلته الانكشارية سنة ١٠٣١ هـ ـ ١٦٢٢ م عندما أحسوا أنه يحاول القضاء عليهم بسبب إصرارهم على الراحة والكسل ، مما ألزمه عقد الصلح مع بولونيا سنة ١٠٢٩ هـ ـ ١٦٢٠ م وأعادوا مكانه السلطان مصطفى الأول ، ولم يكتفوا بعزله بل هجموا عليه فى قصره وقادوه قهرا إلى ثكناتهم ، وأهانوه ثم نفوه إلى القلعة المعروفة فى استانبول باسم يَدْىَ قُله ، ثم أعدموه هناك ، وكان هذا أول سلطان يقتل بيد رعاياه ،[١] ولم يمكث السلطان مصطفى الأول الذى أعيد إلى الحكم ثانية إلا عاماً واحدا ، ثم عزل وعين بدلا منه السلطان مراد الرابع الذى لم يتجاوز الثالثة عشرة من عمره ، والذى فى عهده انفصلت اليمن عن السيادة العثمانية ، رغم ما قام به من جهود لارجاع مجد أجداده ، واصلاح الخلل الذى أصاب دولته ، لكن هذه الجهود التى بذلها السلطان مراد الرابع فى إصلاح شؤون دولته ، والحروب التى قام بها فى المناطق القريبة من عاصمته هى التى شغلته عن الاهتمام بالابقاء على اليمن تحت السيطرة العثمانية أو باستعادته بعد خروج العثمانيين منه[٢] .

ويمكن القول إن حركة الانكشارية فى تمردها وعصيانها فى القرن السابع عشر حتى نهايته ، كانت فى صورة واحدة ومتكررة من حيث الأسباب والنتائج ، ولم يتسن للدولة ازالة فساد أو تحقيق إصلاح ، بعد أن اختلت هذه الادارة العسكرية ، وبعد أن استشرى الفساد وتأخرت مرافق الحياة ، وضج الناس بالشكوى، وسلاطين الدولة فى العاصمة عاجزون عن إتخاذ أى إجراء بسبب هذا الفساد ، انعكست تلك المظاهر الفاسدة على أكثر البلاد التابعة للدولة العثمانية خاصة البعيدة عنها مثل اليمن ، إذ كان يغلب على الحملات الذاهبة إلى هذا الميدان العنصر غير النظامى ، فقد كان على والى مصر إمداد الولاة فى اليمن بالجنود ، لعجز الدولة العثمانية عن إرسال الجنود

(١) سرهنك ـ حقائق الاخبار ص ٥٧٦ ، محمد فريد ـ الدولة العلية ص ١٢٣

(٢) السيد مصطفى سالم ـ الفتح العثمانى الأول لليمن ص ١٥٧

النظاميين لانشغالها بالحروب فى العراق ، والميدان الأوربى ، وبسبب تمرد الانكشارية وفسادها ، فكان والى مصر يرسل عسكرا ملفقا من كل نوع من الأساكفة والصناع وقطاع الطرق والفلاحين المصريين غير النظاميين ، لأن الجنود العثمانيين بمصر تقاعسوا عن الاشتراك فى الحروب لأنهم ألفوا الراحة والدعة ، وتنعموا فى مصر باللذات المتنوعة وتعلقوا فيها بكل أسباب الحياة ، وكثرت أولادهم ، وصارت مصر موطنا لهم[1] . وزاد من هذه المساوىء وضاعف من أضرارها أن الدولة لم تكن توفر لهذه العناصر غير الصالحة ضروريات الحياة ، ولذلك كثيرا ماكانوا يركنون إلى النهب والسلب للحصول على هذه الضروريات ، لذلك اضطر القواد العثمانيون فى حالات كثيرة إلى سلوك طريق يتنافى مع النظام العسكرى ، مثل التحايل وتقديم الرشوة لسد حاجات الجند واسترضائهم ، كما كان ينظر إلى اليمن باعتباره منفى للمجرمين والعصاة ، فكان رجالات الدولة يرسلون إليه هذه الفئات للتخلص منها ولتأديبها ، فقد أرسلت استانبول إلى مصر أثناء ولاية محمد باشا الصوفى ١٦١١ ـ ١٦١٥ م حوالى ألفى جندى « لينفوا إلى اليمن لفساد وقع منهم »[2] وذلك فى أثناء ولاية جعفر باشا ، وقد امتنع هؤلاء الجنود عن الذهاب إلى اليمن بعد وصولهم إلى القاهرة ، واعتصموا فى احدى دورها فاضطر الوالى لارسال قوة من الجند لمحاصرتهم ، ولاخراجهم بالقوة فاستسلموا لمصيرهم بعد أن قتل منهم ثلاثة جنود أثناء المقاومة التى بذلوها بعد أن فشلت الوساطة السلمية فى اقناعهم بالتوجه إلى اليمن[3] .

وقد رأينا فى الفصل الرابع الانقسام والفوضى التى عمت اليمن بعد عزل جعفر باشا سنة ١٠٢٢هـ ١٦١٣م وما حدث بينه وبين عبدالله شلبى وجنوده مما أدى إلى ازدياد الاضطرابات بين صفوف العثمانيين وانقسامهم ، وفى عهد الامام المؤيد ابن القاسم وبالأخص فى ولاية حيدر باشا الذى تسلم ولاية اليمن سنة ١٠٣٤ هـ ـ ١٦٢٥ م ظهرت ظاهرة خطيرة تدل على انهيار الأوضاع بين صفوف الجند العثمانى ،

---

(١) قطب الدين النهروالى ـ البرق اليمانى فى الفتح العثمانى ص ١٩٩

(٢) محمد ابن أبى السرور ـ المنح الرحمانية ص ١٤٠

(٣) محمد ابن أبى السرور ـ المنح الرحمانية ص ١٥٦

فقد تعددت حوادث هروب الجند من اليمن نتيجة صعوبة وخطورة هذا الميدان ، وذلك لعجز الوالى العثمانى عن دفع مرتباتهم ، ولضيقهم بمناخ تهامة الحار ، وكانت بعض الفرق العثمانية تعمل على الهرب إلى مكة أثناء توجهها إلى اليمن ، أو تلجأ للامام مباشرة وترفض الانضمام إلى صفوف العثمانيين ، كما حدث أثناء محاصرة حيدر باشا صنعاء ، اذ رفض الجنود النزول إلى ميناء المخا ، وتوجهوا إلى ميناء اللحية حيث لجأوا إلى ميناء القنفذة للذهاب إلى مكة[1] .

وهكذا انعكس ضعف الانكشارية وفسادها على الفرق العسكرية فى اليمن أيضا ، اذ تبدو الفروق واضحة بين الانكشارية فى عصرها الذهبى ، وبين الانكشارية فى عصر الاضمحلال ، فقد كانوا يتلهفون على الخروج إلى الحرب ، ويعتبرون النفير العام حادثا سعيدا ، ينتظرونه وهم فى شوق شديد إليه ، وكان هذا فى عصر قوة الدولة أى فى عصرها الأول ..

أما من الناحية الادارية ، فاننا نلاحظ أن مرونة النظم العثمانية ، وخاصة فى فترة نمو الدولة استطاعت أن تستوعب النظم التى وجدتها فى البلاد المفتوحة ، وأن توائم بطريقة عملية بين نظم العثمانيين الأصلية وبين أوضاع البلاد المختلفة التى خضعت لسيطرتها ، ولذلك اختلفت النظم العثمانية من بلد إلى آخر ، مما ساعد العثمانيين فى النهاية على حكم بلاد كثيرة مترامية الأطراف ، فقد تشابه الحكم المحلى فى الولايات العثمانية مع الحكم المركزى فى الدولة ، فكان على رأس كل ولاية وال أو بكلر بكى بمعنى أمير الأمراء ، وسلطاته فى داخل ولايته تشبه سلطات السلطان المركزية ، وكذلك يساعد الوالى فى حكم ولايته مجموعة من الموظفين تتشابه أعمالهم وألقابهم مع أعمال وألقاب موظفى الحكومة المركزية ، ومعه مجموعة من الكتاب والمحصلين لمعاونته فى جمع الأموال المقررة على الأهالى وتحديد أوجه صرفها ، وإلى جانب هؤلاء جميعا كانت هناك مجموعة السناجق ، أمراء المقاطعات والمدن الهامة فى داخل الولاية ، وكان إلى جانب كل سنجق بدوره مجموعة من الموظفين تشبه مجموعة موظفى الوالى ، مما أدى بمرور

---

(١) يحيى بن الحسين ـ أنباء أبناء الزمن ص ١٦٦

الوقت إلى تضخم جهاز الدولة التنفيذى ، فشكل هذا خطرا كبيرا فيما بعد على كيان الدولة[1] .

وكان النظام الادارى فى اليمن يقوم على نفس هذا النمط حيث يمثل الوالى العثمانى السلطة العثمانية فى اليمن ، ويعتبر الوالى قائدا حربيا واداريا معا ، وكان يقود الجيوش بنفسه ، وقد رأينا خلال فصول الرسالة كيف قاد حسن باشا وسنان باشا الكخيا الجيوش فى مناهضة دعوة الإمام القاسم بن محمد ، وهذا الوالى يكون له الحق فى تكوين قوة من أهل الأقاليم لمساعدة قواته بصرف النظر عن الاختلافات المذهبية ، فتولى اليمنيون حكم بعض الأقاليم ، وقادوا الفرق العسكرية ، وتولوا الوظائف الادارية والمالية ، وذلك للاستفادة من خبراتهم بشؤون البلاد ، بعد منحهم الألقاب العثمانية ، أى اعتبارهم أمراء أو سناجق عثمانيين ، ومنحهم كذلك مرتبات من الدولة العثمانية ، وقد مرت بنا أمثلة من هذا النمط الادارى خلال فصول الرسالة ، فقد عين العثمانيون أمثال حسن باشا ، وسنان باشا وغيرهم من ولاة اليمن أمراء آل شرف الدين فى مثل هذه المناصب ، مثل أحمد بن شمس الدين حاكم كوكبان ، وابن المعافا حاكم السودة ، وعبدالرحيم بن عبدالرحمن حاكم حجة ، هؤلاء دخلوا فى خدمة العثمانيين ، وقد رأينا كذلك كيف استعان الوزير حسن باشا بعدد كبير من أمراء وزعماء المنطقة الشمالية فى الحملة التى أرسلها تحت قيادة سنان الكخيا للقضاء على الاضطرابات فى إقليم الحجرية ويافع[2] .

ثم يأتى بعد الوالى الكتخدا ثم مجموعة حكام الأقاليم والمدن الهامة أى السناجق والكشاف ، وهم فى نفس الوقت قادة القوات العثمانية ، ثم يأتى بعدهم أمراء الآلايات والصوباشية وحكام المدن ثم رؤساء القوات التى تعمل على حفظ الأمن فى البلاد ، وكان ضعف الولاة وفسادهم يؤدى إلى انتشار الظلم والفوضى فى البلاد ، لضعف الاشراف العملى على حكام الأقاليم ، وقد رأينا الفوضى واندلاع الحروب فى اقليم اليمن أثناء ولاية سنان باشا الكخيا ، الذى اشتهر بالقسوة والغلظة ، فلما أتى اليها

(١) السيد مصطفى سالم ـ الفتح العثمانى الأول لليمن ص ٤٣٤
(٢) عيسى بن لطف الله ـ روح الروح جـ ٢ ص ٩٢

جعفر باشا بعد عزل سنان باشا كانت اليمن فى حالة فوضى كاملة .

لقد تحرى السلاطين ورجالات الدولة العثمانية الدقة فى اختيار الولاة وخاصة قبل أن ينتشر الفساد فى نظم الدولة وأجهزتها اذ كان يتم اختيار هؤلاء الولاة ممن يثق بهم السلطان ، أو ممن نشأوا فى السراى حتى يكونوا موضع ثقته ، أو من تولوا نيابة غزة أو مصر ، وذلك حتى يكونوا على دراية بأحوال البلاد ، غير أن تفشى الفساد فى أجهزة الدولة قد أتاح الفرصة امام بعض الولاة الضعفاء لتولى أمور اليمن ، واعتمد بعض الولاة فى اليمن للوصول إلى مناصبهم على الهدايا والرسا لرجالات الدولة فى عاصمة الدولة ، فقد اعتمد أمير صعدة على قرابته من أحد رجالات الدولة فى استانبول فى عزل جعفر باشا رغم صلاحيته ، كما أوضحت ذلك فى الفصل الرابع . وكان بُعد اليمن عن مقر السلطنة العثمانية كذلك ، سببا فى تأثر اليمن بما أصاب نظم الدولة من اضطراب ، وانحراف ، مما أدى إلى تولى بعض الولاة الفاسدين ، وإلى انتشار الرغبة بين العمال والجنود فى ابتزاز أموال الأهالى ، مما أدى إلى ازدياد اضطراب الأمور فى اليمن .

اشتهر العثمانيون بدقة التسجيل واستخدام الدفاتر الحكومية ، واتضح ذلك بصورة جلية فى اليمن ، فكان الولاة والعمال يهتمون بتسجيل أوجه الصرف والمرتبات ، واتفاقيات الصلح التى يتم ابرامها ،[1] وقد أصاب هذه الناحية الهامة من نواحى النظم الادارية العثمانية ما أصاب باقى نواحى النظم من الجمود والفساد ، ويدلنا على ذلك ما أظهره محمد باشا من تلاعب فى محتويات السجلات الموجودة باليمن حين توليه الأمور بها سنة ١٠٢٥ هـ - ١٦١٦ م ، اذ كان قد دون بها « اناسا كان يجرى عليهم من السلطنة أرزاق ولا لهم وجود »[2]

أما الحريم ، فكن فى عهد السلاطين الأوائل ، أى فى عصر قوة الدولة فى شبه عزلة عن بقية الخاصة السلطانية ، ولذلك فإنهن كن قليلات التأثير على تسيير أمور الدولة فى عهد هؤلاء السلاطين ، ولكن عندما بدأ الضعف يدب فى شؤون الدولة

---

(١) على همت - أبو الفتح السلطان محمد الثانى وحياته العدلية ص ٩٦

(٢) عيسى بن لطف الله - روح الروح جـ ٢ ص ٢٠٢

اصبح تدخلهن واضحا ، وكان سببا فى فساد نظم الدولة وانحلالها ، وكان الاختلال فى الولايات النائية أكثر وضوحا منه فى مركز الدولة ، حيث بدأت سيدات القصر فى التدخل فى شؤون الحكم بعد أن كان مكانهن القصر فقط ، ولم تظهر بوادر هذا الخلل فجأة بل أخذ يظهر رويدا رويدا ، وزادت هذه المظاهر الاجتماعية والسياسية سوءا فى عهد السلاطين الضعفاء ، فالسلطان مراد الثالث سنة ١٥٧٤ م ـ ١٥٩٥ م وقع تحت تأثير رجال حاشيته وندمائه وخضع أيضا لسيطرة أربع من السيدات هن والدته وزوجتاه ، وكبيرة وصيفات السراى ، وأخذت هذه الفئات فى التدخل فى شؤون الدولة العامة لتحقيق مصالحها الخاصة ، وعملت على اجبار رجالات الدولة بما فيهم الصدر الأعظم على تنفيذ رغباتها ، كما عملت على الاحاطة بالصدور العظام ، وتدبير المؤامرات احيانا اذا رفضوا تنفيذ هذه الرغبات[١] .

قد ترك السلاطين للعلماء كل مظاهر التكريم والاحترام كرئاسة الاحتفالات ، والتصرف المطلق فى أمور القضاء والثقافة ، ومن ثم استقر فى الأذهان أن علماء استانبول وحدهم هم الأهل لذلك ، وساعد على ذلك حماسة العلماء وصرامة خلقهم فى أيام الدولة الأولى ، مما أكسبهم تأثيرا على غيرهم ، وكان العلماء متواضعين على جانب من الطاعة طالما كان السلاطين يقودون الجيوش بأنفسهم ، ويتوجون بالنصر ويسيطرون على قواتهم ، وحين ترك السلاطين قيادة الجيوش للوزراء بدأ يقوى نفوذ العلماء ويشتد سلطانهم ، ومن ثم أخذوا يحسون بأهميتهم السياسية[٢] ، ولما تطرق الخلل إلى أنظمة الدولة ومنها نظام القضاء ، ظهرت منهم مجموعة تتصف بالجهل بالاسلام وتعاليمه ، اذ أصبحت بعض مناصب القضاء والافتاء تعطى كإنعام ، وكان أولاد كبار العلماء يعفون أحيانا من الدراسة المنتظمة والامتحانات ، وتمنح لهم الألقاب العلمية وهم فى بيوت آبائهم ، وقد وصل كثير من ذلك الصنف إلى قمة هيئة علماء استانبول[٣] .

---

(١) السيد مصطفى سالم ـ الفتح العثمانى الأول لليمن ص ٢٨٨

(٢) البحراوى ـ حركة الاصلاح ص ٨٠

(٣) البحراوى ـ حركة الاصلاح ص ٨٩

وقد انعكست تلك المظاهر على البلاد النائية البعيدة عن قلب الدولة وظهر هذا الفساد بشكل واضح فى ولاية اليمن ، ومن ثم نرى الجرموزى صاحب سيرة الإمام القاسم قد هاجم القضاة العثمانيين بشدة لأنهم أساءوا إلى التسريعة الاسلامية التى كانوا يحكمون باسمها ، مما زعزع ثقة الزيديين فى هؤلاء العلماء ولذلك سموهم الكفار والجهال والظالمين وغير ذلك من الصفات ، لأن هذه الوظيفة قد تدهورت عندما تولاها غير مستحقيها ممن كانوا يسعون إليها لما كانت تدره على صاحبها من دخل ، لأن القاضى كان يحصل على رسوم محددة من المتقاضين من ناحية ، ولحصوله من ناحية ثانية على الرشاوى فى القضايا المختلفة[1] .

أما من حيث التنظيم المالى ، فقد أدى اتساع الدولة وظروفها التاريخية إلى وجود نظم خاصة لحكومات الولايات ، فكانت حكومة كل ولاية تجمع الضرائب من الولاية ، وتقوم بالانفاق منها على الولاية ، كما كانت هناك أوقاف خاصة ، تخصص ايرادها للانفاق على المنشآت الدينية والمساجد ، ولما اتسعت الدولة وكثرت مصروفاتها ، وبدأ الخلل يدب فى أوصالها أخذت تعانى من الأزمات المالية الشديدة[2] ، بسبب الاضطرابات الداخلية والخارجية التى أشرنا إليها من قبل ، وبدأ فى الدولة العصر الذى أطلق عليه المؤرخون العصر المخيف[3]

وقد انعكس كل ذلك على الولايات البعيدة وعلى الأخص اليمن ، وبعد أن كانت الدولة تقوم بدفع مرتبات الجند من خزانة الدولة فى عهد السلاطين الأوائل وكان هؤلاء الجند يقتنعون بتلك المرتبات لأن هدفهم كان فتح البلاد ونشر الاسلام بها ، وكانت التربية العسكرية التى تدربوا عليها قد عودتهم على الحياة الخشنة المبسطة ، الا أن هذا النظام أصابه هو أيضا الخلل وأصبحت مرتبات الأمراء والجنود ضئيلة بالنسبة إلى حياة الترف والبذخ التى تعلقوا بها فى عهد السلاطين الضعاف ، مما كان من أهم العوامل التى أدت بهؤلاء إلى ظلم الأهالى وابتزاز أموالهم لكى يعوضوا قلّة المرتبات ، كما

(١) الجرموزى ــ النبذة المشيرة ص ٩٨

(٢) على همت ــ ابوالفتح السلطان محمد الثانى وحياته العدلية ص ٩٦ ، الدسوقى ــ الدولة العثمانية والمسألة الشرقية ص ٦٦

(٣) البحراوى ــ فتح العثمانيين عدن ص ١٠٢

أن نظم العثمانيين المالية كانت تترك بعض الثغرات التى تتيح لبعض كبار موظفيها الفرصة لاستغلال وظائفهم للحصول على الثروات الضخمة ، لأن الخزانة العامة للدولة كانت تصرف لبعض كبار موظفيها جزءا من مرتباتهم ، أما الجزء الباقى فكانوا يأخذونه من الأهالى أو من العوائد مقابل مايقدمونه من خدمات[١] .

وقد اتبع العثمانيون فى اليمن شتى الوسائل الملتوية للحصول على المال ، فقد عمد كثير من ولاة اليمن إلى جمع الأموال لتحقيق أغراض شخصية لتولى حكم مصر مثلا وطلب الهدايا الكثيرة من الأهالى عند وصوله أى بلد من بلاد اليمن ، وذلك كما فعل محمود باشا الذى تولى أمر اليمن سنة ٩٦٨ هـ - ١٥٦١ م[٢] واتصف هذا الوالى بكل صفات الانتهازية لتحقيق أغراضه ، فقد قتل رئيس سك النقود واستولى على أمواله الوفيرة بتهمة التلاعب بالعملة وغشها بغلبة النحاس على الفضة ، وكانت تهمة باطلة ،[٣] كما غير سنان باشا الكخيا فى اليمن سنة ١٠١٣ هـ - ١٦٠٤ م العملة مما أضر بالناس ، وكذلك كان يعطى رؤساء القبائل الذهب الأحمر المغشوش ليميلهم إليه أثناء مناهضة الإمام القاسم بن محمد ، واستعمل العثمانيون فى أحيان كثيرة الشدة فى جمع الأموال من الأهالى وذلك لحصول الجيوش على احتياجاتهم بالقوة من المناطق التى ينزلون بها ، وذلك يرجع إلى التناقض بين ضخامة الأعباء المالية وبين ضعف الأحوال الاقتصادية فى البلاد ، وقد أشار الجرموزى إلى هذه القسوة فى جمع الأموال بقوله : « أما المال فلهم فى أخذه قوة سطوة ، فلقد يعذبون أهله العذاب العظيم مثل ضرب السياط قليلا وكثيرا ، وقد يجلدون بعضهم حتى يموت مع المشاهرة والكى بالنار »[٤] .

أما نظام الضرائب الذى أخذ به العثمانيون ، فكان متعدد الجوانب ، فهناك نظام العشور والخراج ونظام الالتزام الذى سارت عليه الدولة العثمانية فى جمع الضرائب فى

---

(١) على همت - أبو الفتح السلطان محمد الثانى وحياته العدلية ص ١٩٥

(٢) يحيى بن الحسين - أنباء أبناء الزمن ص ١٣٠

(٣) قطب الدين النهروالى - البرق اليمانى فى الفتح العثمانى ص ١٢٨

(٤) الجرموزى - النبذة المشيرة ص ٧٦

كثير من ولاياتها ، وقد طبق هذا النظام فى أرض اليمن[1] بخلاف الحجاز التى اقتصرت موارد الدولة فيها على رسوم التجارة فى موانئها الهامة مثل جدة ، كان نظام الالتزام موضع سخط أهالى اليمن فى كثير من الأحيان لما فيه من ثغرات تسمح للقائمين بتنفيذه باستغلال الأهالى وبجمع الثروات الخاصة ، لأن حكام الأقاليم هم الذين كانوا يلتزمون بجمع خراج أقاليمهم ، وكان هؤلاء يحرصون على جمع الثروات من وراء بيع التزاماتهم مما كان فى النهاية يزيد الأعباء على الأهالى ، كذلك كانت تجمع الضرائب على النخيل والأبقار ، سواء كانت هذه الأشجار باقية أم غير باقية ، وكذلك الحال بالنسبة للابقار والاراضى مما جعل هذه التصرفات موضع تذمر كثير من الأهالى حتى ان جعفر باشا عند توليه الحكم وجد هذه الظاهرة موجودة ، فأزال هذه المظلمة على المفقود من النخيل والبقر ،[2] غير أن أعمال جعفر باشا الاصلاحية كانت مواقف نادرة فى تاريخ العثمانيين باليمن •

بعد هذا العرض لأهم النظم للدولة العثمانية ، نجد أن الدولة بلغت فى عصر قوتها شأوا بعيدا من التنظيم الادارى والحربى وغيرهما ، بيد أن هذه النظم لم يكن لها الأثر الايجابى أو الوجود الفعال فى أطراف الدولة وجهاتها النائية ، وكأنها كانت تختفى أو تتلاشى تبعا للقرب ، أو البعد عن مجال الدولة الحيوى ، ومركزها الرئيسى ، شأنها شأن الحملات نفسها ولاسيما فى جنوب غرب الجزيرة العربية ، وحينما انهارت تلك النظم فى مركز الدولة ذاته وفى مجالها الحيوى فى أوائل القرن السابع عشر الميلادى ، انهارت أكثر فى الأطراف التى منها اليمن •

انعكس الخلل الذى دب فى النظم العثمانية والذى أشرنا إليه على موقف الدولة الخارجى ، ففى نهاية القرن السادس عشر الميلادى كان على الدولة أن تخوض حروبا عدة فى ميادين مختلفة لأسباب كادت أن تكون متشابهة سواء على الحدود مع فارس أو فى الشمال الافريقى ، بل وفى أوربا أيضا ، فى وقت برزت فيه روسيا كدولة حديثة تمثل عبئا ثقيلا اضافيا على الدولة العثمانية وتمثل أيضا عائقا من أهم العوائق لاستقرار

---

(١) البحراوى ـ فتح العثمانيين عدن ص ٢٠٠

(٢) الموزعى ـ الاحسان فى دخول اليمن تحت ظل عدالة آل عثمان ص ٤١

الدولة وللاصلاح فيها ، كذلك كانت الحالة خطيرة بالنسبة للدولة فى حوض البحر المتوسط ، لكن كيف السبيل إلى مواجهة هذه الأخطار مع وجود هذا الخلل فى عاصمة الدولة وفى كل أجزاء جسمها ؟

من ثم نرى الدولة تضطر لعقد معاهدات واتفاقيات صلح ، وبدا واضحا فيما تعقده الدولة من معاهدات للصلح مدى ما آلت إليه من ضعف ، ومدى تأثير ذلك الخلل ، واذا أخذنا الميدان الفارسى كمثل تطبيقى لهذه الحالة ، فقد كان شاه فارس على استعداد لنقض الصلح مع الدولة بمجرد علمه أن العثمانيين قد اشتبكوا فى حرب مع أى دولة أخرى ، انتقاما للعار الذى لحق الفرس فى الحروب الماضية ، فقد نقض الشاه اسماعيل الصفوى الصلح الذى عقده مع فرهاد باشا سنة ٩٩٨ هـ ثم عاد للصلح ثانية مع نصوح باشا سنة ١٠٠٢ هـ على غرار الصلح الأول ، وما لبث أن نقض هذا الصلح أيضا عندما رأى انشغال الدولة وكثرة اضطراباتها ، واستطاع دخول بغداد سنة ١٠٣٢ هـ ـ ١٦٢٣ م[1] ، كما أصيبت الدولة العثمانية أيضا بضربة قوية فى سوريا ولبنان وذلك بخروج أمير لبنان فخر الدين المعنى على السلطان أحمد الأول سنة ١٦٠٣ م فقد اشترك مع جان بلاط الكردى وهددا سوريا نفسها بالاحتلال ، واستولى فخر الدين على بعلبك سنة ١٦١٠ م ،[2] وبذلك أصبحت الدولة مرهقة فى الداخل والخارج ، فقد عقد السلطان أحمد صلحا مع الشاه عباس بن طهماست سنة ١٦١٢ م تنازل فيه عن كل ما فتحه العثمانيون من بلاد منذ عهد سليمان بما فى ذلك بغداد ، وكان عقد صلح ستوارتورك فى الغرب وابرام الصلح مع الفرس على هذا النحو اسقاطا لأهمية اليمن من حيث اتخاذها قاعدة ارتكاز ضد الانتشار الأوربى فى المحيط الهندى ، وتهديد فارس من الجنوب ، وهكذا انعكست أوضاع الدولة العثمانية العامة على أوضاع اليمن الداخلية .

كان ابرام العثمانيين الصلح مع الإمامة الزيدية أكثر من مرة دليلا على حدوث التوازن بين القوتين فى اليمن وخاصة بعد أن تعلم أصحاب الإمام القاسم استعمال

---

(١) سرهنك ـ حقائق الاخبار ص ٥٧٠

(٢) كارل بروكلمان ـ تاريخ الشعوب الاسلامية ص ٥١٣

البنادق ، وتمرنوا على اطلاق البارود ، فقد حصل اليمنيون على كثير من أسلحة العثمانيين النارية أثناء الحروب الطويلة بين الطرفين كما سنفصل ذلك فى النتائج والتحليل ، وكانوا ينقلون هذه الأسلحة إلى حصونهم ومعاقلهم ، خاصة المدافع الكبيرة ، وكان حصول الزيديين على الأسلحة واستعمالهم إياها من الأمور التى شجعتهم على الوقوف فى وجه العثمانيين بعد أن كانوا يخشون مواجهتهم فى بداية الأمر .

كما أنهم حافظوا على كثير من الوظائف والنظم التى اكتسبوها عن العثمانيين بعد أن ظلوا قرونا طويلة عبارة عن زعماء دينيين يسكنون قمم الجبال الشمالية ، وبذلك بدا أن وجود العثمانيين فى اليمن قد بدأت نهايته ، يتضح ذلك جليا من قول محمد باشا عندما استشار الأمراء والأعوان فى عقد الصلح مع الامام سنة ١٠٢٨ هـ « قد طلبتكم لهذا الأمر الذى دامت الفتنة بيننا وبين الإمام مع تضاعف عدد العسكر ، وزيادة المدد لها واتسع مدارها ، ولم يحصل فيها كفاية فى فتح بلاد الإمام ، وما برحوا واقفين فى الحدود ، فأجابوا بأجمعهم وقالوا : الحركة على الإمام فى هذا الوقت ليس فيها صلاح ولا استمرار غير بذل الأموال وذهاب الأرواح ، وترك كل شىء هو الرأى الصائب ، فإن الامام القاسم ليس كما كان فى السابق ، وكذلك القبائل ليسوا كما كانوا ، أما الآن فقد عظمت شوكتهم وظهرت قوتهم كثر معهم السلاح »[١] بالاضافة إلى أن الدولة القاسمية فى هذه الفترة كانت تمثل الجديد القابل للنمو والامتداد بينما الحكم العثمانى كان يمثل القديم المثقل بالأعباء والأخطاء معا ، وعلى سبيل المثال ، فقد كان الحكم الإمامى غير مرتبط بالتكاليف المالية المرهقة التى تثقل كاهل الأهالى بالضرائب الفادحة ، على عكس الحكم العثمانى الذى كان يشتد فى جمع الأموال من الأهالى لتغطية حاجاته الكثيرة المتزايدة ، وانعكس هذا بوضوح فى « أن الامام كان لايأخذ منهم[٢] مالا ولا يفرض سؤالا ، ولايقبض منهم الآ الذى يطابق هواهم »[٣] .

(١) يحيى بن الحسين ـ أنباء أبناء الزمن ص ١٥٨

(٢) أى القبائل

(٣) يحيى بن الحسين ـ أنباء أبناء الزمن ص ١٥٨

ومن ناحية ثانية ، نجد أن صفوف الزيديين فى هذه الفترة التى نحن فى صدد الحديث عنها كانت تتمتع بوحدة الصف تحت زعامة الإمام القاسم وأولاده من بعده ، بينما كانت المنازعات والانقسامات بين صفوف العثمانيين تثير الحروب بين بعضهم البعض ، وتضعف من شأنهم ، وذلك كما رأينا أثناء النزاع بين جعفر باشا وعبدالله شلبى الكخيا ، وقد رأينا من خلال هذا الفصل الخلل الذى أصاب نظم الدولة العثمانية وانعكس على اليمن بأوضح صورة مما أضعف من قوتهم ، ومن قوة وجودهم فى اليمن ، وبذلك تحقق فى آخر أيام الإمام القاسم تغير واضح فى ميزان القوى بين الزيديين والعثمانيين ، أى حدوث التوازن بين الإمامة والولاية ، ثم حدث تغير آخر فى إمامة أبنائه من بعده وهو رجحان كفة الإمامة على القوة العثمانية والوجود العثمانى مما أدى فى النهاية إلى اخراج الدولة العثمانية من اليمن جميعه ·

□□□□

الخاتمة

النتائج والتحليل

إن الخاتمة تعنى أن أبين النتائج أو ما توصلت إليه من خلال بحثى ، هذه الخاتمة جعلتها قسمين : أحدهما خاص بالقاسميين ، والثانى خاص بالدولة العثمانية ، لأبين وجهة نظرى التحليلية بالنسبة للقاسميين والدولة العثمانية .

وفيما يختص بالقاسميين فقد بدأت بفترة الاستقرار التى سبقت حكم القاسم لأن الفترة التى سبقت ظهور دعوة الامام القاسم بن محمد كانت كما بينا من قبل فترة استقرار للحكم العثمانى فى اليمن ، وقد تضافرت عدة عوامل لجعل هذه الفترة تتميز عن غيرها من فترات الحكم العثمانى فى اليمن ، ولجعلها تتصف بالهدوء والاستقرار ، وقد بدأت هذه الفترة بداية قوية لأنها كانت تستند إلى جهود حسن باشا والكخيا سنان ، اللذين استطاعا أن يحافظا على النتائج التى حققاها فى اليمن ، وساعدت ظروف اليمن الداخلية على هدوء الأحوال نسبيا فى هذه الفترة ، فقد توفى المطهر دون أن يخلفه شخص قوى يستطيع أن يتزعم اليمنيين ، أو أن يقودهم ، بل خلفه أبناء ضعاف تنازعوا الأمر فيما بينهم ، فضعف شأنهم حتى أصبحوا العوبة فى أيدى العثمانيين ، مما ساعد العثمانيين على القضاء على أى حركة مناوئة لهم بسهولة ، وبالرغم مما كانت تعانيه الدولة العثمانية من خلخلة فى نظمها فى هذه الفترة ، الا أن نجاح العثمانيين فى فرض سيطرتهم فى اليمن حينذاك لايرجع إلى قوة الدولة أو إلى قوة مساندتها للولاة فى اليمن ، بل يرجع إلى قوة شخصية الولاة العثمانيين وضعف موقف اليمنيين ، فقد توفى المطهر وأتاح الفراغ من الامامة الفرصة أمام العثمانيين لفرض سيطرتهم على أقاليم اليمن المختلفة وتدعيمها « لقد كانت وفاة المطهر بالنسبة للأتراك (العثمانيين) نصرا عظيما وبشرى سعيدة أتاحت لهم المزيد من السيطرة وبسط النفوذ

والتنكيل بأعيان البلاد »[1] ، فأصبحت المنطقة الشمالية موضع طمع العثمانيين بعد أن كانت مصدر إقلاق لهم ، وكان ظهور الامام الحسن فى هذا الوقت أمرا متوقعا نظرا لاضطراب الأحوال فى المنطقة ولسوء سياسة الأمراء القائمين بها ، وقد ساعد على ظهور هذا الامام ، أن المذهب الزيدى بطبيعته يبيح لأى من الأشراف الزيديين اذا توفرت فيه الشروط اللازمة ، أن يعلن إمامته ويدعو الناس إلى مبايعته ، ولقد نجحت الدعوة فى بداية الأمر إلا أن هذا النجاح لم يستمر طويلا لموقف الحكام المعادى منها ، فضعفت الأحوال اليمنية الداخلية ، بالاضافة إلى انهيار الأحوال الاقتصادية نظرا للحصار البحرى البرتغالى ، ونظرا لكثرة الاضطرابات والحروب الداخلية ، لافتقاد اليمن الشخصية القوية التى تجمع حولها العناصر اليمنية ضد العثمانيين ، مما مهد الطريق أمام الولاة العثمانيين مثل حسن باشا وكتخداه سنان باشا أن يوطدوا سيطرتهم على اليمن ، وأن يمدها كل منهما إلى أقصى امتداد لها ، بعد أن تخلصوا من العناصر القوية من أبناء المطهر وغيرهم من الأمراء الشماليين ، بالاضافة إلى أنهم كانوا يوجهون الضربات القوية لأى حركة مناوئة لحكمهم ، خاصة فى إقليم ريمة ، وصاب ، ويافع ، والحجرية ، وهناك ملاحظة هامة وهى بالرغم من أننا أطلقنا على هذه الفترة فترة استقرار للحكم العثمانى ، الا أن هذه الفترة لم تهدأ فيها الأحوال نهائيا ، نظرا لطبيعة اليمن الجبلية التى كانت ملجأ حصينا بالنسبة لليمنيين فى أثناء الوقوف فى وجه العثمانيين ، بالاضافة إلى مرونة المذهب الزيدى ، وانتشاره فى المنطقة الشمالية ، فلا غرابة أن يعلن الامام القاسم إمامته بعد نفى أبناء المطهر والامام الحسن بسنوات قليلة ، وأن يقود اليمنيين ضد الحكم العثمانى ، فكأن فترة الاستقرار هذه كانت ارهاصا لظهور دعوة الامام القاسم بن محمد ، الذى نجح فى وضع أساس دولة قوية ، بفضل ما تميزت به شخصيته من مميزات ، جعلت له القدرة على إقامة هذه الدولة الرسيّة الزيدية ، فقد كان شديد العزيمة قوى الارادة ، صبورا على المكاره ، قائما بالعظائم ، وليس أدل على ذلك مما تحمله من الأذى والمشاق فى سبيل نشر دعوته ، لأن ذلك لم يكن بالأمر السهل ، كما أوضحنا من قبل ، وقد رأينا كم من العقبات والانتكاسات

(١) أحمد حسين شرف الدين ـ اليمن عبر التاريخ ص ٢٦٤

صادفته ، فكان يتنقل من مكان إلى آخر يتلمس الأعوان والأنصار ، وكان العثمانيون يضيقون عليه الخناق ليستسلم دون جدوى ، كما أن سنان باشا عرض عليه بعض البلاد ليحكمها مع كفايته هو وأولاده ، لكى يكف عن دعوته ، فلم يرض الامام بذلك لأن هدفه كما قال هو لم يكن امتلاك الأراضى أو الحكم ، كما أن القبائـل كثـيرا ما كانت ترفض إقامته لديها خوفا من بطش العثمانيين ، وكان الامام يتقبل هذه الأمور بتجلد وصبر ، ويدعو الله محتسبا به ، ومثال ذلك حين دب الرعب فى قلوب القبائل بعد أسر ولده الحسن فى بلاد عُذر وظُليمة والأهنوم وبلاد صعدة ، وفى هذا يروى لنا السيد عبدالله العريانى ما يدل على ذلك فى قوله : « كنا مع الامام فى نواحى حُور ، فاتخذ الامام موضعا خاليا ٠٠ وتوارى الامام فى بعض الشعاب ثم كشف رأسه ودعا الله سبحانه بدعاء ، وبكى بكاء كثيرا حتى سمعه الفقيه »[١] ٠

وهناك الأمثلة العديدة الأخرى التى تدل على تحمله للمشاق ، فقد ضاع من الامام نعاله أثناء خروجه من شهارة سنة ١٠٠٩ هـ متخفيا من العثمانيين ، فكان يربط بعض ثيابه على أقدامه ليتابع سيره فى هذه المناطق الجبلية الوعـرة إلى برط ، هذا بالاضافة إلى ايمانه الشديد بالله الذى تميزت به شخصيته ، وذلك يرجع إلى النشأة الدينية التى نشأها ، ويظهر ذلك جليا فى خطاباته التى يرسلها للناس كافة أو إلى أولاده ، وولاته فى البلاد ، فكثيرا ما كان يبدؤها بآيات قرآنية مطابقة للغرض من هذه الخطابات ، فمن كتبه لأهل وادعة حاثا على الجهاد بقوله : « يأيها الذين آمنوا هل أدلكم على تجارة تنجيكم من عذاب أليم ، تؤمنون بالله ورسوله ، وتجاهدون فى سبيل الله بأموالكم وأنفسكم ذلكم خير لكم ان كنتم تعلمون »[٢] ٠

ومن كتبه لأصحابه « اذا عزمتم فتوكلوا على الله واتقوه ، وحافظوا على الصلاة ، ولا ترضوا منكرا ينصركم الله ، وتواضعوا لله ، وتيقنوا أن ليس النصر إلا من عند الله »[٣] ، كما يظهر تمسكه بالدين وايمانه بالله فى توجيه أبنائه فقد أوصى ولده محمدا

---

(١) الشرقى ـ اللآلىء المضيئة ص ٢٢٤

(٢) الجرموزى ـ النبذة المشيرة ص ١٩ ـ القرآن الكريم صورة الصف آية : ١٠ و ١١

(٣) الجرموزى ـ النبذة المشيرة ص ١٧

(المؤيد) بقوله : « إنى أوصيك الا تترك القرآن يوما واحدا ، ولو فى كل يوم جزأين ، أو جزءا واحدا ، ولا تترك ذلك أبدا ، وعليك بصلاة الجماعة ، فانها من الواجبات ، ولا يغـرك قول من يقـول إنهـا سنّـة ، وعليك بملازمـة العلـم وطلبـه فانـه من أكبـر الفرائض »[1] .

وهناك العبارات التى كثيرا ما رددها الامام تعبيرا عن شدة ايمانه بالله ، فعندما سجن ابنه الحسن قال « أنا قد أودعت ولدى الله سبحانه وتعالى ، وهو لن يخيب لديه الودائع ٠٠ واننى أترك ولدى وديعة لله سبحانه وتعالى حتى يفرج الله عليه »[2] ، وذلك لأن العثمانيين منعوا اطلاقه من السجن ورضوا باخراج سائر المسجونين فى صلح سنة ١٠٢٨ هـ ، كماأشير لذلك فى الفصول السابقة ، كذلك كان الامام اذا هزم أو تعرض لأذى العثمانيين ينسب ذلك إلى تقصيره فى حق الله فقد قال لأصحابه أثناء حروب النهضة الثالثة مع جعفر باشا « أترون هذه الشدائد ، إنما أتتنا من قبل تقصيرنا فى حق الله ، فهلموا نستغفر الله العظيم »[3] ، كما أن الامام كان كثير التفاؤل قليل التشاؤم ، فقد تفاءل بالشيخ عبدالله بن مسعـود ـ أحـد مشـايخ قارة ـ وكان أول المبايعين لدعوته ، اذ كان وسيم الوجه وافر اللحية ، كما أنه استبشر بالفرس الذى أهداه له الشيخ أبوزيد ـ شيخ بنى سنحان وأول من ناصر دعوته ـ اذ سأل الامام عن اسم الفرس فقيل له اسمه الفتح فتيمن به ، وقد سمع الفقيه عماد الدين يحيى ابن محمد يقرأ أثناء حصار شهارة سنة ١٠٠٩ هـ قوله تعالى : « يا أهل يثرب لا مقام لكم فارجعوا » وكان الامام مفكرا فى أمره فتفاءل بذلك وخرج إلى برط ، وفى أحد الأيام سمع صوت طائر قبيح المنظر فتشاءم قائلا « معنا فى هذه الليلة غدر »[4] .

وبالاضافة إلى هذه الصفات المميزة لشخصية الامام ، فانه كان محاربا وسياسيا محنكا ، فكان يستطيع أن يحمل البندقية ويقاتل بها ، وهذا شىء عظيم بالنسبة لذلك

---

(١) الجرموزى ـ النبذة المشيرة ص ١٤٢
(٢) الشرفى ـ اللآلىء المضيئة ص ٢٨٣
(٣) الجرموزى ـ النبذة المشيرة ـ ص ٢١٥
(٤) الجرموزى ـ النبذة المشيرة ص ٢٦٤

الوقت الذى نحن بصدد الحديث عنه ، لأن استعمال البنادق كان شيئا حديثا بالنسبة لليمنيين ، وكان استعمالها مقصورا على أرباب الدولة العثمانية فقط ، كما تظهر قدرته الحربية كذلك فى مهاجمة قوات العثمانيين ومناوشتها دون التصادم معها ، وهو ما يعرف حاليا بحرب العصابات التى تعتمد أساسا على الكر والفر السريع وعلى عدم الصدام الجماعى بالجيوش النظامية ، بل تعتمد على الجهود الفردية ، وتكبيد العدو أكبر قدر ممكن من الخسائر ، وقد استغل هذه الطريقة لمعرفة أصحابه بطبيعة أقاليمهم ، وعلى خفة حركتهم ، ومرونتهم التى تمكنهم من الاختفاء السريع بعد الحاق الضرر بعدوهم ، فكان الامام كثيرا ما يلجأ إلى جبال حصينة ، مثل جبل شهارة ، وجبل برط ، التى يصعب على العثمانيين نقل عددهم الثقيلة إليها • كما يصعب على خيولهم صعود هذه الجبال مما كان له أكبر الأثر فى نجاح حروبه ضد العثمانيين ، كما تظهر حنكته السياسية حين هرب ابراهيم بن المعافا بمعاونة بعض رجال شهارة المعادين للامام ، أثناء تسلم الامام شهارة سنة ١٠١٥ هـ وكان الامام قد احتجزه ليخرج به ولده محمداً من أسر كوكبان ، فتظاهر الامام أن هذا الرجل هرب بنفسه من غير عمل أحد ، وتظاهر بالتفتيش عنه ، رغم معرفته بمكانه ، وذلك لكى لايثير الفتن والقلاقل فى شهارة بعد أن تسلمها • ولكى يتمكن من القبض على ابن المعافا وتحقيق غرضه منه ، ومن حسن سياسته أيضا تعظيمه لعبدالرحيم بن عبدالرحمن رغم معرفته التامة بخداعه ، وشراسة أخلاقه ، وانما كان غرضه من تعظيمه أمام السامعين أن تخلص موالاتهم للامام ، وأن يكسب عبدالرحيم وهو أحد أمراء آل شرف الدين إلى جانبه وهم يمثلون الجبهة الثانية فى حرب دعوته لأن العثمانيين استخدموا أمراء آل شرف الدين لمحاربة الامام ، فكان يرى الامام فى كسب عبدالرحيم إلى جانبه قوة معنوية ليتقوى بها ، خاصة وأن نفوذ عبدالرحيم اتسع وتقوى أثناء بدء دعوة الامام • وتحقق بالفعل ما كان يرمى إليه الامام من وراء تلك السياسة ، اذ تشجعت القبائل على الاعلان عن أنفسهم دون خوف من العثمانيين ، أو دون خوف من عبدالرحيم نفسه الذى كان يشتهر بالغلظة والشدة •

كما اشتهر الامام القاسم بقدرته على جذب القبائل إليه متخذا الجانب الدينى واتصال نسبه بالرسول صلى الله عليه وسلم لتقريب هذه القبائل إليه ، وذلك نظرا

لتعلق الجبليين بالسلوك الديني وفقا لطبيعة هذا العصر ، كذلك استخدم المال فى تقريب بعض القبائل إليه ، كما أن الامام قد عبر بمهارة عن تذمر اليمنيين من سياسة العثمانيين وأخطائهم الفردية أو الجماعية ، فكان يحرض الأهالى على القتال بتذكيرهم بما ارتكبه العثمانيون من أخطاء ومظالم ، وكانت كتبه إلى القبائل المختلفة تمتلىء بمثل هذه الاشارات • فقد وجد الامام القاسم فى أخطاء العثمانيين ومفاسدهم مادة غزيرة لتقوية مركزه وإلى حض اليمنيين على التخلص من حكم العثمانيين والى اخراجهم من بلادهم •

وقد لجأ الامام القاسم أحيانا إلى ادعاء الكرامات مستغلا فى ذلك جهل العامة فى تفسير الظواهر الطبيعية ، ونرى فى المخطوطات التى تعرضنا لها الكثير من هذه الكرامات مثل ربط خسوف القمر أو كسوف الشمس بحادثة لها أثر عظيم فى الدولة ، وقد أبرز أحد الخطابات لأصحابه مدعيا أنه من علىّ بن أبى طالب (رضى الله عنه) فيه ذكر قيام إمام فى ذلك الوقت ، وقد أظهر هذا الخطاب عندما وجد أن بعض أصحابه قد انفضوا من حوله •

وكان الإمام القاسم كثيرا ما يلجأ إلى رفع الروح المعنوية لدى أتباعه باشعال النيران فوق قمم الجبال فى الليل لاعلان انتصاره وإرهاب العثمانيين ، اذ كانت العادة المتبعة لدى اليمنيين اذا وقع حرب بين قبيلتين ، فان القبيلة المنتصرة تشعل النيران فوق قمة جبلها لاعلان فرحها وسرورها بالنصر الذى حققته على القبيلة الأخرى ، وقد فعل ذلك الامام القاسم عندما تمكن من الخروج من شهارة إلى برط سنة ١٠٠٩ هـ ، كما تحلى الامام القاسم بصفة الشفقة والرحمة ، فكان يتفقد المساكين من حين إلى آخر ، كما شملت رأفته الحيوانات فقد قال لأحد أصحابه عندما دخل شهارة فى سنة ١٠١٥ هـ : « يا قوم ها هنا بقية هرر من سناجيب العجم قد بلغت من الجوع ، ولا تأكل العنب تأذنوا بتفريق هذه لها (يعنى قطعا من اللحم) »[١] •

هذه أبرز السمات الشخصية التى تميز بها الامام القاسم ومكنته من وضع أسس الدولة القاسمية التى استمر نموها فى عهد أبنائه من بعده ، اذ استطاعوا فى عهد ولده

---

(١) الجرموزى ـ النبذة المشيرة ص ١٢٢

الامام المؤيد إخراج العثمانيين سنة ١٠٤٥ هـ ـ ١٦٣٥ م ٠ اذ كانت أسس هذه الدولة قائمة على تعاليم الدين الاسلامى الحنيف والسنة النبوية الشريفة ، فقد أقام الامام الحدود على السارق والزانى وشارب الخمر وغيرهم ، وقضى على البدع والخرافات التى انتشرت فى اليمن ، وطلب من الأهالى التمسك بأهداب الدين ومحاربة العادات المنتشرة بينهم ، فقد أمر بقطع شجرة كان الأهالى يتقربون إليها بالذبائح والقرابين ،[1] كما كان يمنع الناس من إقامة القباب على الأضرحة ، لأن ذلك من البدع التى ابتدعها الأهالى لتعظيم الموتى ، وكان اذا فتح بلدة أراق ما بها من أدنان الخمر ، ففى أثناء حصار شهارة سنة ١٠١٥ هـ ودخولها إليها « وجد الخمور باقية فأمرهم الامام باراقتها »[2] ، وقد نشر العدل بين الناس وحرص على إقامة الجماعة ، وكان يشاور أصحابه فى جميع الأمور فى الحرب والسلم ، ويأمر بالمعروف وينهى عن المنكر ، وينصف المظلوم من الظالم ، ويرعى الفقير والغنى على السواء ولا يأخذ من الرعية الا ما يوافق هواهم من الخراج ، كل على حسب قدرته ٠ بهذه الدعائم بنى الامام قواعد دولته التى استطاعت أن تستمر ويقوى ساعدها فى عهد ابنه المؤيد الذى تسلم الحكم من بعده عن طريق الاختيار وليس بالنص ، لأن التوريث ليس من مذهب الزيدية ، وانما اشترطوا أن يخرج الامام داعيا ، وذلك يدل على خلو اليمن من إمام قوى ينافس المؤيد ، وإلا لانضم إليه البعض دون البعض وحدثت الفتنة فى اليمن ، لكن تميز أول حكم المؤيد بالاستقرار والهدوء بفضل الصلح الذى عقد بين الامام القاسم ومحمد باشا سنة ١٠٢٨ هـ ٠ واستمر فى عهد ولده محمد من بعده ، فأخذ الامام المؤيد يقوى قبضته فى داخل ممتلكاته حتى يثبت دعائم حكمه ، ومن ثم يبدأ خطوته التالية لاخراج العثمانيين من اليمن بمعاونة إخوته أحمد والحسن والحسين ، واستطاع ان يستولى على الأقاليم الشمالية جميعها سنة ١٠٣٦ هـ بعد نقض صلح سنة ١٠٢٨ هـ كما سبقت الاشارة إلى ذلك ٠ ولم يبق فى أيدى العثمانيين الا حصنا عُمران وثلا ، كما لم يبق فى أيدى حلفائهم آل شمس الدين ابن الامام شرف الدين غير

(١) نفس المصدر
(٢) نفس المصدر

حصنى كوكبان والطويلة ،[١] حتى هذه الحصون الباقية لم تمكث طويلا ، اذ تساقطت هى وغيرها من الحصون الأقل أهمية فى أيدى قوات الامام المؤيد ، وكان الأمير عبدالرب بن على بن شمس الدين أمير كوكبان هو ركيزة العثمانيين الوحيدة الباقية من أسرة الامام شرف الدين الذى ظل متعاونا مع حيدر باشا ضد أتباع الامام المؤيد حتى اضطر أخيرا إلى التسليم فى ٢٥ رجب سنة ١٠٢٦ هـ - ١٦٢٧ م ٠ فأبقاه الامام المؤيد فى حصنه فى كوكبان وأمن حياته ، [٢] وأصبح حينئذٍ هو وأسرته من أكبر أعوان الامام وحاربوا إلى جانبه ، وبعد ذلك أخذت الأقاليم اليمنية المختلفة تخلع طاعتها للعثمانيين ، وتعلن انضمامها إلى الامام المؤيد ، ودان أشراف صبيا وجيزان والجوف للامام بعد مناوشة بينهم وخضعوا له مقابل إبقائهم فى مراكزهم[٣] ، ومن ثم أصبح هؤلاء الأشراف وخاصة أمير الجوف من أهم أعوان الامام المؤيد اذ استطاع ان يستولى على تعز بمعاونة الحسن ابن الامام القاسم ، لما لجأ أمير زمارة[٤] (التركى) إلى الحسن ابن الامام القاسم لاختلافه مع حيدر باشا ، فأبقاه الحسن فى ولايته واستعان به فى قيادة بعض قواته [٥] ، ثم اتجه الحسن بن القاسم إلى تشديد الحصار على صنعاء سنة ١٠٣٦ هـ ٠ حتى ان حيدر باشا طلب الصلح على أن يغادر صنعاء سالما بجنوده وعتاده إلى جنوب اليمن ، ولكن هذا الصلح لم يتم ، وأصر الحسن على خروج حيدر باشا من صنعاء دون قيد أو شرط ، وطال الحصار على صنعاء لمدة عامين كاملين ، حتى اضطر حيدر باشا أخيرا للاستسلام لقوات الامام المؤيد ، وسلم لها المدينة بعد ان اشترط أن يخرج منها سالما إلى زبيد ، وكان ذلك فى أول رجب سنة ١٠٣٨ هـ ١٦٢٩ م[٦] ٠ وبعد سقوط صنعاء اتجه الحسن والأمير عبدالرب بن شمس الدين

---

(١) عيسى بن لطف الله ـ روح الروح جـ ٣ ص ٣٤٤

(٢) تاريخ دولة الترك ـ ص ٣٩ (المؤلف مجهول)

(٣) العقيلى ـ من تاريخ المخلاف السليمانى ، القسم الثانى من الجزء الاول ص ٣٣٥

(٤) زمارة جنوب صنعاء

(٥) الكبسى ـ اللطائف السنية ص ٤١٠

(٦) عيسى بن لطف الله ـ روح الروح جـ ٣ ص ٣٨٣

لاخضاع المنطقة الجنوبية حتى عدن فبسط يده على تعز ، ثم سارع أمير عدن إلى الدخول فى طاعة الامام المؤيد[1] .

وهكذا تم للامام المؤيد خلال عامين فقط مد سيطرته إلى أقاليم اليمن المختلفة بما فى ذلك صنعاء ، وتعز ولم يبق فى يد العثمانيين سوى زبيد والأقاليم التهامية المحيطة بها مما أثار ذلك الرعب فى قلوب العثمانيين ، فأرسل والى مصر إلى والى الحبشة بالتوجه إلى اليمن لنجدة العثمانيين به . فوصل عابدين باشا إلى ميناء المخا على رأس الف جندى سنة ١٠٣٧ هـ - ١٦٢٧ م[2] . ولكن عابدين باشا فشل فى انقاذ موقف العثمانيين فى اليمن ، فقد ظل فى ميناء المخا حتى تقدم الحسن بن القاسم إليه وحاصره به فكان ذلك سببا فى تقوية الروح المعنوية لقوات الامام المؤيد ، فما كان من ولاة مصر الا أن أرسلوا قانصوة باشا لاستعادة أملاك العثمانيين هناك ، رغم ماكانت تعانيه الدولة فى ذاك الوقت من ضعف عام وخلخلة نظمها ، وقد بذل قانصوة باشا جهودا من أجل استرجاع أملاك العثمانيين ولكن هذه الجهود منيت بالفشل ، وركز قانصوة باشا جهوده فى تهامة فقط ، نظرا للاستعدادات الضخمة التى أعدها الامام المؤيد تحت قيادة أخويه الحسن والحسين ، حين علم بضخامة قوات قانصوة باشا ، وتعمد الأخير النزول عند أبى عريش فى أقصى شمال الساحل اليمنى لاشاعة الخوف بين اليمنيين ولاسترجاع شمال تهامة من الامام المؤيد وذلك سنة ١٠٣٩ هـ - ١٦٢٩ م . وقد نجح قانصوة باشا بعض الشيء فى مد السيطرة العثمانية فى أقاليم تهامة . بعد أن تخلص من عابدين باشا ، لكن قانصوة باشا فشل فى احراز نجاح بعد ذلك ، فقد دارت جهوده الحربية فى داخل دائرة ضيقة محدودة ، يمتد قطرها بين زبيد والمخا فقط ، وذلك بعد أن فشل فى التقدم إلى تعز حيث لقيت جنوده هزيمة فى آخر رمضان سنة ١٠٣٩ هـ - ١٦٣٠ م . وهرب قائد الجيش مذعورا قبل بدء القتال[3] ، مما اضطر قانصوة باشا لطلب الصلح لمدة سنة من المؤيد ، وتم ذلك سنة ١٠٤٠ هـ - ١٦٣١ م .

---

(١) يحيى بن الحسين - انباء ابناء الزمن ص ١٦٥

(٢) يحيى بن الحسين - أنباء أبناء الزمن ص ١٦٥

(٣) تاريخ دولة الترك - ص ٥٦ ، ٥٧ (المؤلف مجهول)

وقد رأى المؤيد واخوته برأيهم الصائب ، أن فى عقد الصلح فرصة لتثبيت أركان حكمهم ، ولتنظيم شؤون البلاد للاستعداد لتوجيه الضربة الأخيرة للعثمانيين . فقد قام الحسن بتفقد البلاد ، واصلاح الحصون والقلاع ، وتوفير ما يلزم من السلاح والعتاد لجميع الجيوش فى الأقاليم المختلفة[1] ، ثم قضى الحسن على الاضطرابات حول عدن حتى لاينتهز العثمانيون الفرصة لاسترجاعها[2] ، هذا فى الوقت الذى كانت قوات العثمانيين تتمزق من الاضطرابات ومن قلة الأموال .

تم تجددت الحرب تانية سنة ١٠٤٣ هـ . ولم يحرز قانصوة باشا أى انتصار يذكر فى تلك الحروب التى تركزت حول زبيد والمخا أمام قوات الحسن بن القاسم ، بالاضافة إلى التفاف أهالى المنطقة الجنوبية حول الحسن وانضمامهم إلى جيوشه ،[3] مما اضطر قانصوة باشا لطلب الصلح مرة ثانية لمدة سنة ، فوافق المؤيد بالرغم من معارضة أخيه الحسن ، فعقد الصلح فى ٢٠ محرم سنة ١٠٤٥ هـ ـ ١٦٣٥ م[4] . الا أنه بعد عقد الصلح بشهر تحايل قانصوة باشا حتى هرب من زبيد ولجأ إلى معسكر الحسن ابن القاسم وسلم نفسه له لضعف شأنه وموقفه ، ولازدياد تمرد الجند وتعديهم عليه ، وقد أكرم الحسن وفادة قانصوة باشا حتى غادر اليمن بحرا إلى مصر ،[5] فجاهر بعض الجنود بالذهاب إلى معسكر الحسن بن القاسم أو إلى خارج اليمن ، وبايع البعض الأخير الأمير مصطفى الكتخدا واليا عليهم لمواصلة الدفاع عن أنفسهم ، غير أن الأخير لم يمكث طويلا ، بل طلب الصلح مع الحسن على شرط مغادرة اليمن هو وجنوده سالمين ، فتم خروج العثمانيين فى العشر الاوائل من شهر جمادى الأولى سنة ١٠٤٥ هـ ـ ١٦٣٥ م[6] .

وهكذا تم اجلاء العثمانيين فى هذا الوقت ، فأصبح اليمن أول ولاية عربية تنفصل عن السيادة العثمانية ، التى امتدت إلى كافة أجزاء الوطن العربى ماعدا المغرب

---

(١) نفس المرجع

(٢) يحيى بن الحسين ـ أنباء أبناء الزمن ص ١٦٨

(٣) عيسى بن لطف الله ـ روح الروح جـ ٣ ص ٣٢٣

(٤) تاريخ دولة الترك ـ ص ٦٢ (المؤلف مجهول)

(٥) نفس المرجع

(٦) عيسى بن لطف الله ـ روح الروح جـ ٣ ص ٣٩٣

الأقصى ، خلال النصف الأول من القرن السابع عشر الميلادى ، وقد ظل حكم الأئمة الزيديين من أبناء القاسم بن محمد مايزيد عن المائتى عام حتى عاد العثمانيون ثانية إليه سنة ١٨٧٢ م • وكان خروج العثمانيين من اليمن بهذه الطريقة على أيدى أبناء الامام القاسم يرجع إلى حسن تربية الامام لأبنائه وتنشئتهم نشأة صالحة مبنية على تعاليم الدين الحنيف وعلى التعاون ووحدة الصف ، وعلى حسن تدريبهم تدريبا عسكريا صارما ، فقد كان يشركهم معه فى جميع المعارك منذ نعومة أظافرهم ، اذ خرج الحسن إلى ساحة القتال وهو فى سن الخامسة عشرة من عمره عندما خرج إلى بنى جبر فى أيام استقرار الامام فى وادعة سنة ١٠١٣ هـ ـ ١٦٠٤ م • وكذلك أخوه محمد الذى تعرض لأشد الأزمات أثناء حصار شهارة سنة ١٠٠٩ هـ ـ ١٦٠٠ م • ولم يرض بخروجه رغم أن أصحاب والده جاءوا لاستخراجه هو واخوانه ، وذلك حرصا على أرواح أهل شهارة حيث قال : « لقد وهبت نفسى لله سبحانه ، ولمن فى شهارة المحروسة بالله مع المسلمين ، والعلماء ، والمستضعفين ، وان الامام لم يأمرنى بذلك ، وفى بقائى سلامة لمن فى شهارة »[1] ، هذه الكلمة تظهر أثر التربية الصحيحة وحرص الولد على تنفيذ أوامر والده الذى هو بمثابة قائده العسكرى ، ولو كان ذلك على حساب عواطفه ونفسه • وتظهر كذلك آثار تلك التربية الصالحة فى الخطابات التى كان يوجهها الامام لاولاده فى المناطق التى كان يعهد إليهم بادارتها ، فقد أرسل لابنه احمد حين ولاه أعمال صعدة فى النهضة الرابعة فى شهر رجب سنة ١٠٢٧ هـ ـ ١٦١٧ م • بقوله :

« استخرت الله سبحانه وتعالى ، وجعلت للولد صفى الدين أحمد ولاية صعدة وبلادها •• وما والاها من البلاد تقيم فيها الجمعات ، وتقبض الحقوق والواجبات ، وتقيم الشريعة المحمدية ، وتقسم فى الناس بالسوية ، وتنصف المظلوم من الظالم ، وتؤدب أهل الحرام ، وتأمر بالمعروف وتنهى عن المنكر ، وتوفير الحقوق ، وجعلها حيث تأمره به والامتثال لما قلنا والاستفهام لنا فيما التبس عليه من الأمور •• وعلى إزالة البدع والمنكرات ، وعليه العمل بتقوى الله ، والتواضع وتقريب أهل الفضل ، والحث

---

(١) الجرموزى ـ النبذة المشيرة ص ١٤٠

على طلب العلم ، وافتقاد المساجد ، والمصالح والطرقات ، واقامة الشريعة وتنفيذها ، وتعهدها ، وابطال الأحكام الخارجة عن الشريعة »[1] .

هذه كلها وصايا ثمينة متضمنة أحكام الشريعة ، حيث انه لم يترك جانبا الا وأوصاه به ، حتى طلب العلم ، واصلاح المساجد والطرقات بما فيه الصالح العام والخاص ، وهكذا الحال مع أولاده جميعا . ومن وصايا الامام لابنه :

« يابنى اتقوا الله يكرمكم الله ، وصلوا أرحامكم يطل الله أعمارکم ويبارك فى أموالكم ، وامروا بالمعروف وانهوا عن المنكر ، اياكم ودماء الناس ، فان تبعاتها فى الدارين عظيمة ، واصلحوا المال ، واكرموا الضيف بما تجدون ، ولا يكن لكم عن طلب العلم مانع يستغرق أوقاتكم ، ولكن قسموا أوقاتكم واجعلوا خيرها وأكثرها فى طلب العلم الا ماكان لابد منه فى إصلاح حالكم »[2] .

فكان لهذه التربية الحكيمة أثر عظيم فى تعليمهم الحنكة فى معاملة القادة السياسيين ، مثلما فعل محمد بن القاسم مع محمد باشا بعد وفاة والده لاستمرار الصلح ، لأن فى ذلك فرصة لاستقرار حكمه ، خاصة وهو فى بدء حكمه اليمن ، وتوثيقا للصلات بينهما أهدى محمد المؤيد إلى الباشا كتاب الكشاف ، كما تعلموا من والدهم ، طريقة التخفى فى الخروج من بلد إلى آخر ، وفى ارسال الخطابات بأسماء تعطى المعنى دون التعرف عليهم وذلك لحماية أنفسهم ، وهى كطريقة الشفرة المعروفة حديثا فى إرسال الخطابات السرية ، فقد أرسل الامام يطمئن على ولده الحسن عندما أسر فى الدار الحمراء أحد رسله ، متخفيا فى زى (قهوجى) حيث وضع فى إناء القهوة ورقة لمعرفة أحوال الحسن ، فقرأ الحسن الورقة ورد عليها بتوقيع موسى بن على قائلا : « ان لكل فرعون موسى ، فأنا موسى الترك وابن علىّ يريد جده عليا رضى الله عنه »[3] .

بهذه الوصايا وهذه التربية التى ربى الامام عليها أولاده استطاعوا أن يقيموا صرح دولتهم القاسمية وأن تنمو قوة الامامة الزيدية التى استطاعت ان تفرض وجودها فى اليمن كله بعد خروج العثمانيين منه سنة ١٠٤٥ هـ - ١٦٣٥ م . وقد اتسعت رقعة

---

(١) الجرموزى - النبذة المشيرة ص ١٧

(٢) الشرفى - اللآلىء المضيئة ص ٢٦٦

(٣) الجرموزى - النبذة المشيرة ص ٢٨٢

الدولة فى عهدهم ، خاصة فى عهد المتوكل على الله اسماعيل ، اذ امتدت حدود الدولة حتى عمان . وفى سنة ١٦٤٤ م امتد نفوذها حتى شملت لحج وعدن وحضرموت والشحر ، فكان أول إمام يشمل نفوذه اليمن بأسره ، وكان عهده أزهى عهد الامامة الزيدية فى اليمن ، فقد كثرت فى عهده الخيرات وازداد عدد العلماء والمتعلمين[١] . وذلك لأنه تسلم مقاليد الحكم بعد أخيه المؤيد الذى سلمه اياه وقد استقرت دعائم الدولة ، فحكم الامام المتوكل اسماعيل لمدة ٣٣ عاما لم يحدث خلالها أى اضطرابات ، وكانت تصرفاته يغلب عليها العدل والسخاء والحكمة والدهاء والبراعة فى الادارة ، وحسن اختيار الولاة وقواد الجيوش وحماة الأطراف وسن الأنظمة . ومع هذا فقد كان أستاذا فى فنون العلم ، كرس أوقاته اليومية وقصرها على أمور ثلاثة : ادارة شؤون البلاد ، وتدريس العلم لتلاميذه الذين يفدون إليه من الآفاق حتى أصبح معظم علماء عصره من خريجى مدرسته ، بالاضافة إلى العبادة والذكر . كما اتصف الحسن ابن القاسم أكبر أبناء الامام بالشجاعة والاقدام ، وله الفضل فى انتصار جيوش المؤيد فى معاركه مع العثمانيين ، وقيل عنه : « إنه نظير المطهر بن شرف الدين أو أرفع منه فى الشجاعة والرياسة »[٢] .

وقد أقامت الدولة علاقات ودية مع الدول المجاورة لها ، مثل بلاد الحبشة ، فقد أرسل الامبراطور فاسيلاداس Fasladas امبراطور الحبشة بعد قطع علاقته مع أوربا ، وبعد أن أخذ يتلمس طريقا للاتصال بالمسلمين ليقيم معهم علاقات سياسية وتجارية . فأرسل للامام المؤيد سنة ١٠٥١ هـ ـ ١٦٤١ م . وفدا محملا بالهدايا الثمينة ليعقد معه معاهدة ودية تسمح للحبشة باستعمال موانىء اليمن بعيدا عن الموانىء التى تقع تحت السيطرة العثمانية . وقد أعاد الامبراطور الكرة مرة ثانية فى عهد الامام المتوكل على الله اسماعيل سنة ١٠٥٧ هـ ـ ١٦٤٧ م[٣] ، ولكن لم تذكر المصادر هل تمت هذه المعاهدة أم لا .. ؟

---

(١) جاد طه ـ السياسة البريطانية فى اليمن ص ٢٩ ، العرشى ـ بلوغ المرام ص ٦٧

(٢) أحمد حسين شرف الدين ـ تاريخ اليمن الثقافى جـ ٤ ص ٢٥٢

(٣) الحبيد ـ مقالة سفارة الامام المتوكل الى الحبشة (مجلة كلية الشريعة والدراسات الاسلامية) ص ٣٠

هذا وقد ظهرت نهضة علمية فى عهد الدولة القاسمية كان بدء مظاهرها فى عهد الامام القاسم بن محمد ، وحمل لواءها من بعده أولاده الذين أكثروا التأليف ، اذ كان الامام القاسم كثير التأليف حتى فى أثناء خوض المعارك مع العثمانيين ، ففى أثناء اختفائه فى برط ألف كتابه (الأساس) فى أصول الدين فى مجلد ضخم ، وقد قال فى آخر مقدمته هذه الأبيات :

هـذا الأسـاس كرامـة فتلقه ياصاحبـى بكرامـة الإنصاف
وأحـرز نفيسـا من نفـائس نثره جمعت بغوصى فى خضم صافى[1]

وقد تعرض لشرح هذا الكتاب جماعة ، واعترض على بعض ما فيه آخرون منهم الكردى المكى بكتاب سماه (النبراس) وأجاب العبدى على اعتراض الكردى بكتاب سماه (الاحتراس)[2] ، فكأنه أوجد بكتابه هذا حركة فكرية • وكان كتاب الأساس مرجع أهل اليمن من الزيدية فى أصول الدين ، كما ألف كتابا آخر فى النحو سماه (التحفة) وله كتاب (الارشاد فى معرفة أعمال العباد عند فقه الاجتهاد) • وبعدما استقر الامام فى شهارة ألف كتاب (الاعتصام) فى الفقه ، جمع فيه بين كتب أئمة آل البيت وكتب المحدثين من الأمهات ، ثم رجح كل مسألة بما يقتضيه اجتهاده ، ولكنه توفى قبل اكمال هذا الكتاب ، فلم يبلغ فيه إلا إلى كتاب الصيام ، وقد أكمله بعده حتى كتاب الحج السيد أحمد بن يوسف بن الحسين بن احمد زبـاره المتـوفى سنـة ١٢٥٢ هـ • وقد سلك فى تتمته مسلك الامام القاسم بن محمد ، فجاء كتابا نفيساً سماه (أنوار التمام المشرقة بضوء الاعتصام) فى مجلد ضخم ،[3] وقد بلغ من أهمية الاعتصام والأساس أنهما أصبحا من أهم مصادر الفقه والأصول حديثا ، وله كتاب (التحذير من المعاونة على الفتنة) الذى رد فيه على العلماء الذين أصدروا فتوى بجواز مداراة الظلمة ، وله كتاب (الجواب المختار على مسائل عبدالجبار)[4] ، وقد برع

---

(١) أحمد حسين شرف الدين ـ تاريخ اليمن الثقافى جـ ٤ ص ٢٧٠

(٢) الشوكانى ـ البدر الطالع جـ ٢ ص ٤٧ ، ٤٨

(٣) نفس المصدر

(٤) الجرموزى ـ النبذة المشيرة ص ٤٦

الامام القاسم كذلك في انشاء القصائد الشعرية ، فله قصيدته المشهورة في انكار الصوفية وأعمالهم القبيحة وسماها (الكامل المتدارك في بيان مذهب المتصوف الهالك) ، التي قال فيها :

معاول الأقوام ثمة أحدثوا بدعا تخالف آل أحمد عن بد
وبرا المسجد لا يقوم بركعة الاّ لشخص قاعد متشهد
يارب والحقني غداً لمسرتي ان كان إغراق الزنادق في غد

ولما ظهرت هذه القصيدة شكا الصوفية إلى سنان باشا ، فأمر الأخير الشريف محمد بن عبدالله ابن الامام شرف الدين ، أن يجيب الامام القاسم عليها ، فرد الامام بقصيدة أخرى سماها ، (حتف أنف الافك) قائلا :

الحق أبلج واضح للمهتدى يهدى إلى سنن السبيل الأقصد
والدين قد وضحت معالمه وضوح الشمس لايخفى على المسترشد

ومن هذه القصائد والرد عليها نستنتج بأن هناك انتعاشاً في حركة التأليف في عهد الامام القاسم . وبالاضافة إلى تلك القصائد ، هناك الكثير من الاشعار في مناسبات مختلفة منها :

يضيع حق الإله في الناس أجمعا تضعضع دين الله حتى بصنعا
وأضحى كتاب الله فيهم مهجرا وبدله الفارون شعراً مضرعا
وسنة خير الرسل في الناس أهملت وأضحت صنوف اللهو مشيعا

ومما قاله في إحدى مرات اختفائه :

الا يا الهي إني خاضع واني في الاحسان منك لطامع
وإنك رحمان رحيم وواهب لخلقك الا فضلك جامع[1]

وفي أثناء تخوفه من العثمانيين وهو في برط قال قصيدته المشهورة باسم استفتاح الفرج وبدأ بقوله :

ياحي ياقيوم ياغوث الذى يشكو إليك من الذى قد جار
يامن يجير بفضله مستضعفا مستصرخا متضرعا لك حار[2]

(١) الجرموزى ـ النبذة المسيرة ص ١٠ ، ١٢

(٢) الجرموزى ـ النبذة المسيرة ص ١٢١

كما أن له نظما فى المواعظ والعلوم والزجر والتهديد فمن ذلك قوله :

ياذا المريد لنفسه تثبتا ولدينه عند الاله ثبوتا
أسلك طريقة آل احمد واسألن سفن النجاة يسألوا ياقوتا

ومن قصائده إلى السيد عبدالله بن على المؤيدى الذى دعا إلى نفسه ورام معارضة الامام بقوله :

ان كنت تبغى هدم دين محمد فأنا المريد أقيمه بدعائم
أو كنت تخبط فى غياهب باطل فأنا المزيل ظلامها بعزائم[1]

وله قصائد متعددة فى الرثاء ، فقد رثى عمه عامراً عندما قتله العثمانيون وكذلك ابنه عليا عندما قتل فى موقعة « الشقاب » التى مر ذكرها .

وبذلك نرى أن الامام القاسم قد حمل لواء النهضة العلمية فى عصره وأكملها أولاده من بعده ، فقد أخذ أبناء الامام القاسم العلم عن والدهم وعن كبار علماء الزيدية مثل الشيخ لطف الله بن محمد الغياث وغيره من العلماء . ففى أثناء أسر أولاد الامام محمد وأحمد فى كوكبان أحرز محمد (المؤيد) ينابيع العلوم لأنه حبس مع أعيان العلماء فاشتغلوا بالدرس .[2] فلم يضيعوا الوقت هباء ، وقد نبغ أبناء الامام القاسم فى العلوم البيانية والمنطقية والنحوية وقد اشتغلوا بالحديث والتفسير والفقه ، ولهم مؤلفات كثيرة فى هذه المجالات ، فقد ألف الحسين بن القاسم كتاب (غاية السؤل فى علم الأصول) ذلك الكتاب المشهور الذى وصفه الشوكانى قائلا :

« هذا الكتاب أصبح مدرس الطلبة وعليه المعول فى صنعاء وجهاتها ، وهو كتاب نفيس يدل على طول باع صانعه فقد ساق فيه الأدلة سوقا حسنا » [3] .

وقد ألفه الحسين أثناء خوض المعارك ضد العثمانيين مع أخيه المؤيد ، وله كتاب (شرح هداية العقول) وكذلك ألف اسماعيل بن القاسم (العقيدة الصحيحة فى الدين النصيحة) وشرحها وكتاب (المسائل المرتضاة إلى جميع القضاة) ووضع

---

(١) الشوكانى ـ البدر الطالع جـ ٢ ص ٥٠

(٢) الكبسى ـ اللطائف السنية ص ١٢٦

(٣) الشوكانى ـ البدر الطالع جـ ٢ ص ٢٣٩

حاشية على كتاب (المنهاج) للامام المهدى فى أصول الفقه[1] وجمع أربعين حديثا تتعلق بمذهب الزيدية وشرحها ، وله رسالة فى التحسين والتقبيح ٠

هذه المؤلفات وغيرها أدت إلى ظهور حركة علمية زيدية ، فصلت اليمن علميا وثقافيا عن الدولة العثمانية ، ولكن لا ننكر أن لوجود العثمانيين فى اليمن أثرا غير مباشر فى انتعاش حركة التأليف فى ذلك الوقت ، وذلك لاندماج اليمن فى إطار الدولة العثمانية ، مما أدى إلى سهولة اتصال اليمنيين بباقى أجزاء الدول التى تسيطر عليها الدولة العثمانية ، كما أن كثرة الحروب التى دارت بين العثمانيين والزيديين أدت من ناحية أخرى إلى قيام النزاع بين علماء وفقهاء السنة والشيعة ، وخاصة الشافعية فى تهامة اليمن ، مما أدى بالتالى إلى كثرة المؤلفات فى ذلك الوقت ، اذ كان كل من هؤلاء العلماء ينحاز إلى جانب أحد الفريقين المتنازعين ، فيعمل على الدفاع عن فريقه من ناحية ويرد على التهم التى يوجهها إليه الفريق الآخر من ناحية أخرى ، وكان العثمانيون يمنحون العلماء الذين ينحازون إليهم الهبات والعطايا ، أو يولونهم المناصب الكبيرة لاغرائهم على الوقوف إلى جانبهم ، هذه الحركة العلمية والثقافية التى ظهرت فى الدولة القاسمية أدت إلى ظهور الوعى لدى اليمنيين ومهدت الطريق أمام الإمامة الزيدية لأن تظهر قوتها على العثمانيين ، فبدأت هذه القوة فى عقد صلح معها ثم انتهت باخراجهم من اليمن سنة ١٠٤٥ هـ ـ ١٦٣٥ م ٠

هذه الحضارة تظهر مدلولاتها الفكرية فى أسلوب مؤلفى المخطوطات للفترة المعاصرة أى التى ظهر فيها الامام القاسم وأولاده من بعده مثل مخطوط الجرموزى : النبذة المشيرة ، ومخطوط الشرفى : اللآلىء المضيئة ، فنرى هذه المدلولات الحضارية واضحة ، واذا قارنا بينها وبين المراجع العربية التى رجعنا إليها فى هذا البحث ، فاننا لانكاد نجد فروقا جوهرية من حيث الاسلوب أو منهج البحث ٠

ولو نظرنا إلى نظم الدولة القاسمية التى وضع أسسها الامام القاسم ، لوجدنا أنها وصلت إلى مستوى جيد بالنسبة لمستوى العصر الذى ظهرت فيه على الرغم من حداثة عهدهم بالحكم ، ومن ثم بدأت تنمو وتتأثر ببعض الآثار التى أخذوها عن العثمانيين ،

---

(١) المحبى ـ نفحة الريحانة جـ ٣ ص ٢٤٩ ، ٢٥٠

فبالنسبة للنظم الادارية والحربية وغيرها من نظم الدولة القاسمية ، فاننا نجد أن أكثر المخطوطات التى رجعنا إليها وكانت العمود الفقرى فى هذا البحث لم تهتم بمثل هذه الجوانب الحضارية بصورة واضحة • ولم تهتم الا بالناحية السياسية بشكل كبير ، ولكننا استطعنا أن نستخلص هذه النظم على قدر الامكان •

استعمل اليمنيون القوس والرماح والحراب فى حروبهم فى بادىء الأمر ، فكانوا يرمون بها من فوق رؤوس الجبال ، كما كانوا ينحتون من الأحجار الرخام البيض ما يشبه الرصاص ليرموا به أعداءهم ، واستخدموا الحجارة التى يلقون بهـا من فوق رؤوس الجبال ، واشتهروا باستخدام السيوف اليمنية الشهيرة ، ومن أدوات حروبهم آلة الريح[1] ، والطبول والطاسة ، التى يدقون عليها عند بدء القتال ليزيدوا من حماس المقاتلين ، ومن طرقهم فى الحرب أيضا ، اشعال النيران على رؤوس الجبال ، وهى طريقة قبلية قديمة ، وتعتبر وسيلة اعلامية تعبر عن انتصاراتهم ، ولزرع الرعب والفشل فى قلوب الأعداء ، من جهة أخرى ، وهذه العادة القبلية استخدمت أيام الرسول صلى الله عليه وسلم فى أثناء فتح مكة ، اذ رؤى عدم المساس بأهل مكة واشعال النيران فوق الجبال ليدب الرعب والفشل فى قلوب قريش وتم له ما أراد ، وقد استخدم نفس الطريقة الامام القاسم فى حروبه ، خاصة بعد خروجه من شهارة أثناء حصارها سنة ١٠٠٩ هـ ، فقد أشعل ثلاث منارات على رأس الجبل الأسود لإعلام من فى شهارة من أبنائه بسلامة خروجه هو وأصحابه من بين أيدى العثمانيين[2] •

وقد وجد اليمنيون من خلال حروبهم مع العثمانيين أن تلك الآلات الحربية التى فى حوزتهم غير كافية لملاقاة جيوش جرارة ، تحمل أحدث الاسلحة فى ذلك الوقت بالرغم من أن المماليك عند دخولهم اليمن ، كانوا يحملون هذه الأسلحة معهم الا أنها كانت قليلة الأثر فى اليمن ، وذلك يرجع لقصر مدة حكمهم فيه من جهة ، ثم إنهم كانوا

---

(١) لم أعثر على وصف لهذه الآلة ولكننى أعتقد بأنها آلة بسيطة لمعرفة اتجاه الريح ، ليساعدهم ذلك على رمى رماحهم فى نفس الاتجاه •

(ثم وجدت انها قطعة من الجلد يوضع الحجر بداخلها وتربط بحبل وتدار فى الهواء ثم يترك الحبل فيطير الحجر الى الجهة المرادة)

(٢) الجرموزى ـ النبذة المشيرة ص ١٣٦

أهلية لم تتعد مناطق نفوذهم منطقة زبيد فقط فى أغلب الأحيان ، لكن عندما احتك اليمنيون بالعثمانيين حصل اليمنيون على كثير من أسلحتهم النارية ، أثناء الحروب الطويلة التى دارت بين الطرفين ، فكانوا ينقلون هذه الأسلحة إلى حصونهم ، ومعاقلهم وخاصة تلك المدافع الكبيرة وكان حصول اليمنيين على الأسلحة واستعمالهم اياها من الأمور التى شجعتهم على الوقوف فى وجه العثمانيين ، بعد أن كانوا يخشون مواجهتهم فى بداية الأمر ، ولكن نلاحظ أن اليمنيين لم يظهروا ميلا فى استخدام مدافع الميدان الثقيلة ، بل كانوا يستخدمون الجنود العثمانيين المتمردين أو الذين فروا إلى الأئمة بعد استقلالهم ، خاصة فى عهد المؤيد ، فى استخدام تلك المدافع التى احتفظوا بها فى قلاعهم ، كما كانوا يستولون على الخيول والخيام من ساحات القتال ، رغم أن الخيول ليس من السهل استعمالها فى المناطق الجبلية ، لأنها صعبة المرتقى ، فكان اليمنى خفيف الحركة ، سريع الصعود إلى تلك الجبال الوعرة ، وقد أجادوا فن التحصن فى تلك الجبال حيث كانوا يختبئون تحت الصخور والحجارة الكبيرة ، وهكذا ادارة الحروب مجال ضرب فيه الأئمة بسهم وافر من النجاح والكفاءة ، حتى عدوا أنفسهم قوة مواجهة لقوة العثمانيين .

كما استخدموا الزيارات ، وهى آلة حربية ضخمة تستخدم فى رمى النفط وغيره من القذائف على العدو ، وبعد ان تعلم اليمنيون استعمال البنادق أخذوا يصنعون البارود والرصاص ، ففى سنة ١٠١١ هـ . أثناء وجود الامام فى برط ، استخرج الامام الرصاص من خمسة معادن ، فكثرت خزائن الامام بالبارود[1] ، كما أن محمد باشا سنة ١٠٢٥ هـ وضع حراسة مشددة على جبل الكبريت ، لأن أصحاب الامام كانوا يصنعون البارود من هذا الكبريت مما جعله غالى الثمن .

ومن طرق اليمنيين فى الحرب ، طرق التسلل والتخفى من العدو ، ففى أثناء خروج الامام من شهارة إلى برط سنة ١٠٠٩ هـ ، كان خروجهم على دفعات متخفين ،

---

(١) الجرموزى ـ النبذة المسيرة ص ١٤٥

حيث خرج الامام والفقيه على الشهارى ، ثم خرج أتباعه بعده على دفعات ، ومن تم ابناه الحسن والحسين[1] .

أما طرق تموينهم أثناء الحروب ، فكان أكثر أكلهم من ثمر العنب الذى تجود زراعته فى أرض اليمن ، أو من النذور التى يحضرها القبائل الموالية لهم ، فكانت القبائل تقدم إلى الامام وأصحابه اللحوم ليتقربوا إليه بهذه الطريقة ، أو كانوا يأكلون الأرز حيث كان الامام يقيم مخازن لها .

أما أسرى الحرب فكان الامام يوزعهم على القبائل لينتفعوا بهم فى أعمال الزراعة ، فاذا وقع الصلح أو معاهدة بينه وبين العثمانيين كان يجمعهم ليفتدى بهم أسرى اليمنيين ، بعد أن يكسوهم ويزودهم بالطعام والزاد ، كما فعل فى صلح سنة ١٠٢٨ هـ .

أما النظم الادارية ، فقد كان الامام يولى على البلاد التى يفتحها أصحابه من الأشراف والسادة ، فقد ولى بالأهنوم السيد عبدالله بن محمد بن على المحراثى وبلاد شطب وظُليمة السيد ابراهيم بن جحاف القاسمى ، وبلاد الظاهر السيد صالح ابن عبدالله العريانى ، وبلاد ثلا وما يليها كبنى قطيل وبنى حيس وبلاد عفار وكحلان وبلاد مدُع والبُون عين السيد شرف الدين الحسن بن شرف الدين الخمرى ، وولى بلاد الحيمة وما ولاها وجبل تيس عمه السيد عامر بن علىّ ، وعلى بلاد مور وقُراضة ولاعة وما يليها السيد أحمد بن محمد المحرابى ، وولى حجة وما يليها السيد أمير الدين ابن عبدالله بن نهشل ، وبلاد الشرف ، وجهات الحقار السيد احمد بن محمد بن صلاح القاسمى الشرفى ، وولى فى بعض جهات خولان صعدة السيد محمد بن صلاح القطابرى ، وبلاد خولان صنعاء وما يليها الحاج أحمد بن عواض الأسدى ، ولما شب أولاده كان يعين منهم كذلك على تلك الأقاليم فقد عين ولده أحمد على صعدة سنة ١٠٢٨ هـ[2] .

---

(١) الشرفى ـ اللآلىء المضيئة ص ١٩٣

(٢) الشرفى ـ اللآلىء المضيئة ص ١٥٦

وقد أخذ اليمنيون كثيرا من النظم الادارية للعثمانيين ، فقد أبقوا على بعض الوظائف والألقاب والتقاليد الادارية بعد انسحاب الدولة العثمانية من اليمن ، فمنذ وضع الامام القاسم أسس الدولة القاسمية أخذت دعائم هذه الدولة تظهر بالمظهر اللائق للدولة ، بعد أن كان الأئمة الزيديون عبارة عن زعماء دينيين لأقلية تقطن قمم الجبال الشمالية .

كما نجح الامام القاسم وأولاده فى موازنة ميزانياتهم وجعل مصروفاتهم تتمشى مع الدخل العام ، فكان الامام لا يأخذ من القبائل مالا ولا يقبض منهم الا الذى يطابق هواهم ، فلا يرهق الأهالى بدفع الضرائب الباهظة ، وكان أكثر دخل الامام من النذور التى يقدمها الأهالى للامام ، كما كان يأخذ الخمس من المعادن المستخرجة من الأرض ، وهو ما يطلق عليه الركاز ، والخراج على الأرض المزروعة بنسبة العشر ، خاصة أن أرض اليمن تجود فيها زراعة البن والعنب والأرز ، وفى عهد أولاد الامام عندما بسطوا سلطانهم على السواحل أضيف إلى دخل الدولة بعض الرسوم على الموانىء ، أما مصروفات الدولة فكانت تتمثل فى النفقات الخاصة بالامام ، والهدايا التى يقدمها لبعض الجهات ، أوما يقوم به من منشآت دينية ، كذلك كان الامام يلتزم بصرف الأقوات على الضعفاء والمساكين والفقراء من بيت المال ، ففى سنة ١٠٢٨ هـ تعرضت البلاد لقحط شديد ، فكان الامام القاسم يصرف لكل واحد من رعاياه طعاما مصنوعا وبعض الحب ، [١] وكان يخصص لكل ولد من أولاده حصة من بيت المال ، وكذلك عمه السيد عامر ، فان مات أحد منهم فحصته لورثته[٢] .

أما بالنسبة للعملة المستعملة فى الدولة القاسمية ، فقد ضرب الامام القاسم السكة باسمه سنة ١٠٠٧ هـ أثناء بقائه بالسودة ، وأطلق عليها السكة المنصورية ، نسبة إليه لأنه كان يطلق عليه الامام المنصور بالله القاسم بن محمد وهى عبارة عن نصف درهم مكتوب عليه فى جانب منها لا اله الا الله محمد رسول الله وفى الجانب

---

(١) الشرفى - اللآلىء المضيئة ص ٢٥٧

(٢) نفس المصدر

الآخر اسمه والتاريخ ، وانتشر استعمالها بين الناس[١] ، الا أن استعمالها كان قليلا ، وأكثر العملات المستعملة حسب ماجاء فى المخطوطات هى : درهـم ، بقشـة [٢] ، حرف ، حرف أحمر ، قفلة ، ذهب كبير ـ قرش ـ وأغلب هذه الأسماء أسماء محلية عربية اذ أنها ذكرت فى مخطوطات ابن الدبيع الذى عاصر الطاهريين ، وكذلك الحال نجدها فى المخطوطات التى عاصرت الحكم العثمانى فى اليمن ، الا أنه كان يضاف إلى جانب اسم العملة لفظ عثمانى دلالة على أن العملة ضربت فى العصر العثمانى ، أما الموازين والمكاييل المستعملة فهى الكيلة الثلوثى[٣] ، والوفية ، والقدح الصنعانى ٠

وكان الامام فى بدء دعوته مشغولا فى الحروب ، إلى أن عقد صلح سنة ١٠١٦ هـ مع جعفر باشا حيث اطمأن الامام ، وكذلك الناس ، فأخذ يشرع فى تعمير الأراضى الزراعية ، فبنى وادى صومل ، وهو وادٍ معروف فى جانب عذر الغربى بالقرب من ساحل الأهنوم ، حيث استقر فيه مدة وأمر بزراعته وغرس أشجار البن فيه وهى ذات نفع اقتصادى هام للبلاد ، وزرع فيه كذلك العنب الذى تجود أرض اليمن بزراعته ، وكذلك الأرز والذرة ، وكذلك الحال فى وادى وعر وأعمال بطنه حجور ، فكثر انتاجه وظهر انتعاش فى الزراعة فى تلك الفترة حتى أصبح دخل الدولة القاسمية منه أكثر من دخل بيت المال من الموارد الأخرى[٤] ، كما أن الوافدين للدراسة فى المدرسة المنصورية كانوا يأكلون من ثمار هذه المزروعات مثل الأرز ٠

أما بالنسبة للنظم العمرانية ، فان أول ما عمر الامام قرية الهجرة فى برط سنة ١٠١٠ هـ بعد خروجه من شهارة ، فقد حفر بئرا وبنى مسجدا وسماها بالهجرة ، حيث كانت العادة المتبعة أن المدينة أو القرية التى يهاجر اليها أحد الأئمة للاستقرار بها عند ضعف نفوذه يلقبونها بالهجرة ، وذلك تشبيها لها بدار هجرة الرسول صلى الله عليه وسلم

---

(١) الجرموزى ـ النبذة المنيرة ص ٨١

(٢) البقشة : تتخذ من النحاس ، وهى باللغة التركية (باقجه) أى صُرَّة أو خرقة ، وهى الخرقة التى تلف بها الدراهم فسميت بذلك ، وهى أساس النقد عند اليمنيين ٠

الأب انستاس الكرملى ـ النقود العربية وعلم النُميات ص ١٦٨

(٣) الكيلة الثلوثى ـ نسبة الى سوق الثلوث اى السوق الذى يعقد يوم الثلاثاء ٠

(٤) الجرموزى ـ النبذة المنيرة ص ١٨٥

بالمدينة المنورة ، وكما أسس جامع شهارة فى الرابع من شهر محرم عام ١٠١٥ هـ وانتهى من انشائه فى العشر الأواخر من محرم سنة ١٠١٨ هـ ٠ وكان الانفاق على بنائه من النذور التى تقدم للامام ، وقد ساق حجارته من خارج شهارة ، وكان هذا الجامع متسعا به محراب وبه منهل ومنازل لقراءة القرآن ، وبعد استقرار الامام فى شهارة كان يدرس فيه طلبة العلم فأصبح مركزا علميا شهيرا فى شهارة ، كما أسس الامام السمسرة[١] فى مدينة الهجّر وهى عظيمة البناء ، فان أهل النظر فى العمائر يقولون : ان هذه السمسرة وأساطين جامع شهارة الكبير وعقودهما من عجائب اليمن ، واليمن مشهورة بأبنيتها الأثرية العظيمة البناء ، وقد وقف الامام دخل هذه السمسرة على مسجد شهارة ومسجد الهجّر الذى أسسه بعد ذلك بالقرب من جامع شهارة ، وقد عمر الامام طريق المدرج إلى شهارة الفيش حيث مهد طريقها للجمال والخيل ، حتى أول الطريق إلى شهارة الفيش ، أى إلى قمة الجبال ، وأقام الحوانيت والبيوت والسوق وأنشأ السمسرة التى فى سوق الثلوت والمسارحة ، فانه أبدع فى بنائها ، وتمت عمارتها على أحسن وجه مع سعة فيها وإحكام ،[٢] وقد أسس المسجد المعروف بمسجد على ابن الامام فى مدينة صعدة وقد دفن ابنه علىّ الذى قتل فى معركة الشقاب فيه ٠

لم تقف الأعمال العمرانية على عصر الامام القاسم فقط ، فقد شارك أولاده فى هذه النهضة العمرانية فى أثناء حياة والدهم ، ثم حين حكموا هم البلاد من بعده ، فقد عمر الحسن بن القاسم بعض الحصون التى خربها سنان باشا أثناء حروبه ، وكذلك عمر الحسين ابن الامام السمسرة فى شهارة الفيش والأسواق حولها ، وقد اختط الحسن مدينة فى جبل ضوران[٣] ، فبنى بها حصونا وأقام الأحواض حولها وأصلح الأراضى وغرس الفواكه ، فأصبحت مدينة عظيمة بأسواقها وحماماتها ومساجدها وأمر كل أمير

---

(١) السمسرة فى اليمن ـ جمعها سماسر ـ وهى تشبه الخانات ، وهى التى ينزل فيها الغرباء من التجار اثناء تنقلهم بين البلاد ، وذلك لعرض بضائعهم للاقامة فيها مقابل اجر معين ٠

(٢) السرفى ـ اللآلىء المضيئة ص ٢٧٩

(٣) ضوران ـ اسم جبل فى اليمن فوق حصن من حصون اليمن لبنى الهرس ، وهو يقع بقضاء انس على مسافة ٦٨ كم جنوبى صنعاء ـ هذه هى اليمن ـ عبدالله الثور ص ١٦٤

من أمرائه أن يبنى بها بيتا ، فاتبعوا أوامره وعمروا ما حولها من القرى .[١] وقد دفن الحسن بمدينة ضوران إلى جانب مسجده سنة ١٠٤٨ هـ . كما عمر احمد ابن الامام القاسم عمارة جامع الروضة المشهور فى صنعاء [٢]. ، وقد اختط الحسين مدينة الحصين التى عمرها تحت حصن الدامغ بالقرب من ضوران سنة ١٠٤١ هـ . وأقام بها عمارة عظيمة وأجرى الماء وغرس الأشجار[٣] .

أما الإمام المؤيد فقد عمر المسجد الجامع فى مدينة أقمر[٤] ، وهو جامع كان أصله مسجدا صغيرا يسع نحو عشرين رجلا فجعله جامعا كبيرا ذا اسطوانات وأجرى السقاية تحته من جهة الشرق ، وأنشأ البركة هناك ، وبنى السوق فى مدينة أقمر أيضا،وحفر بئرا بها كان عليها مدار الناس كلهم حيث كان ماؤها غزيرا يكفى كل من ورده ، وكان هذا الموضع قليل الماء ، ولم يكن فيه غير بئر صغيرة ماؤها قليل فكان الناس يجدون مشقة فى الشرب منها أيام الامام القاسم فحفر الامام المؤيد بئره هذه ، وحفر بئرا أخرى بالقرب منها لكن ماءها لم يكن غزيرا مثل بئر أقمر ، كما مهد الطريق الممدود بين أقمر إلى شهارة فسهلها وجعلها للجمال والخيل ، حتى ان من مر من وادى رجم بجمال أو غيرها سار إليها بسهولة ، ولم يكن طريق الجمال والخيل قبل ذلك من أقمر إلى شهارة الا من جهة المسارحة ووادى رجم ، فكان هذا الطريق من أحسن مآثر الامام المؤيد[٥] .

أما بالنسبة للجانب العلمى ، فقد كانت المساجد والجوامع هى المدارس التى يذهب إليها طلبة العلم حيث يتلقون فيها العلوم الدينية ، مثل قراءة القرآن والحديث والتفسير والفقه ، وكان الامام القاسم نفسه يقوم بالتدريس فى جامع شهارة ، وكذلك الحال بالنسبة لأبنائه من بعده ، فكانوا يقومون بمهمة التدريس إلى جانب مهام الحكم ،

---

(١) المحبى ـ خلاصة الأثر ج ٢ ص ٣٩ ، المحبى ـ نفحة الريحانة جـ ٣ ص ٢٤٤

(٢) الواسعى ـ تاريخ اليمن ص ٥٣

(٣) احمد حسين شرف الدين ـ تاريخ اليمن الثقافى جـ ٤ ص ٢٥٣

(٤) أقمر ـ اسم موضع باليمن ـ الهمدانى ـ صفة جزيرة العرب ص ١٨٠

(٥) الشرفى ـ اللآلىء المضيئة ص ٢٧٩

وخاصة اسماعيل (المتوكل على الله) حيث وصلت الدولة فى عهده إلى ذروة العظمة والتنظيم ، فلم يكن له هم الا الاستغال بالعلم والتفكير فى أمور الرعايا ، فأمنت السبل فى أيامه ورخصت الأسعار ولم يتمكن أحد من ظلم آخر فى ولايته ، ولم يجسر أحد من عماله على ظلم أحد من رعاياه ، وأمن الناس على أنفسهم وأولادهم ، وحريمهم ، وتردد التجار لسائر الأقطار ، فانشرح الناس لحكمه ، خاصة وأنهم كانوا قريبى عهد بالاضطرابات والحروب فى عهد العثمانيين •

من هذا العرض لنظم الدولة القاسمية التى وضع أسسها الامام القاسم وحمل لواء المسيرة من بعده أبناؤه ، نصل إلى أن حكومة الامامة كانت شيئا ايجابيا ، على جانب من التنظيم الذى أساسه طاعة الأفراد وصلاح الامام ، وهذا ما يجعلنا ننفى الفكرة الشائعة بأن الامامة عبارة عن سلب ونهب ، أو كما صورها بعض الكتاب والمؤرخين على أنها مجرد صراعات ، بيد أننا نرى من خلال هذا العرض لأهم النظم القاسمية انها وصلت أو كادت تصل لمستوى العصر فى التنظيم والادارة والبناء والتعمير ، ولهذا فلا عجب أن ظهرت حكومة الامام بأنها أقرب لمظاهر العدل والانتاج والتنظيم أكثر مما كان الحكم العثمانى فى جنوب غربى الجزيرة وبدت الامامة وكأنها ملجأ وحصن من مظالم العثمانيين وفساد ادارتهم كما أن الدولة القاسمية كانت تمثل الجديد المتطور بينما كان الحكم العثمانى فى اليمن يمثل القديم البالى •

أما فيما يختص بالدولة العثمانية ، فينبغى لنا قبل تحليل نظمها فى اليمن وما يختص بأحوالها ، أن نعرف أهمية اليمن فى القرن السادس عشر وأوائل القرن السابع عشر ، فاذا عرفنا أنه كانت للعرب السيطرة على أغلب طرق التجارة العالمية القديمة ، ومن أهم هذه الطرق طريق البحر الأحمر الذى تقع مصر عند طرفه الشمالى واليمن عند طرفه الجنوبى ، وقد حقق كل من القطرين من وراء موقعه الجغرافى رخاء اقتصاديا كبيرا ، وازدهارا حضاريا ملحوظا منذ أقدم العصور ، وتردد فى كتب الجغرافيا اسم جزيرة العرب السعيدة .Arabia Felix ، وهو اسم أطلق على أقصى جزئها الجنوبى الغربى حيث سعدت موانيه بمرور تجارة التوابل بها ، وظلت فترة طويلة محطات أو مخازن لهذه التجارة التى كانت فى القرن السادس عشر أهم مجال للنشاط الدولى ، وأهم باعث للكشف

الجغرافى ، وكذلك أهم مورد مالى فى الشرق والغرب على السواء ، وكان لليمن بحكم موقعها نصيب وافر من ذلك كله ، اذ كانت اليمن أهم نقطة ارتكاز على الساحل الجنوبى والحارس عليه ، وكان من العسير على السفن التى تسافر الى الهند أو العائدة منها ألا تمر على موانئها ، فهى تتحكم فى مدخل البحر الأحمر بحكم هذا الموقع ٠

بالاضافة لأهمية موقعها الاستراتيجى نجد أن اليمن أكثر خصوبة ، ومناخها أكثر اعتدالا كما أنها غنية بمواردها الطبيعية ، ففى جبل صبر عند تعز يوجد الذهب ، وفى مأرب يوجد الرصاص والكبريت والالمنيوم ، وفى بلاد حجور يتوفر الطلق ، كما يوجد الحديد بكثرة فى صعدة ، وقرب بيت الفقيه يوجد تل يتكون من أعمدة بازلتية استخدمها القوم فى انشاء درجات الصعود إلى التلال وفى مناطق استنبات البن ، كما اشتهرت اليمن بالزراعة ، وخاصة زراعة البن ، ذات النفع الاقتصادى وزراعة العرعر الذى يستخرج منه أنواع الزيوت ، وتنمو غابات على الجانب الغربى للجبال فى اليمن[1] ٠

هذه الأهمية الاقتصادية جعلت اليمن موضع طمع كثير من الدول الأوربية وخاصة البرتغال ، ففى أواخر القرن الخامس عشر الميلادى نجحت البرتغال فى الوصول بحرا الى الهند عن طريق رأس الرجاء الصالح ، كما نجحت فى احتكار التجارة الشرقية بعد الوصول إلى الهند بقليل ، وقد أدى تحول تجارة الشرق إلى الطريق البحرى حول رأس الرجاء الصالح ، إلى حرمان العرب من مصدر هام من مصادر ثروتهم ، وأدى هذا بدوره إلى ضعف بنائهم الاقتصادى ، وحاول العرب مقاومة هذا الغزو الأوربى الجديد ، واسترداد سيطرتهم على نقل التجارة العالمية بين الشرق والغرب ، الا أن محاولاتهم باءت بالفشل ، وتم للبرتغال احتكار هذه التجارة ، وكان موقف اليمن تجاه الغزو البرتغالى موقفا اتسم بالضعف ، نظرا لانشغال حاكمها حينذاك عامر بن عبدالوهاب بتوطيد دعائم حكمه ، من جهة ، ولعدم معرفة اليمنيين بالأسلحة الحديثة التى أتى بها البرتغاليون معهم من جهة اخرى ٠

---

(١) حسين بن على الويسى ـ اليمن الكبرى ص ١٨ ـ ٢٦

وقد حمل لواء الدفاع عن اليمن المماليك ومن بعدهم العثمانيون ، فقد ارتبط فتح العثمانيين لليمن مع فتحهم لمصر سنة ١٥١٧ م • حيث وجد العثمانيون أنه لابد من الدفاع عن البحر الأحمر ، لأن الخطر البرتغالى كان يشتد ويهدد هذا البحر وغيره من البحار الشرقية بوجه عام ، فقد أدرك العثمانيون بعد دخولهم إلى مصر أهمية اليمن الاستراتيجية بالنسبة إلى نزاعهم مع البرتغاليين ، اذ أن الساحل العربى من باب المندب ، حتى الخليج العربى من الناحية الجغرافية لا نجد فيه موقعا آخر له صفات اليمن ومزاياها ، ومع أن الساحل العمانى حوى بعض الخلجان الصغيرة الا أنه كان مأوى للصوص البحر ومحطا لغارات القبائل البدوية ، وكان الارتكاز عليها بالنسبة للعثمانيين فى أعمالهم فى المحيط الهندى خروجا مبالغا فيه عن مجال الدولة الحيوى ، لأنه لم يكن من المعقول أن تأخذ الدولة العثمانية قاعدة رئيسية لها على الساحل العمانى أو الخليج العربى نظرا لعلاقتها العدائية مع فارس على الدوام ، فأصبح الخليج العربى طريقا شبه مقفول من الشمال إلى الجنوب ، لذلك رأت أن تتخذ من اليمن قاعدة ارتكاز لشن هجومها على البرتغاليين ، ولإحكام غلق البحر الأحمر فى وجه السفن البرتغالية خاصة ، والسفن الأوربية عامة ، وجعله بحيرة اسلامية ، كما أنها وجدت أنه بالامكان قطع الاتصال البرتغالى الحبشى عن طريق هذا البحر أيضا ، اذ أن تحالف البرتغاليين مع الأحباش كان بمثابة نذير خطر فى هذا البحر ، بالاضافة إلى تطهير السواحل العربية الجنوبية من الجيوب البرتغالية المتناثرة بها ، فتحولت السواحل اليمنية بذلك إلى قاعدة بحرية هامة عند مدخل البحر الأحمر الجنوبى ، كما تحول هذا البحر بدوره الى بحيرة عثمانية •

ولعبت هذه الحقيقة الدور الرئيسى فى رسم سياسة العثمانيين البحرية فى البحار العربية الجنوبية لفترة امتدت حوالى قرن من الزمان ، وهى السياسة التى انتهت إلى منع البرتغاليين وباقى القوى الأوربية التى وصلت إلى المياه الشرقية مع نهاية القرن السادس عشر من التوغل فى البحر الأحمر •

كذلك كانت الأهمية الاستراتيجية هى العامل الرئيسى أيضا فى حرص العثمانيين على ابقاء نفوذهم فى اليمن ، بل وتدعيم هذا النفوذ كلما أمكنهم ذلك حتى خرجوا من

اليمن سنة ١٦٣٥ م ، فقد قال أحد الكتاب المحدثين « كانت اليمن احدى أمنيات السلطان سليمان وغاية ما يصبو اليه ، نظرا لأهميتها من الناحية العسكرية ، والموقع الاستراتيجى المهيمن على شواطىء البحرين العربى والأحمر »[١] ٠

فكان هدف العثمانيين الأساسى من اتخاذ اليمن قاعدة الارتكاز ضد البرتغاليين فى المحيط الهندى والبحر الأحمر هو حماية الأراضى المقدسة من الخطر البرتغالى ٠

يوضح هذا الغرض قول السلطان سليم الثانى عندما أرسل سنان باشا إلى اليمن لفتحه قائلا : « ان استردادنا لمملكة اليمن وان كان ذلك مما يتعين علينا لأنها ميراث أبينا المرحوم المقدس ، لكن جل قصدنا من ذلك انما هو حفظ ثغر عدن صونا للحرمين الشريفين من الكفار الملاعين »[٢]

لذلك فرضت الدولة العثمانية تقليدا جديدا يقضى بمنع دخول المراكب المسيحية فى البحر الأحمر بحجة أنه يطل على الأماكن المقدسة للمسلمين فى الحجاز وهو التقليد الذى ظلت الدولة العثمانية متمسكة به حتى أواخر القرن الثامن عشر الميلادى ، فقد كان العثمانيون يرون تشريفا لهم حماية الأماكن المقدسة فى الحجاز وكذلك بسبب انتقال خلافة المسلمين اليهم ، حتى تتوفر لهم الزعامة الروحية والسياسية اللازمتان لمواجهة الغرب المسيحى ، يضاف إلى ذلك عاطفة دينية متأججة ، وحب شديد لأهل الحرمين الشريفين ، عرف بها سلاطين آل عثمان ، بالاضافة إلى أن العثمانيين حاولوا ادخال النفوذ العثمانى فى الخليج العربى من قاعدة اليمن لتوجيه الضربات من هناك إلى فارس ، فقد اتضح للعثمانيين أن الأراضى الجبلية وقسوة الطقس فى منطقة الحدود بين الدولتين قد جعلت من الصعب الانتصار أو هزيمة ايران من ناحية الشمال ، فقد غزا السلطان سليمان القانونى فارس سنة ١٥٣٤ م ، ١٥٣٥ م ٠ فحاربته الطبيعة حربا مهلكة ، وأضحى العثمانيون كالموتى المدفونين فى وسط الثلوج ، وتحطمت خيامهم بسبب العواصف ، وكان السلطان نفسه فى خطر شديد وغطيت الأرض بجثث القتلى منهم وفاجأ العثمانيين المطر ليلا فكان الفرس كالذئاب وسط الأغنام وهرب القواد العثمانيون ،

---

(١) أحمد حسين شرف الدين ـ اليمن عبر التاريخ ص ٣٥٨

(٢) قطب الدين ـ البرق اليمانى فى الفتح العثمانى ص ٢١٢

وأسرع سليمان بما تبقى من جيشه إلى الفرار بعد أن اذاقته الطبيعة شر هزيمة[1] ٠

وكانت هذه الهزيمة من أهم أسباب فتح اليمن والتفكير فى الوصول إلى فارس عن طريق الخليج العربى ، وكانت أهداف العثمانيين من حرب فارس هى تحقيق الزعامة على العالم الاسلامى ، فقد كان الاستحواذ على الزعامة فى العالم الاسلامى شيئا مقررا فى سياسة العثمانيين وهذه الزعامة آلت اليهم فى مصر بعد فتحها وفى الحجاز تبعا لذلك ، غير أنهم فشلوا فى الوصول إليها فى فارس ، وكان فتح اليمن أمرا ضروريا لتحقيق هذه الزعامة وتكملة لها ، وخاصة لما كان يسود الجزيرة العربية من زعامات مذهبية كان ينبغى أن تنصهر جميعا ليمكن خضوعها للزعامة الجديدة خضوعا طبيعيا ، وكان اليمن حجر الأساس للسياسة العثمانية فى ذلك الجزء من الجزيرة العربية ٠

كان نشوب الحروب بين مسلمى عادل وغيرها من مسلمى الشاطىء الغربى للبحر الأحمر ومعهم العثمانيون فى بعض الموانىء من جانب وبين الأحباش يشجعهم البرتغاليون ويمدون لهم يد العون من جانب آخر ، من أهم الأسباب كذلك لفتح العثمانيين اليمن ، وكان حلول العثمانيين محل المماليك فى مصر توريثا لهم الخلافة والزعامة ، كما أورثهم أيضا مهمة حماية العالم الاسلامى من ذلك الخطر الداهم ومحاولة انقاذ تجارة الشرق ، بعد أن أخذ معينها ينضب ، وأخذ الشرق الغنى يقف على أبواب فقر مدقع ٠

كما أن الموقف فى الهند كان يستدعى عملا حاسما عاجلا من العثمانيين لأن الولايات الاسلامية كانت محاطة بأخطار جسيمة تتهددها ، فالبرتغاليون يحاولون تثبيت أقدامهم على السواحل ، ويملأون البلاد بالمؤامرات والدسائس ، والولايات الهندوكية تنتهز الفرصة المواتية للانقضاض وشن الحروب ، والخطر المغولى بين مده وجزره يفرض عليها كثيرا من الارتباك ، وانهالت على العثمانيين صيحات مسلمى الهند ، ورأى العثمانيون أن اجابة هذه الرغبة تحقق غرضا مزدوجا ، فإلى جانب تحقيق الزعامة على العالم الاسلامى ، فقد بدت فى الأفق الفرصة ليجدوا حلفاء طبيعيين فى هذه الأماكن للاستعانة بهم فى القضاء على النفوذ البرتغالى ، وانقاذ تجارة الشرق الغنية ٠

---

(١) البحراوى ــ فتح العثمانيين عدن ص ١٤٦

ولاشك أن ما بعث به المستغيثون إلى السلطان ورجال حكومته ، كان مقياسا على ثراء وغنى هذه البلاد ، مما لفت نظر العثمانيين وزادهم رغبة فى القيام بذلك المجهود ، ومن ثم أضحى فتح العثمانيين لليمن أمرا مقررا وخطوة تأسيسية لذلك المجهود كله ٠

ولم يمض النصف الأول من القرن السادس عشر الميلادى إلا وكان العثمانيون قد طردوا البرتغاليين من البحر الأحمر واستولوا على الموانىء الهامة على شاطئيه الافريقى والآسيوى ، وجعلوا من البحر الأحمر بحيرة عثمانية أغلقوها فى وجه السفن المسيحية ٠

واذا كان العثمانيون قد تمكنوا من وقف التوسع البرتغالى وتأمين البلدان العربية وخاصة فى حوض البحر الأحمر من عدوان البرتغاليين ، فانهم عجزوا فى النهاية عن تحقيق غايتهم الرئيسية وهى تحطيم السيطرة البرتغالية فى المحيط الهندى ، واعادة التجارة إلى طرقها السابقة ٠

ولذلك بدأ ارتخاء قبضة الدولة على اليمن شيئا فشيئا ، ولم يكن هذا الارتخاء مفاجئا بل أخذ يظهر تدريجيا حسب تطور الأحداث ، فقد أدى تطور الأحداث فى أوربا إلى ضعف موقف البرتغاليين فى الشرق بوجه عام ، فقد دخلت البرتغال فى حكم اسبانيا لمدة ستين عاما أى من سنة ١٥٨٠ م ـ ١٦٤٠ م ٠ وكانت البرتغال قد أجبرت على أن تشترك بأسطولها مع الأسطول الاسبانى الذى عرف باسم الأرمادا الذى لايقهر[١] ، فى الهجوم على انجلترا ، فقد تحطم الأرمادا أمام الشواطىء الانجليزية ، وفقدت أسبانيا والبرتغال معا سيطرتهما على البحار ، واتضح ضعف البرتغال بجلاء عندما عجزت فى سنة ١٥٩٥ م عن صد هجوم انجلترا على سواحلها[٢] ، وذلك عندما هاجم الانجليز ميناء فارو البرتغالى ، كذلك بدأت البرتغال تفقد احتكارها لتجارة الشرق فى فترة دخولها فى حكم أسبانيا ٠

وبذلك انتهت حدة الصراع البرتغالى العثمانى فى البحر الأحمر ، وبدأ اهتمام الدولة العثمانية باليمن يقل عما كان عليه فى الماضى ، أيام اهتمام سلاطين الدولة بمحاربة البرتغاليين ، واغلاق مداخل البحار فى وجوههم ، ثم أصبح جل اهتمامهم موجها إلى

---

(١) حاطوم ـ عصر النهضة الاوربية ص ٢٧٠ ، البحراوى ـ فتح العثمانيين عدن ص ١٢٦

(٣) ل ٠ ج ٠ سينى ـ العالم الغربى ص ٢٢٦ ، ٢٢٧

الكفاح ضد الدول الأوربية فى الميدان الأوربى ، بالاضافة إلى الاضطرابات الداخلية فى الدولة ذاتها ، ولذلك أخذت سيطرتهم على اليمن تضعف تدريجيا .

لكن هذا لم يمنع القوى البحرية الأوربية الكبرى من ارتياد هذه البحار ، اذ بعد أن ضعف البرتغاليون ، أتت هذه القوى فى اتجاه الهند ، لكنهم لم يعنوا كثيرا بأمر الصراع الصليبى ضد المسلمين ، ولم تفكر كما فكر البرتغاليون فى الاعتداء على الأراضى الحجازية المقدسة ، هذا إلى أن القوى البحرية الاوربية كانت تعنى بالدرجة الأولى بأمر التجارة ، خاصة أن النشاط البحرى الهولندى والانجليزى والفرنسى كان قائما على أساس شركات كبرى تجارية تسعى وراء الربح ، لا وراء التعصب الدينى الذى تميز به رجال شبه جزيرة ابيريا[1] .

فقد نجحت هولندا فى سنة ١٥٩٥ م فى إرسال أول حملة بحرية لها حول رأس الرجاء الصالح ،وذلك بقيادة أحد مواطنيها ويدعى (هوتمان)الذى عمل بعض الوقت على ظهر السفن البرتغالية ، ورغم أنه كان من المتوقع أن تنجح باقى قوميات أوربا فيما بعد فى منافسة البرتغال فى تجارة الشرق ، فقد كانت سياسة فيليب الثانى الأوربية هى التى دفعت الهولنديين الى التعجيل باتخاذ هذه الخطوة الجريئة التى أنهت إلى الأبد احتكار البرتغال لتجارة الشرق ، فقد كان فيليب الثانى قد أغلق أسواق لشبونة فى وجه تجار الأراضى الواطئة سنة ١٥٩٤ م . وبدأ هؤلاء يتلمسون طريقهم الخاص إلى المصادر الأصلية للتجارة الشرقية ، ونجحوا فى الوصول إليها فى العام التالى مباشرة [2] .

ونجحت كذلك انجلترا بعد قليل فى الوصول إلى الهند بحرا عن طريق رأس الرجاء الصالح ، كما نجحوا خلال رحلتهم الأولى هناك سنة ١٦٠٣ م فى تأسيس العلاقات التجارية واقامة المحطات والمراكز التجارية فى سومطرة وجاوه وغيرهما من جزر الهند الشرقية[3] .

---

(١) نوار ـ الشعوب الاسلامية ص ١٠٩

(٢) جاد طه ـ السياسة البريطانية ص ٢٦

(٣) البحراوى ـ فتح العثمانيين عدن ص ١٠٤

وقد بدأ النفوذ البرتغالى منذ ذلك الحين يأخذ طريقه إلى الانهيار للمنافسة الخطيرة التى واجهها على يد الانجليز والهولنديين ، وكان نجاح الانجليز والهولنديين فى هذه المناطق سريعا وحاسما ، فلم ينتصف القرن السابع عشر الميلادى تقريبا الا وكانت البرتغال قد فقدت معظم أجزاء امبراطوريتها الساحلية الواسعة التى كانت تمتد على السواحل الافريقية والآسيوية من رأس الرجاء الصالح إلى الصين واليابان ٠

ويرجع نجاح هؤلاء القادمين الجدد إلى الشرق فى الغالب إلى ترحيب أمراء وأهالى الشرق بهم ، وذلك نكاية فى البرتغاليين أو للاستعانة بهم فى التخلص منهم ، وقد وجد الانجليز طريقهم إلى المخا سنة ١٦١٨ م فكانت المحاولات الأوربية للتردد على ميناء مخا ، فقد حاول الكابتن الكسندر شاربى Sharpey الانجليزى فى سنة ١٦٠٩ م ، وتأرجح موقف العثمانيين فى بداية الأمر ازاء تردد هؤلاء الانجليز على الساحل اليمنى ، فقد وافقوا تارة على اشتغال الانجليز بالتجارة فى المخا ، ومنعوهم تارة أخرى ، وذلك حتى عام ١٦١٨ م ٠[١] حين حصل الانجليز على ما يسمح لهم بحرية التجارة فى هذا الميناء دون أن يتعرض لهم أحد بأذى ، واستقبل حاكم المخا العثمانى الكسندر شاربى بتسامح كبير سنة ١٦٠٩م ولكن عندما جاء السير هنرى مدلتون Henry Middelton

من قبل شركة الهند الشرقية فى العام التالى استقبله حاكم الميناء حينئذ بفتور شديد ، ثم أرسله إلى صنعاء بعد أن سجنه بعض الوقت فى مخا ، ثم أطلق سراح مدلتون بعد قليل بعد أن تعهد ألا يتردد مرة أخرى على ميناء مخا أو أى موانىء عربية أخرى ٠

ورغم ذلك ، فقد تقدم الكابتن ساريز Saris إلى ميناء مخا بعد ذلك بقليل ، فلم يقابل بمثل هذا العنف الذى قوبل به مدلتون ، ولكنه لمس أن الروح العامة هناك لا تشجع على استمرار اشتغاله بالتجارة[2] ٠

---

(١) هارولد . ف . يعقوب ـ ملوك شبه جزيرة العرب ص ١٧ ، د . عبدالحميد البطريق ـ من تاريخ اليمن الحديث ص ٣٦

(2) Playfair/ A history of Arabia P.1.5.110 —

والواقع أن موقف العثمانيين المتأرجح تجاه الأوربيين يرجع إلى السياسة التى وضعتها الدولة العثمانية فى هذه البحار التى تقضى بعدم توغل السفن الأوربية فى البحر الأحمر الذى يشرف على الحجاز والحرمين الشريفين ، ورغم ذلك فقد سمح العثمانيون فى تردد وحذر بأن تقوم السفن الأوربية التجارية بالتردد على ميناء مخا اليمنى ، والاشتغال بالتجارة فيه ، لكنهم منعوا هذه السفن من التوغل إلى داخل البحر الأحمر بل جعلوا السفن العربية تنقل البضائع من ميناء مخا إلى باقى موانىء البحر الأحمر حتى موانىء مصر ٠

وهكذا كان ضعف البرتغاليين وانتهاء النفوذ البرتغالى هو أهم العوامل التى جعلت الدولة العثمانية تصرف النظر بعض الشىء عن التمسك بوجودها فى اليمن ، وخاصة عندما اطمأنت إلى انتهاء التحالف الصليبى الحبشى البرتغالى حيث كان البرتغاليون يبذلون محاولات مستميتة لتدعيم نفوذهم فى الحبشة ، وذلك بربط كنيستها الأرثوذكسية بالكنيسة البرتغالية الكاثوليكية ، وكان ذلك من أهم الأسباب التى عجلت بمجىء العثمانيين إلى اليمن ، للقضاء على هذا التحالف الصليبى الذى يهدد البلاد الاسلامية ، وكان البرتغاليون قد اتخذوا الخطوات العملية لتنفيذ هدفهم الصليبى سنة ١٥٤٦م ٠ عندما أرسل ملك البرتغال إلى النجاشى خطابا يصرح فيه أنه سوف يرسل بطريكا من قبله لرياسة الكنيسة الحبشية ، وليهدى الأهالى إلى الطريق المستقيم ، ويساعد النجاشى فى تدبير شؤونه ، لكن رد النجاشى كان ردا غامضا عاما ، اذ لم يقطع برأى محدد فى هذا الأمر حتى لايحرم نفسه من مساعدات البرتغاليين له ، وذلك بسبب حاجته إلى المساعدات حتى ذلك الحين ٠

ولكن الملك البرتغالى أرسل مندوبا عن البطريك لاتخاذ الخطوة اللازمة ، فوصل هذا المندوب إلى الحبشة سنة ١٥٥٧م ٠ ورأى أن العثمانيين قد بسطوا نفوذهم على مصوع[1] واشتد النزاع والصدام العلنى بين أباطرة الحبشة وبين المندوب البرتغالى ، واشتد هذا الصدام فى عهد ميناس سنة ١٥٥٩ م لأن هذا الامبراطور اتبع سياسة دينية عنيفة ، فمنع الأحباش من دخول الكنائس اللاتينية ٠

---

(١) البحراوى ـ فتح العثمانيين عدن ص ٩٦
الحبيد ، مقال سفارة الامام المتوكل بن القاسم من مجلة كلية الشريعة ص ١٩

وانتهت هذه المصادمات والحروب إلى اضعاف النفوذ البرتغالى فى الحبشة فلم يعد البرتغاليون الحلفاء الأوفياء لأباطرة الحبشة ، ولم يعد هؤلاء الأباطرة يثقون بهم أو يطلبون مساعدتهم ، بل عملوا بعد ذلك على التخلص منهم وطردهم خارج الحبشة ، لأن الأحباش رفضوا تغيير عقيدتهم ، وتطورت الخلافات التى دارت حول هذا الموضوع إلى حرب عنيفة بين الأحباش وبين البرتغاليين ، أدت فى النهاية إلى فتور العلاقات الحبشية البرتغالية ، بل وإلى طرد البرتغاليين من الحبشة فى نهاية القرن ١٦ م تقريبا ·

وبذلك خف الضغط الصليبى سواء من الأحباش أو من البرتغاليين ، مما جعل أهمية اليمن تقل بسبب هذا الانهيار فى القوى الحبشية والبرتغالية ·

أما وقد أصبح اليمن فى مأمن ولا خطر عليه ، فان أمر استمرار الحكم العثمانى فيه أو عدم بقائه قد أصبح رهن مكاسب الدولة العثمانية منه ، وحيث إن اليمن كان قد أبدى مقاومة دموية كلفت الدولة العثمانية الكثير من الجهد والمال والدماء ، فلماذا يستمر هذا التورط ؟ وحيث إن بقاء القوات العثمانية أصبح متعذرا ومكلفا ودون هدف واضح فلا ضير من أن يترك اليمن لأهله ·

بعد افتقار تجارة الشرق الغنية ، ونضوب معينها ، وبعد أن اكتشف البرتغاليون رأس الرجاء الصالح ، اتجه العثمانيون إلى استغلال ميناء مخا للتجارة بدلا من ميناء عدن لأن هذا الميناء تحول خلال النزاع البحرى بين العثمانيين والبرتغاليين إلى قلعة حربية عند مدخل البحر الأحمر مما ساعد على اضعاف أهميته التجارية ·

وكان اكتشاف زراعة البن فى المنطقة الخلفية لميناء المخا وتحول محصوله إلى محصول اقتصادى ، قد جعل العثمانيين يحولون أنظارهم إلى هذه الزراعة الهامة ذات النفع الاقتصادى ، والتى تجود بها أرض اليمن ، حيث تتوفر فيها المياه الجوفية ، وخصوبة تربتها البركانية ، ونشاط شعبها ، واتقانه زراعة البن على المدرجات الجبلية ، هذا المحصول الاقتصادى بالاضافة الى قرب ميناء المخا من السواحل الأفريقية المواجهة له ، جعلت العثمانيين يستفيدون من وراء تلك التجارة ، ولكن الحروب التى وقعت فى اليمن فى القرن السابع عشر أثناء مناهضة العثمانيين للإمام القاسم ودعوته ،

جعلت هذه الثمرة الاقتصادية تيبس بسبب اهمال الأهالى للزراعة ، وبسبب الحروب المستمرة ، وخاصة فى جبل صبرة ، حيث تعرضت هذه الأشجار للقطع والحرق والآفات الزراعية « ولاسيما حين طلع أهل الحجرية سنة ١٠٠٦ هـ على المزارع فقطفوا البن قطعا لأشجاره وتحريقا لجذوعه وعروقه وآثاره »[١] .

وكان نضوب هذا المورد بالاضافة إلى ضعف النفوذ البرتغالى والتحالف الحبشى قد أدى إلى أن اليمن قد فقدت أهميتها الاقتصادية كذلك ، وقلل من أهميتها فى نظر العثمانيين ، بالاضافة الى الخلل الذى طرأ على الدولة حينذاك وانعكس على اليمن ، وما تكبدته الدولة من خسائر كبيرة بسبب كثرة الحروب المستمرة منذ وصولها إلى أرض اليمن ، فقد أصيبت الدولة العثمانية فى آخر القرن السادس عشر بالاختلال العسكرى والضعف فى كافة مرافقها وكانت الدولة فى حالة عجز تام عن القيام بأى عمل حاسم حتى فى اليمن ، فان اعداد الجيوش الذاهبة إلى اليمن كان يوكل من أمرها الى والى مصر ، غير أن ضعف الدولة العثمانية بوجه عام كان ينعكس على ولاياتها ، لذلك لم تستطع مصر امداد اليمن بالجيوش التى كان يلح فى طلبها ولاة اليمن ، فقد بدأ هذا الخلل من عهد السلطان سليمان القانونى يظهر فى نظم الدولة العثمانية وأوضاعها ، الا أن قوة شخصية السلطان سليمان ، وقوة نظم الدولة وتماسكها حتى ذلك الحين قد أخفى آثار هذه الاضطرابات إلى أمد بعيد ، لكن عندما تولى الدولة خلفاء ضعاف بدأ هذا الخلل يظهر فى أسمى معانيه على جميع أجزاء الدولة وخاصة فى الأطراف البعيدة النائية ، وخاصة اليمن التى تكثر بها الفرق المذهبية .

وقد تعرضت فى الفصل الخامس لهذا الخلل الذى دب فى أوصال الدولة العثمانية وأسبابه وكيفية انعكاسه على أوضاع اليمن ، مما جعل الدولة تغير أهدافها من فتح اليمن ، التى أخذت تقل أهميتها تدريجيا حتى انعدمت تلك الأهمية . أو كادت ، ومن ثم كان اخلاء اليمن ، بالاضافة الى انشغال الدولة العثمانية حينذاك فى مشاكلها الأخرى الأكثر الحاحا ، ثم ان بعد اليمن عن مقر السلطنة وصعوبة فرض السيطرة

---

(١) الموزعى ـ الاحسان فى دخول اليمن تحت ظل عدالة آل عثمان ص ٥٢

العثمانية بسبب ذلك قد عجل من ارتخاء قبضة الدولة عليها مما جعل هذه السيطرة تنكمش تدريجيا .

ويضاف إلى ذلك كله سوء سياسة الولاة وعدم اهتمامهم برعاية شؤون الأهالى ، بالاضافة الى تقسيم اليمن الى ولايتين مما أضعف قوة العثمانيين الذاتية وذلك لتنازع الواليين حول الأموال والقوات وتعيين الحدود بين ولايتيهما ،(١) وأدى تذمر اليمنيين من سوء الأحوال فى بلادهم إلى الوقوف فى وجه العثمانيين وكان لقوة شخصية الإمام ومهارته السياسية والعسكرية أثر فى الاحتفاظ بوحدة الجبهة الزيدية تحت زعامته ، ثم تحت زعامة أولاده من بعده ، حتى تم اخلاء اليمن فى عهدهم .

وكان من أهم مظاهر ضعف الحكم العثمانى ، وبداية نهايته فى اليمن عقد الصلح لأكثر من مرة مع الامامة الزيدية ، وكان أول صلح فى عهد الدولة القاسمية فى عهد الامام القاسم سنة ١٠١٦ هـ مع جعفر باشا ، الذى أتى اليمن وقد تنازعته الفتن والاضطرابات بسبب سياسة سنان باشا القاسية ، ووجد جعفر باشا أن من مصلحة الدولة عقد صلح مع الامام لتهدئة الأحوال به ، وقد أملى الإمام القاسم شروطه فى هذا الصلح على جعفر باشا بما يظهر مدى التوازن بين القوتين ، وكان هذا الصلح فى الحقيقة تتويجا لانتصارات الإمام القاسم فى نهاية النهضة الثانية ، حتى ان الجرموزى صاحب سيرته وصفه بأنه كصلح الحديبية .

ولعل الجرموزى قال بقولته هذه نتيجة مقارنته بين الصلحين ونتائجهما فقد استفاد المسلمون من صلح الحديبية اعتراف قريش بقوتهم ومركزهم واعترفت الدولة العثمانية بقوة الإمام القاسم ومركزه ، وإلا لما عقدت معه الصلح ، فان عقد الصلح معناه فى الحقيقة الاعتراف بقوة الطرف الثانى ، وخاصة أن الإمام القاسم هو الذى أملى على جعفر باشا شروط الصلح .

وكما تمكن المسلمون أثناء الهدنة من نشر الاسلام بين القبائل العربية ، فقد استطاع الإمام أثناء هذا الصلح ، أن ينشر دعوته بين القبائل ، التى كانت تتردد فى الوقوف إلى جانبه ، خوفا من بطش العثمانيين ، بالاضافة إلى أن بعض القبائل الواقفة

---

(١) الموزعى ـ الاحسان فى دخول اليمن تحت ظل عدالة آل عثمان ص ١٣ ، النهروالى ـ البرق اليمانى فى الفتح العثمانى ص ١٥٩

إلى جانبه كانت طامعة فى الغنائم وليس لنصرة دعوته ، اذ كان هناك الكثير من البدع والخرافات المنتشرة بين أهل اليمن ، ولم يستطع الإمام القضاء عليها ، أو اقامة الحدود ، لانشغاله بالحروب المستمرة وتنقله من اقليم إلى آخر ، فكان هذا الصلح تدعيما لنفوذه فى البلاد حيث استطاع أن يقيم الحدود الشرعية ، ويقضى على البدع ، ويضع البذرة الأولى للدولة القاسمية .

كما كسب المسلمون عطف القبائل العربية بعد أن منعتهم قريش من الحج[1] فقد استطاعت القبائل أثناء الصلح أن تتصل بالإمام دون خوف من العثمانيين وناصروا دعوته ، وانضموا إليه بالآلاف لأنهم آمنوا واطمأنوا بهذا الصلح[2] .

وهكذا كان لهذا الصلح أثر فى تطور تاريخ اليمن فيما بعد ، فقد أعقبه عدة مصالحات ، كانت ظروفها تقريبا متشابهة ، معبرة عن مدى ضعف نظام الحكم العثمانى وخلخلة نظمه ، ففى صلح سنة ١٠٢٨ هـ الذى عقده الإمام القاسم أيضا مع محمد باشا ، بعد أن رفض الأخير أول الأمر هذا الصلح ، لأنه اغتر بمعلوماته النظرية عن أوضاع اليمن ، وأصر على شن الحرب على الامام ، الا أن واقع اليمن خيب آمال محمد باشا ، فعاد إلى الموافقة على الصلح مع الإمام بعد حروب استمرت ثلاث سنوات متواصلة ، لم يستطع أن يحرز فيها نصرا يذكر ، بل على العكس تمكن الإمام خلالها من أن يوسع ممتلكاته فى المنطقة الشمالية على حساب العثمانيين .

وكذلك صلح سنة ١٠٤٠ هـ الذى عقد بين الامام المؤيد وقانصوة باشا الذى أتى لانقاذ السيطرة العثمانية بعدما أصابها من تدهور على أيدى أولاد الإمام القاسم الحسن والحسين ، وبعد أن استطاعوا خلال عامين من وفاة والدهم مدّ سيطرتهم إلى أقاليم اليمن المختلفة بما فيها صنعاء وتعز ، ولم يبق فى أيدى العثمانيين سوى زبيد ، وقد أتى قانصوة باشا لارجاع هيبة العثمانيين فى اليمن كله ، لكن أعماله باءت بالفشل وتقاعس قانصوة باشا عن القيام بأى عمل ايجابى ، مما اضطره إلى طلب الصلح من الإمام المؤيد فى شهر المحرم سنة ١٠٤٠ هـ[3] .

---

(١) أمين دويدار ـ صور من حياة الرسول (صلى الله عليه وسلم) ص ٤٦٧

(٢) السرقى ـ اللآلىء المضيئة ص ٢١٠

(٣) يحيى بن الحسين ـ أنباء أبناء الزمن ص ١٦٧

ثم عقد صلح آخر فى عهد الإمام المؤيد سنة ١٠٤٥ هـ بينه وبين قانصوة باشا أيضا الذى حاول أن يقوم بانتفاضة أخرى لاعادة السيطرة العثمانية ، وتركزت جهوده هذه المرة فى زبيد والمخا حيث أرسل حملة إلى جيزان للاستيلاء عليها بغتة ، مما اضطر شيوخ تلك المناطق إلى اللجوء للإمام المؤيد والاستعانة به ضد العثمانيين ، وقد انسحبت جميع الحاميات العثمانية إلى تهامة لتركيز الدفاع عنها عندما علمت بتحرك جيوش الامام المؤيد إلى زبيد ، وأظهر العثمانيون حينذاك نشاطا حربيا ملحوظا ، حتى لايضيق حولها النطاق ، لكن جهود الحسن بن القاسم وقواته ، بالاضافة إلى التفاف أهالى المنطقة الجنوبية حوله ، أدت إلى الحاق الهزائم بالعثمانيين واضطر قانصوة باشا إلى طلب الصلح فى محرم سنة ١٠٤٥ هـ .

وهنا كانت نهاية العثمانيين فى اليمن حيث طلب قانصوة باشا بعد هذا الصلح بشهر واحد مغادرة اليمن دون شرط أو قيد ، وتم جلاء العثمانيين سنة ١٠٤٥ هـ - ١٦٣٥ م .

هذه المصالحات بالاضافة الى سوء السياسة العثمانية فى اليمن جعلت أمر استمرارهم فيه أمراً محالاً ، فان اليمن لم تنعم باستقرار فى عهد واحد من الدول التى تتابعت عليها ، ومنيت البلاد بنظام مزدوج عجيب لم يصب به جزء آخر من الجزيرة العربية ، فقد وجد فى اليمن نظام الولاية ونظام الامامة ، وكان للوالى كما رأينا مناطق نفوذه ، وللدولة مناطق نفوذ أخرى ، وكانت القوتان فى عراك مستمر وكر وفر ، وقد عرف هذا العصر بعصر ثنائية السلطة فى غرب الجزيرة العربية أى فى اليمن والحجاز حيث كان نظام الشرافة أو حكم الأشراف فى الحجاز إلى جانب الوالى العثمانى ، وهذه الثنائية فى كل منهما كانت هى العامل الفعال فى تشكيل تاريخ اليمن ، وتاريخ الحجاز فى العصور الحديثة ، وقد تباينت سياسة العثمانيين فى هذين الجزأين بشكل واضح ، فبينما ساير العثمانيون ظروف الحجاز وأقروها ، حيث كانت علاقتهم باشراف الحجاز علاقة طيبة ذات نتائج مفيدة ، وقد غمر السلاطين العثمانيون الحجاز بالكثير من عطفهم ، وحسن سياستهم ، وكان كل منهم لايتردد فى اقرار الشريف على امارته ، وارسال الخلع والهدايا إليه ، ومن الواضح أن قرب الحجاز للدولة العثمانية بالنسبة

لليمن ، ثم توفر العاطفة الدينية ، كان لذلك تأثير بعيد المدى فى السياسة التى نعم بها الحجاز .

أما بالنسبة لليمن فقد كان له وضعه الخاص داخل الاطار العثمانى العام نظرا لطبيعته البشرية والطبيعية ، اذ أننا نجد أن البيئة اليمنية تختلف فى تنوع سكانها فهناك الشافعى والزيدى والاسماعيلى ، وهناك السهلى والجبلى ، وقد رأينا التطاحن الذى حدث بين الزيدية والقوى السياسية المتمثلة فى الدولة العثمانية .

وكذلك أدى وجود الجبال والمرتفعات عموما إلى التقليل من فاعلية الجيوش العثمانية لتحصن أهل اليمن بها ودرايتهم بمسالكها ، وجعل الفقر الاقتصادى لهذه المناطق أهل اليمن أكثر حساسية من غيرهم ، لذلك نجد أن اليمن كانت أحق بسياسة التهدئة من جانب العثمانيين ، ويزيد الحاجة إلى ذلك ، أن اليمن كانت تواجه منطقة الخطر البرتغالى ، وان اليمن نقطة ارتكاز لمشروعاتهم فيما وراء البحر الأحمر ، غير أن ما حدث هو العكس ، فقد اقترن الفتح العثمانى لهذه المنطقة بسفك الدماء والهدم والتخريب ، وزاد الحالة سوءا بُعد هذه المنطقة عن عيون الدولة ، مما شجع الولاة العثمانيين على ارتكاب المظالم دون أن تدرى الدولة بذلك ، كما حدث فى عهد سنان باشا ، حيث كان الأهالى يرفعون مظالمهم الى السلطان ، ولا يجيبهم عليها لعدم وصولها إليه بسبب تواطؤ سنان باشا مع أحد الوزراء فى الآستانة ، وعندما مات هذا الوزير وجدت شكاوى أهل اليمن مخبأة عنده ، لذلك كان استقرار الحكم العثمانى فى اليمن أمرا صعبا ومكلفا .

ونتيجة لذلك كله تغيرت نظرة اليمنيين إلى العثمانيين رغم سمو الهدف الذى أتت الدولة العثمانية من أجله الى اليمن ، وهو حماية الأراضى المقدسة من الخطر البرتغالى الصليبى ، لكن سوء السياسة العثمانية فى اليمن ، وسوء تصرفات بعض الولاة والعمال والجنود العثمانيين كانت تثير ضيق اليمنيين وتذمرهم منهم ، فقد أتى هؤلاء ببعض التصرفات التى كانت تسىء إلى سمعتهم الأخلاقية والدينية رغم ما كانوا يشيعونه من أنهم حماة الاسلام ، وكانت هذه التصرفات إما أعمال سلب ونهب فردية ، أو ابتزازا لأموال الأهالى لتغطية تكاليف الحياة التى كانت لاتتفق مع مرتبات العثمانيين

المنخفضة حينذاك ، والتى كانت لا تتناسب مع ميلهم إلى الترف والبذخ ، بالاضافة إلى الأخطاء الأخلاقية ، التى تقع دائما من جانب جنود جيش أجنبى عن البلاد ، مثل اقبالهم على الزنا وشرب الخمر والولع باللهو والطرب ، وغير ذلك مما كان يثير أهالى البلاد ، وكل هذه التصرفات جعلت الإمامة القاسمية تنظر إلى العثمانيين بأنهم رجال خارجون على أصول الاسلام ، ويتضح ذلك من النعوت التى شاعت فى هذه الفترة ، فكانوا كثيرا ما يطلقون عليهم الظالمين ، ويطلقون على أنفسهم جنود الحق أو المجاهدين[1] .

وتظهر هذه النظرة بجلاء فيما أبرزه الكتاب والمؤرخون اليمنيون المعاصرون وقتذاك على اختلاف مواقفهم ، فقد أبرزوا الكثير من أخطاء العثمانيين الاجتماعية التى كانت تؤذى مشاعر اليمنيين ، ومن صور هذه التصرفات ما ذكره أحد المعاصرين قائلا : « وأما النسوان ففى كل مدنهم لهن حوانيت معروفة مأهولة للفساد ، متخذة لهذا المعنى ، وكل فاسدة تزين نفسها وبابها وتعرض لمن مر عليها ، وعليهن وال ، وعلى كل واحد اقبال يومية وشهرية »[2] وذلك بعد أن تحدث عن معاشرة الجنود للصبيان ومجاهرتهم بذلك .

وقد استطرد الجرموزى فى وصف العادات السيئة فقال : « وأما الخمور فظاهرة تدار عليهم فى الأسواق كما يدار بالماء ، .. أما اللهو والطرب فهو عادتهم المعروفة وأخلاقهم المألوفة ، وأما المعاملة فى الربا فظاهرة غالبة عليهم ولا يذكر فيه تحريم ولاتحليل ، وإنما يسمونه فايدة ، والغدر بمن أمنوه يسمونه دولابا »[3] .

وكذلك ما كانوا يفعلونه من القتل والتمثيل بالقتلى وسلخ جلد الشخص وهو حى ، ثم يأخذونه فيملؤونه تبنا ويلبسونه قميصا وعمامة وينصبونه ، أو يدار به ، وكذلك كما فعلوا بالسيد عامر عم الإمام القاسم .

كل هذه التصرفات التى كان يقوم بها بعض الجنود والعمال فى اليمن ، جعلت نظرة اليمنيين تتغير تجاههم بنظرة سيئة لاتتفق وسمو الهدف الذى جاءوا من أجله ، فشحنت

---

(١) الشرفى ـ اللآلىء المضيئة ص ٢٣١

(٢) الجرموزى ـ النبذة المشيرة ص ٨٨

(٣) الجرموزى ـ النبذة المشيرة ص ٨٩

النفوس كرها لهم وبغضا ، وأتى حين كان الجهاد ضد العثمانيين أقدس واجبات الزيديين وأقرب إلى الجنة فى رأى الزيدية ، وذلك أيضا كان من أهم الأسباب التى جعلت اليمنيين يلتفون حول الإمام القاسم ويناصرون دعوته .

رغم خضوع اليمن للسيطرة العثمانية ، فان هذه الصراعات المستمرة جعلت من الصعب أن نوضح بالتفصيل حقيقة الوضع الادارى لليمن فى هذه الفترة ، لانصراف أغلب المراجع المعاصرة عن توضيح هذا الموضوع ، غير أن الرسالة التركية التى اعتمد عليها ساطع الحصرى قد قدمت لنا بعض المعلومات الموجزة عن طبيعة الوضع الادارى فى اليمن فى أوائل القرن السابع عشر[١] ، اذ أنها أوضحت أن اليمن لم يقسم إلى اقطاعيات عسكرية مثل أغلب الولايات التابعة للدولة العثمانية فى ذلك الوقت ، بل كانت عبارة عن ايالة أو ولاية ، تضم تسعة ألوية أو سناجق ، هى : صنعاء ، مخا ، زبيد ، تعز ، صهيلة ، كوكبان ، الطويلة ، مأرب ، عدن[٢] .

وأوضحت هذه الرسالة من ناحية أخرى أن ضرائب الولاية اليمنية وتكاليفها المختلفة كانت تجبى باسم خزينة الدولة مباشرة ، أو عن طريق الالتزام ، وكان يخصص لأمرائها ورؤسائها رواتب مقننة ، تدفع لهم من الخزانة ، وتعرف باسم السليانة .[٣]

واتضح لنا من خلال البحث أن الجهاز الإدارى الحاكم فى اليمن هو فى نفس الوقت الجيش المكلف بالمحافظة على السيطرة العثمانية ، وكان والى اليمن هو القائد الأعلى للجيوش العثمانية به ، كما أن السناجق[٤] والكشاف وغيرهم من حكام المدن أو القرى اليمنية هم قادة الفرق العسكرية هناك ، وكان النظام الإدارى فى اليمن يقوم على شكل هرمى ، يقف الوالى عند قمته ، ثم يأتى بعده الكتخدا والدفتردار ،[٥] ثم

---

(١) الرسالة التركية ـ عنوانها قوانين « آل عثمان در مضامين دفتر ديوان » يعنى « قوانين آل عثمان فى ما يتضمنه دفتر الديوان ، ألف هذه الرسالة عين على أفندى سنة ١٠١٨ هـ ـ ١٦٠٩ م الذى كان أمينا للدفتر الخاقانى .

(٢) ساطع الحصرى ـ البلاد العربية والدولة العثمانية ص ٢٣٠

(٣) السليانة ـ المقرر السنوى

(٤) السناجق ـ رؤساء الألوية .

(٥) الكتخدا ـ الوزير ، والدفتردار ـ رئيس موظفى الواردات والخزنة من الولاية .

مجموعة حكام الأقاليم والمدن الهامة أى السناجق والكشاف ، ثم يأتى بعدهم أمراء الآلايات والصوباشية ،[1] وهم قادة الفرق العسكرية الصغيرة ، وحكام المدن أو الأقاليم الأقل أهمية ، وقادة الحاميات والحصون ، ورؤساء للقوات المتناثرة فى أنحاء اليمن ، والتى كانت مهامها حفظ الأمن ٠

كما استعان العثمانيون بأهالى البلاد فى مختلف الوظائف والرتب فى الادارة والجيش ، بصرف النظر عن الاختلافات المذهبية ، فتولى اليمنيون حكم بعض الأقاليم ، وقادوا الفرق العسكرية ، وتولوا الوظائف الادارية والمالية المختلفة ، بل وتولى بعضهم الوظائف الكتابية فى الديوان العثمانى ـ وذلك كما حدث مع أمراء آل شرف الدين ، الذين منحهم العثمانيون الألقاب المختلفة وعينوهم حكاما للمناطق الشمالية أو قادة للفرق العسكرية ، وذلك لخلق طبقة يمنية قوية تلتف حولهم لزيادة سيطرتهم على البلاد ، وكان ضعف الولاة أو فسادهم يؤدى الى انتشار الظلم أو الفوضى فى البلاد لضعف الاشراف العملى على حكام الأقاليم ، وعلى تصرفات الجنود والضباط العثمانيين ٠

وقد رأينا خلال فصول الرسالة أن فساد بعض الأمراء كان يؤدى الى انتشار الفوضى فى الأقاليم ، وأن الولاة الأقوياء مثل جعفر باشا ومحمد باشا كانوا يقفون ضد تفشى الظلم والفساد واستئصال أسباب شكوى الأهالى ٠

وقد تحرى السلاطين ورجالات الدولة العثمانية الدقة فى اختيار ولاة اليمن ، خاصة قبل أن ينتشر الفساد بين نظم الدولة وأجهزتها ، اذ كان يتم اختيار هؤلاء الولاة من بين مماليك السلطان الخاصة ، فيكون السلطان مطمئنا الى سياستهم وتصرفاتهم ، أو ممن تولوا نيابة غزة أو مصر مثل محمد باشا ، وذلك ليكونوا على دراية بأحوال اليمن ، وعلى علم بأخباره ، غير أن تفشى الفساد فى أجهزة الدولة أتاح الفرصة أمام بعض الولاة الضعفاء أو الفاسدين لتولى أمور اليمن ، فقد اعتمد بعض الولاة فى اليمن للوصول إلى مناصبهم على الهدايا والرشوة لرجال استانبول ، أو على قرابته إلى بعض الولاة ، كما رأينا من أمير صعدة العثمانى الذى اعتمد على قرابته من أحد رجالات

---

(١) الصوباشية ـ من يقوم بأعمال الشرطة ٠

الدولة فى استانبول فعمل على عزل والى اليمن جعفر باشا رغم صلاحيته ، وذلك بعد أن عزله جعفر باشا عن امارته ، وحاربه لتمرده وليوله الاستقلالية ٠

ومن ناحية ثانية كان العثمانيون يشتهرون بدقة التسجيل وباهتمامهم بالسجلات والدفاتر الحكومية ، وذلك منذ قيام دولتهم ،[1] واتضح هذا بصورة كبيرة فى اليمن ، وكان الولاة والعمال يهتمون بتسجيل التقسيمات الادارية المختلفة ، كذلك عنوا بتسجيل أسماء ممولى الخزينة العامة من ملاك وفلاحين أو تجار أو غيرهم ، كما حرصوا على تسجيل اتفاقيات الصلح التى يتم ابرامها بينهم وبين أمراء اليمن ، حيث كان يتم تسجيل الصلح فى اجتماع كبير يحضره العلماء والأعيان وكبار الضباط وغيرهم ، ثم يدون محضر بذلك الاجتماع يوقع عليه الشهود لتوثيقه[2] ٠

واعتنى سنان باشا سنة ١٠١٣ هـ برسم دفتر فى أوقاف صنعاء[3] ومساجدها ، وكان على كل وال يجرى عزله أن يعد دفاتره للوالى الجديد حتى يحاسبه على المصروفات والواردات ، ويقدم له مالديه من أموال وسلاح قبل رحيله ، وكثيرا ما قتل الوالى المعزول دفترداره قبل رحيله ، حتى لايظهر للوالى الجديد ما ارتكبه من ظلم وغش ، كما فعل سنان باشا بالأمير حسين دفترداره قبل رحيله[4] ٠

ومن ضمن التنظيمات الادارية التى اتبعها العثمانيون تجاه القبائل القوية التى تحتفظ دائما بتنظيماتها القبلية والتى تقطن المناطق الجبلية الوعرة ، أو المناطق البعيدة عن الزراعة المأهولة بالسكان ، والتى تكون أميل إلى الخروج على السلطة المركزية ، لأنها تدير أمورها بنفسها وفق تقاليدها الخاصة ، وكانت مصدر قلق كبير على العثمانيين ، وكثيرا ما كانوا يقومون بالغارات للحصول على حاجاتهم الضرورية نظرا لفقر أقاليمهم ، وقد خشى العثمانيون هذه القبائل لشدة بأسها ، ولانها قبائل محاربة قوية ، تؤثر فى الحركات المناهضة للعثمانيين ، لذلك اتبعت معها الدولة الأساليب السياسية

---

(١) على همت ـ أبو الفتح السلطان محمد الثانى وحياته العدلية (ترجمه من التركية محمد احسان) ص ٩٦

(٢) الموزعى ـ الاحسان فى دخول اليمن تحت ظل عدالة آل عثمان ص ٦٣

(٣) يحيى بن الحسين ـ أنباء أبناء الزمن ص ١٥٠

(٤) عيسى بن لطف الله ـ روح الروح جـ ٢ ص ٨٦

أحيانا لتقريبها إليهم ، كما قدم بعض الولاة لهم الهدايا والأموال لجذبهم إليهم ، أو منحهم ألقابا ، أو تسجيل أسمائهم فى سجلات الجيش فى اليمن ، حتى يتمكنوا من صرف المرتبات لهم ، واستعمل بعض الولاة الشدة فى اخضاع هذه القبائل ، فكانوا يأمرون بنهب قراها بعد دخول قواتهم إليها ، ويقتلون الأسرى ، ويأخذون الرهائن من الرجال والنساء ، كما فعل سنان باشا فى حروبه مع الإمام مع قبائل وادعة ٠

لكن سياسة التهدئة هذه والتى اتبعها العثمانيون كانت سياسة فاسدة ، اذ أن نتائجها كانت مؤقتة ، بل كثيرا ما كانت تؤدى إلى نتائج عكسية ، فقد كانت القبائل تميل إلى العصيان لطمعها فى الحصول على المزيد من هذه الأموال ، كما أن البعض كان يخلع طاعة العثمانيين اذا لم يحصل على المنح التى حصل عليها غيره من القبائل ٠

وقد عمد العثمانيون كذلك إلى صرف مرتبات منتظمة للقبائل التى تقطن بالقرب من المدن الهامة حتى تضمن هدوءها ، وللمحافظة على الطرق الموصلة إلى هذه المدن ، وذلك كما فعل محمد باشا مع فروع قبيلة خولان القريبة من صنعاء ، فقد قيل « ولما عرف محمد باشا من خولان صنعاء أنهم أكثروا الضرر فى الطرق والخلاف حول صنعاء ، كتب منهم ثمانمائة نفر فى الجوامك[١] فبسبب ذلك كف شرهم »[٢]

وقد استخدم العثمانيون نظام الرهائن من القبائل والأقاليم لتحقيق الأمن والهدوء فى البلاد ، ورغم أن سياسة جمع الرهائن كانت ظاهرة تقليدية فى البلاد الا أنها كانت سببا فى كره اليمنيين للعثمانيين ، لأنهم أساءوا استعمالها ، فأكثروا من عدد الرهائن التى كانوا يجمعونها ، كما أساءوا فى معاملة هؤلاء الرهائن رغم أنهم دائما كانوا من بين ذوى المكان والرفعة وسط قبائلهم ، وذلك كما فعل سنان باشا الكخيا أثناء حروب الإمام فى قبائل وادعة ، اذ أخذ من بينهم الرهائن من الرجال والنساء ، وأخذ المحاربين منهم ، وأرسلهم إلى المناطق الجنوبية من اليمن للانضمام إلى صفوف العثمانيين فى حروبهم ضد قبائل يافع وغيرها[٣] ٠

---

(١) الجوامك ـ المرتبات المقررة للجند ٠

(٢) يحيى بن الحسين ـ أنباء أبناء الزمن ص ١٤٦

(٣) الجرموزى ـ النبذة المشيرة ص ١٢٦

أما النظم الحربية التى اتبعها العثمانيون فى اليمن ، فقد نتج من اعتماد العثمانيين على القوة العسكرية فى فرض سيطرتهم فى اليمن ، أن التزموا باتباع سياسة معينة ، وهى ضرورة ارسال النجدات والامدادات إلى ولاتهم لتدعيم هذه السيطرة ، وذلك رغم عجز الدولة أحيانا عن تجهيز الامدادات القوية ، ورغم عزوف الجنود والولاة عن الذهاب إلى اليمن لكثرة الحروب به ولصعوبة الاقامة فيه ٠

وحين انشغلت الدولة العثمانية فى الميادين الأكثر أهمية كانت توكل أمر ارسال النجدات إلى اليمن لوالى مصر العثمانى ، ولكن عندما دب الخلل فى نظم الدولة انعكس على جميع ولاياتها بما فيها مصر ، مما كان سببا فى تجميع الجيوش التى يطلبها ولاة اليمن من الفلاحين وعامة الناس ، ويدل على ذلك قول محمد باشا عندما استشار أصحابه فى صلح سنة ١٠٢٨ هـ قوله « والعسكر الموجود ليس فيهم من عسكر الأروام (العثمانيين) الذى عرف بالاقدام ومارسوا الحروب غير شرذمة يسيرة »[١]

وكان تعداد جيوش العثمانيين فى اليمن فى المتوسط حوالى عشرين ألف جندى منهم خمسة عشر ألف جندى من العثمانيين ، والباقى من العرب من أهالى البلاد الذين كانوا يدخلون فى خدمة العثمانيين ، حيث كان هؤلاء يبقون فى أقاليمهم للمحافظة على الهدوء أو يحاربون بجانب العثمانيين فيها ، وكان العثمانيون يحرصون على استخدام هؤلاء للاستفادة من خبراتهم بأحوال بلادهم ، أو لخدمة أفراد الجيش أثناء الحرب أو السلم ، ويسمى الذى يقوم بالخدمة فى الجيوش باسم (الشفاليت) وهم طائفة من العرب ملفقون من كل قبيلة يأكلون العلوفة ، أى المرتبات العينية السلطانية ، ويخدمون العسكر سفرا وحضرا ويسمى الواحد منهم شفلوت[٢] ٠

وقد اهتم الولاة بانشاء الحصون ، وبتعمير القلاع وشحنها بالسلاح والعتاد ٠

وقد سبقت الاشارة إلى أن القادة العسكريين هم أنفسهم القادة الإداريون ، أما الأدوات الحربية التى استخدمها العثمانيون فى اليمن ، فكانت أحدث الأسلحة المعروفة فى ذلك الوقت ومنها المدفعية الثقيلة ، والأسلحة الخفيفة مثل البنادق ،

---

(١) يحيى بن الحسين ـ أنباء أبناء الزمن.ص ١٤٦

(٢) النهروالى ـ البرق اليانى فى الفتح العثمانى ص ٨٧

والمسدسات وغيرها ، وقد استخدم العثمانيون سلاحا يسمى كلخا[١] وهو يوضع على سنة قوس لرمى الحجارة الدقيقة ، وله رأسان مربعة التشكل يرمون خلالها هذه الحجارة فتشق رأس عدوهم ، واستخدموا الضربزنات ، وهى نوع من المدافع يحشى بالبارود ، وتشعل فيها النار فترمى قذيفتها ، والزيارات ، وهى آلة ضخمة تستخدم فى رمى النفط ، واستخدموا الرصاص والمكاحل ، وهى ما يشبه القنابل فى العصر الحديث[٢] .

أما النظم المالية ، فقد اتبع المسؤولون العثمانيون فى اليمن شتى الوسائل الملتوية للحصول على المال ، ولكن بعض الولاة مثل حسن باشا الوزير ، قد ألغوا بعض العادات السيئة التى كانت تهدف إلى الحصول على الأموال بشتى الطرق ، ومنها ما عرف باسم الرسامة ، وهى الاتاوة التى كان يفرضها حراس السجون على المساجين والرهائن ، وكان حسن باشا قد اكتشف هذه العادة عن طريق الصدفة عند سماعه لصراخ أحد المساجين أثناء تعذيبه ، لاجباره على دفع هذه الاتاوة .

ومن ناحية أخرى اتبع العثمانيون نظام الالتزام أو الضمان كما عرف فى اليمن ، لجمع الأموال المقررة على الأراضى ، وهو عبارة عن خراج ، وكان هذا النظام موضع سخط الأهالى وتذمرهم فى كثير من الأحيان ، لما كان به من ثغرات تسمح للقائمين بتنفيذه باستغلال الأهالى فى جمع ثروات خاصة بهم ، لأن العثمانيين لم يقسموا أرض اليمن إلى اقطاعيات عسكرية بل تركت الأراضى لأصحابها ، على أن يدفعوا الخراج المقرر عليها لخزانة الدولة .

والخراج قسمان : خراج مقاسمة وخراج وظيفة ، فخراج المقاسمة هو الضريبة التى تستوفى من الخارج من الأرض بواقع العشر إلى النصف حسب طاقة الأرض ، وخراج الوظيفة هو الضريبة المقررة على الأرض نفسها ، والمستوفاة سنويا ، وقيمة هذا النوع هى العشر حسب الشريعة الاسلامية ، بالنسبة لضرائب الأرض .[٣]

---

(١) الجرموزى ـ النبذة المشيرة ص ٨١

(٢) الموزعى ـ الاحسان فى دخول اليمن تحت ظل عدالة آل عثمان ص ٤٢

(٣) على همت ـ ابوالفتح السلطان محمد الثانى وحياته العدلية ص ١٢٤

وقد لجأ العثمانيون إلى نظام الالتزام منذ عهد السلطان محمد الثانى سنة ١٤٥١ ـ ١٤٨١ م . وذلك لضمان تحصيل الضرائب كاملة ، وكان حكام الأقاليم هم الذين يلتزمون أحيانا بجمع الخراج ، فكان هؤلاء يبيعون بالتالى لغيرهم وهكذا ، وكان جميع هؤلاء يحرصون على جمع الثروات الكبيرة من وراء بيع التزاماتهم ، أو من وراء القيام به ، مما كان يزيد فى النهاية من الأعباء على عاتق الفلاح ويزيد من متاعبه .

ولهذا فقد كان من المحاسن التى أتى بها حسن باشا ثم جعفر باشا بعض الأعمال الاصلاحية فى هذا الشأن لأنه استجاب لشكوى أهالى وادى زبيد ، والغى الضرائب التى تجبى على النخيل غير المثمر أو على النخيل الذى تم قطعه لاستعماله فى أغراض البناء أو غير ذلك ، وكذلك تجميد الضرائب على النخيل والبقر ، فكان الجباة يحصلون الأموال المقررة فى سجلات الدولة من أصحاب النخيل أو من ذريتهم كما هى بغض النظر عما اذا كان هذا النخيل مازال قائما أو لا ، وكذلك الحال بالنسبة للماشية « فأذهب عنهم جعفر باشا رحمه الله ، هذه المظلمة المطلوبة على المفقود ، ولم يبق عليهم الطلب الا فيما هو موجود »[١] .

أما العملة فى اليمن ، فقد اهتزت فى بعض الفترات تبعا للأحوال السياسية وتطور الأحداث ، وذلك لأن العملة فى أى بلد من البلاد هى المؤشر الصادق للأوضاع الاقتصادية فى هذا البلد ، اذ ان ارتفاع وثبات قيمة العملة يدلان على ازدهار اقتصاد البلاد واستقراره ، وعلى عكس ذلك فان انخفاض قيمة العملة واهتزازها باستمرار يدلان على مدى انهيار الأوضاع الاقتصادية ، أو عدم ثباتها ، وقد تلاعب بعض الولاة العثمانيين فى العملة ، اذ كان هؤلاء يعمدون إلى إنقاص قيمة الذهب والفضة عند سك العملات المختلفة ، ثم الاستيلاء على هذه الفروق ، وذلك طمعا فى تكوين الثروات الخاصة ، وكان التلاعب فى العملة وغشها يؤدى إلى الاضرار بأحوال الأهالى الاقتصادية ، وذلك كما حدث فى عهد سنان باشا الكخيا ، حيث ضرب السكة التى عرفت باسم المناقير السنانية[٢] .

---

(١) الموزعى ـ الاحسان فى دخول اليمن تحت ظل عدالة آل عثمان ص٤١ .

(٢) الموزعى ـ الاحسان فى دخول اليمن تحت ظل عدالة آل عثمان ص٤٧ .

ولكن تغير السكة من حين لآخر كان يؤدى إلى الاضرار بالناس ، فقد ذكر يحيى ابن الحسين عن سنان باشا الكخيا قائلا : « ومما جرى من سنان فى اليمن تغير السكة حتى أضر بالناس ضررا عظيما ، فان السكة لا ينبغى تغيرها عن حالة واحدة ، وكذلك الزيادات فى المكاييل والموازين يحصل بسببه الخلل »[1] ٠

وكان رد الفعل الطبيعى عند الأهالى الاعراض عن تعاملهم بها ، وذلك كما فعلوا مع السكة التى ضربها محمد باشا أثناء ولايته لليمن ، وأصر الأهالى على التعامل بالسكة القديمة « حتى إن أهل البوادى كانوا يشترطون فى قيم سلعهم سكة قديمة »[2] أما العملة التى كانت مستعملة فى هذه الفترة فهى العملة القديمة المعروفة قبل الحكم العثمانى مثل الدرهم ، والبقشة ، حرف ، حرف أحمر ، القفلة ، الكبير ، القرش ، الفضة ابومشط ، وكان يضاف إلى أسماء هذه العملات لفظ عثمانى أحيانا تعبيرا على أنها ضربت فى العصر العثمانى ، وهناك بعض النقود التى ضربها الولاة العثمانيون أنفسهم ، خلال حكمهم وسميت بأسمائهم مثل المناقير السنانية وهى من النحاس كبيرة الحجم ، وكان كل منقار منها يساوى أربع قفال ، والبقشة الفضة أربعة مناقير سنانية ٠

أما بالنسبة للنظم العمرانية ، فاننا عرفنا خلال فصول الرسالة بأنه طبقا لنظرية الحكم فى العصر العثمانى ، أن الاصلاحات أو الخدمات العامة فى اليمن لم يعطها الولاة الأهمية الأولى ، بل كان هؤلاء يقومون بها أحيانا للتقرب إلى الأهالى ، ولتسهيل مهمة حكمهم ، أو لزيادة موارد الأهالى لزيادة موارد خزانة الدولة ، أو من أجل رغبة بعض الحكام فى تخليد ذكراهم باقامة المنشآت الكبيرة كالمساجد والمدارس أو القلاع والحصون ، أو بمد طرق وتعبيدها إلى الاماكن البعيدة أو الوعرة ، وذلك لأن مهمة هذه الحكومة هى تحقيق الأمن والعدل فى داخل البلاد ، من ناحية والمحافظة على الحدود او توسيع رقعتها من ناحية ثانية ٠

---

(١) يحى بن الحسين ـ أنباء أبناء الزمن ص٤٩ ٠

(٢) الموزعى ـ الاحسان فى دخول اليمن تحت ظل عدالة آل عثمان ص ١٠٨

وطبقا لهذه النظرية نجد أن المؤرخين المنحازين للعثمانيين يهللون عند ذكر الأعمال الخيرية لأحد الولاة ، أو عند ذكر اهتمام هذا الوالى أو ذاك برفع احدى المظالم الادارية أو المالية ، وكانت حصيلة أعمال العثمانيين الانشائية فى اليمن كثيرة فى الواقع ، تزخر المخطوطات اليمنية التى رجعت إليها بذكر هذه المنشآت العمرانية ، وخاصة الولاة الأقوياء الذين ساد الهدوء فى ولايتهم مثل حسن باشا ، فمن مآثره بناؤه قبة البكيرية فى صنعاء ، وعرفت بهذا الاسم نسبة إلى بكير أغا متولى بنائها ، وكانت مبتكرة ولم يسبق إلى مثلها أحد ، وفى سنة ١٠٢٩ هـ . أكمل محمد باشا عمارة مسجد طلحة ومنارته المشهورة ووسعه فصار جامعا فيه منبر وفرشه بأجمل الفرش[١] واهتم سنان باشا سنة ١٠١٣ هـ . بتعمير المساجد وبناء الأضرحة والتكايا والمدارس والربط[٢] .

وكان يرتبط بالاهتمام ببناء المساجد أو تجديد القائم منها ، القيام ببعض الأعمال الخيرية ، ذات الصفة الدينية ، مثل قيام الولاة بزيارة الأضرحة والاشتراك فى الاحتفالات الدينية أو الاهتمام بالمحمل اليمنى ، ومن ذلك اهتمام محمد باشا بتجهيز المحمل ، غير أن أعمال الولاة الانشائية لم تقف عند حد تعمير المساجد أو الأعمال الخيرية بل اهتموا أيضا باصلاح الطرق والمدرجات وبناء الجسور للمارة على مياه تمر ببعض طرقها ، فقد أصلح سنان باشا مدرج نقيل شهارة من وادى رجم إلى الباب الغربى من شهارة ، ورصه بالحجارة المحكمة[٣] .

ولم يقتصر القيام بالأعمال الخيرية والانشائية على الولاة فقط ، بل كان عمال المدن والأقاليم يقومون بدورهم بتنفيذ مثل هذه الأعمال فى داخل مناطقهم ، وذلك مثل ما فعل محمد بن سنان سنة ١٠٢٢ هـ . فى ولاية جعفر باشا ، من بناء الساقية فى مدينة تعز ، وهى ذات مياه عذبة وجعلها سبيلا لاسقاء الناس ، وجعل بها حوضا يجتمع فيه الماء لشراب البهائم والمواشى[٤] .

---

(١) عيسى بن لطف الله ـ روح الروح جـ ٢ ص ١٠١
(٢) الموزعى ـ الاحسان فى دخول اليمن تحت ظل عدالة آل عثمان ص ٤٦
(٣) الموزعى ـ الاحسان فى دخول اليمن تحت ظل عدالة ال عثمان ص ٤٦
(٤) الموزعى ـ الاحسان فى دخول اليمن تحت ظل عدالة آل عثمان ص ٤٨

كما اهتم الولاة العثمانيون بانشاء السماسر لفائدتها المالية والاجتماعية ، فقد عمر سنان باشا السمسرة المشهورة بمدينة تعز حيث « جعلها سبيلا للمسافرين ، ومأوى للنازلين ، وجعل فيها كنّاسا،وسقّاء وسرّاجا دائما ، وجعل من خارجها الدكاكين ووقفها على مصالحها ، وجعل أجرة خدامها من كراءالدكاكين »[1] ٠

ونحن نلاحظ أن مدينة تعز كان بها اهتمام عظيم عند العثمانيين لأهميتها بالنسبة للمناطق الجنوبية ، حيث أقاموا بها الكثير من المبانى والقصور الضخمة واهتموا بتعمير المدارس والمساجد الموجودة بها ، وعملوا على تسوية طرقها على شكل مدرجات وأدخلوا المياه بعد حفر القنوات الموصلة إليها من جبل صبر القريب منها ، وغير ذلك من الأعمال التى أدت إلى ازدهارها نظرا لأهميتها الاقتصادية فى زراعة البن ٠

هذه لمحة من أبرز النظم العمرانية والادارية والمالية ، التى سلكها العثمانيون فى اليمن ، ورغم مرونة نظم الحكم العثمانى وخاصة فى فترة نمو الدولة ، وقدرة الدولة على أن تستوعب النظم التى وجدتها فى البلاد المفتوحة ، الا أنه كانت فى هذه النظم بعض الثغرات التى حاول منها بعض الولاة العثمانيين خلال فترة ضعف الدولة ، أن يجدوا منها طريقا للظلم والفساد فى اليمن ، وبذلك نجد أن بعض الولاة العثمانيين قد مهدوا الطريق من حيث لا يدرون لقيام دولة الامامة فى اليمن ، اذ صاحب ضعف الدولة العثمانية وعجزها عن البقاء فى اليمن ، نمو قوة يمنية جديدة هى الامامة الزيدية التى استطاعت أن تفرض وجودها فى اليمن خلال المعارك الطويلة التى خاضتها ضد العثمانيين ، حتى استطاعت أن تحل محل العثمانيين عند خروجهم من اليمن ٠

وأخيرا فانه يمكن القول بأنه كما كان لدى العثمانيين ما شغلهم عن اليمن أو ما أضعفهم عن البقاء به ، أو الرجوع إليه فى ذلك الوقت ، فقد كان لدى اليمنيين ما دفعهم إلى محاربة العثمانيين حتى اضطروهم إلى الخروج من بلادهم ، وبذلك جاءت إمامة الامام القاسم كدور جد خطير فى تاريخ اليمن ، وفى تاريخ شبه الجزيرة العربية ، بل وفى تاريخ الدولة العثمانية ٠

---

(١) الموزعى ـ الاحسان فى دخول اليمن تحت ظل عدالة آل عثمان ص ٤٦

الملاحق

الملحق الأول

السلاطين العثمانيون الذين عاصروا *
عهد الإمام القاسم بن محمد

١٠٠٦ - ١٠٢٩ هـ
١٥٩٨ - ١٦٢٠ م

١- السلطان محمد الثالث [١٠٠٣ – ١٠١٢ هـ
١٥٩٥ – ١٦٠٣ م]

٢- السلطان أحمد الأول [١٠١٢ – ١٠٢٦ هـ
١٦٠٣ – ١٦١٧ م]

٣- السلطان مصطفى الأول [١٠٢٦ – ١٠٢٨ هـ
١٦١٧ – ١٦١٨ م]

٤- السلطان عثمان الثاني [١٠٢٨ – ١٠٣١ هـ
١٦١٨ – ١٦٢١ م]

---

* اعتمدنا فى كتابة الملحق الأول على مخطوطة : محمد بن محمد أبى السرور- المنح الرحمانية فى الدولة العثمانية ص ٧٥ ، ٥٩ ، ٥٢ ، ٧٢

الملحق الثاني

الولاة العثمانيون في اليمن في عصر الإمام القاسم بن محمد *

١ـ حسن باشا [٩٨٨ – ١٠١٣هـ / ١٥٨٠ – ١٦٠٥م]

٢ـ سنان باشا [١٠١٣ – ١٠١٦ هـ / ١٦٠٥ – ١٦٠٧ م]

٣ـ جعفر باشا [١٠١٦ – ١٠٢٥ هـ / ١٦٠٧ – ١٦١٦ م]

٤ـ محمد باشا [١٠٢٥ – ١٠٣١ هـ / ١٦١٦ – ١٦٢١ م]

---

* محمد بن محمد أبى السرور ـ المنح الرحمانية فى الدولة العثمانية (مخطوط) ص ٧٥ ، ٥٩ ، ٥٢ ، ٧٢

الملحق الثالث

أولاد الإمام القاسم بن محمد

الإمام القاسم بن محمد (١)

٩٦٧ - ١٠٢٩هـ

١٥٥٩ - ١٦٢٠م

محمد	الحسن	الحسين	أحمد	علي	اسماعيل	يحيى	يوسف	عبدالله
(الإمام المؤيد)					(الإمام المتوكل على الله)			
(٩٩٠-١٠٥٤)	(٩٩٤-١٠٤٨)	(٩٩٩-١٠٥٠)	(١٠٠٧-١٠٦٦)	(٩٩٦-١٠٢٣)	(١٠١٩-١٠٧٩)	(ت ١٠٤٣هـ-١٦٣٤م)		

(١) اعتمدنا فى كتابة الملحق الثالث على مخطوطة الجرموزى ـ النبذة المشيرة ، كتاب الواسعى ، فرجة الهموم والحزن فى حوادث وتاريخ اليمن ، كتاب المحبى نفحة الريحانة جـ ٣

ملحق خاص بالمراجع

رأيت أن أقدم تحليلا موجزا لمصادر ومراجع هذه الرسالة ، لأنه يصعب فى الحقيقة الحديث عن مصادر هذا البحث حديثا مختصرا ، كما أنه من الصعب الإسهاب فى تحقيق جميع المراجع ، فالمخطوطات التى اعتمدت عليها فى رسالتى كانت تمثل العمود الفقرى لها ، اذ لولاها ما أمكن كتابة هذه الرسالة ، أو التفكير فى كتابتها ، لأن هذا البحث جديد فى الكتابات الحديثة .

وهذا البحث أثراه مجموعة من المخطوطات النادرة ، عكفت على دراستها وتحليلها ، منها مخطوطة اللآلىء المضيئة للشرفى ، وكذلك النبذة المشيرة للجرموزى .

وتقوم أهمية هذه المخطوطات على أساس أن كتابها قد عاصروا تلك الأحداث التى تناولها البحث ، أو أنهم عاشوا فى فترات تلى تلك الأحداث مباشرة ، ولذلك ذخرت تلك المخطوطات بالتفصيلات المطولة التى ساعدتنى على كتابة هذه الرسالة ، وعلى فهم أبعادها والظروف التى أحاطت بها .

لكن قبل الحديث عن كل مخطوطة على حدة ، لابد أن نعرف أن هناك سمات عامة شملت مجموعة المخطوطات التى استخدمتها ، وهى أن هذه المخطوطات اتصفت بوجه عام بضعف الأسلوب والركاكة ، والميل إلى السجع فى أغلبها ، كذلك امتلأت بالكثير من الألفاظ العامية ، وذلك لانحطاط اللغة فى ذلك العصر .

ومن ناحية أخرى ، تشابهت هذه المخطوطات فى رداءة الخط الذى كتبت به حتى اضطررت إلى استخدام آلات التكبير وجهاز للقراءة وصبرت على قراءة هذه المخطوطات لكى أستفيد منها وأفيد ، كما أن ناسخى هذه المخطوطات يغفلون وضع الكثير من النقط على الحروف ، مع عدم استخدام الهمزات مما كان يجعلنى أفسر الكلمة عدة تفسيرات حتى أصل إلى المعنى المطلوب ، فكان ذلك يأخذ من الجهد والوقت الكثير .

وقد التزمت هذه المخطوطات بطريقة الحوليات ، وهى الطريقة التقليدية فى تدوين التاريخ فى العالم الاسلامى حتى ذلك الوقت ، مما كان يؤدى إلى تفتيت الأحداث التاريخية بين عدد من السنين ، بالاضافة إلى أن أغلب هذه المخطوطات كتبت بأقلام منحازة ، اذ كان لكل مؤلف من مؤلفيها موقف خاص من الأحداث التى عاصرها فقد انحاز البعض إلى جانب العثمانيين ، وانحاز البعض الآخر إلى جانب الزيديين ، مما أدى إلى صعوبة الاستفادة من هذه المخطوطات ، كما أدى إلى ضرورة الحذر الشديد والتريث عند الرجوع إليها ، حتى أتخلص من نزعات الرضى أو السخط فى الأخذ منها ·

كما أن هذه المخطوطات جميعها اهتمت بالجانب السياسى دون الاهتمام بالنواحى الاقتصادية أو الاجتماعية السائدة فى الدولة العثمانية أو الدولة القاسمية إلا ما جاء عابرا فى قصص تروى فيها دون القصد من أنها ناحية اجتماعية أو اقتصادية ، بالاضافة إلى أن تلك المخطوطات قد امتلأت بالمدح أو الذم للقوى المعاصرة وقتذاك ، اذ كان ذلك من طابع هذا العصر الذى نحن بصدد الحديث عنه ، فنجد أن من انحاز إلى جانب العثمانيين يطنبون فى مدح السلاطين والولاة ، ويطلقون عليهم الألقاب العظيمة ، ويبالغون فى وصف أعمالهم وفى تمجيدهم إلى حد يبعث الملل مثل مخطوطة الموزعى ، « الاحسان فى دخول اليمن تحت ظل عدالة آل عثمان » وفى نفس الوقت يكثرون من مهاجمة القوى الأخرى بنعوت مبالغ فيها حتى تدفع المرء إلى الشك فى الأخذ بتلك الاتهامات ·

كذلك فعل من كتب بأقلام زيدية فقد نعتوا العثمانيين بصفات الكفر والإلحاد والخروج على الدين ، وأخذوا يسفهون أعمالهم ويحقرونهم ويطلقون عليهم الظلمة ·

كما أننا نجد أن أكثر من كتب هذه المخطوطات من رجال الدين والفقهاء ، والقضاة والوعاظ وغيرهم ، فقد كان رجال الدين بوجه عام يمثلون الطبقة المثقفة فى ذلك العصر ، وكانوا هم الذين يكتبون التاريخ ويؤلفون فى نواحى المعرفة الأخرى ·

كذلك التزم مؤلفو هذه المخطوطات بالمنهج السائد فى تلك القرون ، فقد كان مؤلفو هذه المخطوطات يعمدون إلى توثيق المعلومات التى يسوقونها فى مخطوطاتهم ، والتى لم

يعاصروها ، فيذكرون فى مقدمتها المراجع التى نقلوا عنها ، مع الاشارة بنظرة فاحصة إلى أهمية كل منها ، أما الأحداث التى عاصروها فانهم يعمدون إلى ذكر الأشخاص الذين رووا هذه الأحداث ، فيشيرون إلى هؤلاء الأشخاص بقولهم : حدثنى فلان ، إلى غير ذلك من تلك العبارات الدالة على المصادر ، أما الأحداث التى شاهدوها بأنفسهم فكانوا يعمدون إلى الاسهاب فى وصفها ، مع ذكر الشخصيات الكبيرة التى احتكوا بها .

كما حرص هؤلاء المؤلفون فى مقدماتهم على ذكر المنهج الذى التزموه فى كتاباتهم ، فيوضحون الغرض الذى دفعهم إلى الكتابة ، سواء كان غرضا شخصيا مثل تكليف أحد الولاة لهم بكتابة تاريخ اليمن ، أو جزء منه ، أو حتى للتقرب إلى هذا الوالى أو ذاك ، أو مثل الدفاع أو الهجوم على إحدى القوى المعاصرة حينذاك ، أو لتقديم العظة والاعتبار للمسلمين الذى كان من أهم الأغراض لكتابة التاريخ عند مؤرخى المسلمين وقتئذ .

ثم يواصل هؤلاء توضيح منهجهم فيذكرون فى مقدماتهم أيضا الطريقة التى قسموا بها مخطوطاتهم إلى أبواب وفصول ، ويوضحون أسباب هذا التقسيم وأسباب إبرازهم لبعض الأحداث دون البعض الآخر ، وأسباب تمسكهم بطريقة الحوليات .

غير أن هذه النقائض والملاحظات جميعها لم تقلل من أهمية هذه المخطوطات بالنسبة لموضوع الرسالة ، فقد تميزت بوفرة مادتها ، وباتصال هذه المادة بموضوع البحث مباشرة ، وبتنوع وجهات نظرها .

فرغم عيوب كتابة التاريخ على طريقة الحوليات على سبيل المثال ، فان هذه الطريقة نفسها تعطى الفرصة لذكر الكثير من التفصيلات التى لاغنى عنها لتوضيح الصورة العامة لأحداث تلك الفترة ، مما كان يساعد باستمرار على توضيح وجهات النظر المختلفة مما كان يعمق فى النهاية فهمنا لتطور الأحداث .

لذلك يمكن أن نحلل كل مخطوطة على حدة لأن كلا منها كانت تتميز بمميزات خاصة مهما صغر حجمها أو قلت مادتها ، وسأبدأ بالأهم فالمهم : وأولى هذه المخطوطات هى مخطوطة « النبذة المشيرة إلى جمل من عيون السيرة فى أخبار المنصور

بالله القاسم بن محمد بن على » لمؤلفها الجرموزى : مطهر بن محمد بن أحمد بن عبدالله ابن محمد بن المنتصر أبوعلى الشريف الحسنى الجرموزى ولد سنة ١٠٠٣ هـ ـ ١٥٩٥ م ٠ وتوفى سنة ١٠٧٧ هـ ـ ١٦٦٧ م ٠ وله تاريخ جمع فيه أحوال الإئمة الثلاثة الامام القاسم وولديه المؤيد والمتوكل على الله اسماعيل ذكر فيه كثيراً من وقائعهم ، وأحوالهم ومكاتباتهم ، والمؤلف الثانى له : الجوهرة المضيئة فى تاريخ الخلافة المؤيدية ، وقد حضر تولى الامام المؤيد ، وله أيضا « سيرة الامام المتوكل على الله اسماعيل » ٠

تولى الجرموزى على بلاد عتمة فى عهد الامام القاسم بن محمد ، وكان أحد قواد جيشه ، واحتوى مخطوط النبذة المشيرة على رسائل للامام القاسم للأفراد والجماعات ، وعهود الامام وتعيينات الأشخاص فى بعض الأقاليم ، وهى تظهر رأيه فى أنه لا يتولى هذه المناصب الاّ أهل البيت ، وفيها قصائد بمناسبة النصر والرثاء ، كما احتوت على أهم مؤلفات الامام القاسم ومناسباتها وأعمال الامام العمرانية ، كما قسم دعوة الامام القاسم إلى أربع نهضات ، حتى انتهى إلى النهضة الرابعة بوفاته سنة ١٠٢٩ هـ ٠

واعتمد الجرموزى فى هذه المخطوطة على ماجاء فى مخطوطة اللآلىء المضيئة للشرفى والتى سنتكلم عنها بعد ذلك ، واعتمد كذلك على مخطوطة روح الروح لعيسى ابن لطف الله ، وبعض الأحداث التى رآها هو بنفسه أو أنه نقلها عن لسان ولد الامام القاسم محمد (المؤيد) ٠

واتصفت مخطوطة النبذة المشيرة بعنف لهجتها ، وشدة معارضتها للعثمانيين ، كما اعتنت هذه المخطوطة بالكثير من التفصيلات التى تدل على قرب مؤلفها من الأحداث ، ولا غرابة فى ذلك اذ أن مؤلفها من كبار اتباع الامام القاسم وأولاده ، وقد شاركوه فى دعم دعوته ، وبالاضافة إلى ذلك فانه قد حرص على ذكر أسماء من أخذ عنهم الأحداث التى لم يشاهدها وجميع هؤلاء كانوا من قادة جيش الامام القاسم أو من كبار علماء الزيدية ، أو من رؤساء القبائل الذين انضموا إلى الامام ، أى ممن كانوا يشاركون الأحداث عن كثب ٠

كانت هذه المخطوطة هى الركيزة الأولى التى اعتمدت عليها فى رسم الاطار العام لرسالتى ، واعطتنى فكرة واضحة عن أعمال الإمام القاسم ونصائحه ، وتمسكه بتعاليم

الاسلام ، وقد بذلت مجهودا كبيرا لقراءة هذه المخطوطة ، لأنها كانت الأولى بالنسبة لى فى قراءة المخطوطات مما استغرق منى وقتا طويلا وذلك يرجع لرداءة الخط من جهة وانها كانت على « ميكروفيلم » ، مما اضطرنى إلى استعمال آلة القراءة لساعات طويلة ، وكذلك طولها من حيث الكم حيث بلغ عدد صفحاتها حوالى ثلاثمائة صفحة تقريبا ، ولكن رغم ذلك تغلبت على صعوبتها بالصبر والمثابرة واستطعت أن أخرج منها بنتائج قيمة عرضتها فى نتائج وتحليل هذه الرسالة ، وتعتبر رسالتى هذه دون مبالغة وكأنها نشر لهذه المخطوطة ٠

المخطوطة الثانية : اللآلىء المضيئة فى أخبار الأئمة الزيدية ومقتصدى العترة الزكية ومن عارضهم من سائر البرية ، لمؤلفها أحمد بن محمد بن صلاح بن محمد بن أحمد ابن محمد بن القاسم بن يحيى بن الأمير داود ، المعروف بالشرفى ولد سنة ٩٧٥ هـ وتوفى سنة ١٠٥٥ هـ ٠ بدأ كتابة هذا المخطوط سنة ١٠٢٨ هـ ٠ وله مصنفات منها : شرح الأساس ، وشرح الأزهار ، فى أربعة مجلدات وله أشعار ، وهو تلميذ للامام القاسم ابن محمد ٠

تكلم فى هذه المخطوطة عن ستة من الأئمة الزيدية من بينهم الامام شرف الدين وابنه المطهر ، والامام القاسم بن محمد ، والامام المؤيد بالله والحسن بن القاسم ، والحروب التى خاضوها ضد العثمانيين ، كما ذكر عن دولة الشراكسة ، وحكام آل عثمان ، وكيفية فتح إقليم اليمن ٠

واعتمد فى تأليف هذه المخطوطة كما ذكر فى مقدمته لها ، على قصيدة السيد صارم الدين بن ابراهيم بن محمد التى عارض بها قصيدة البسامة وهى شرح حافل فى ثلاثة مجلدات ، كما اعتمد على مشاهداته الخاصة لأنه شاهد أكثر الأحداث بنفسه ٠

وفى ذلك يقول فى مقدمة المخطوطة : أما بعد ، فقد ذكرنا فى الجزأين الأولين من الكلام ما عرض ذكره لنا من حوادث الزمان ، وتقلب الدهر ، لما انتهى شرح ما ذكره السيد ابراهيم بن محمد فى البسامة ،وذلك ما نتج من الحوادث إلى زمانه وزمان مصنف الشرح وهو الفقيه محمد بن على الرجيف الصعدى ، وألحق بعد ذلك فى الحوادث المتأخرة السيد العلامة داود بن الهادى بن احمد بن المهدى بن الحسن بن على ابن أمير

المؤمنين المؤيد أبياتا ضمنها بعض الحوادث المتأخرة وشرحها ٠

وكانت لهذه المخطوطة أهميتها أيضا بالنسبة للرسالة ، لأنها كانت تفسير ما غمض علىّ فى مخطوطة النبذة المشيرة ، كما أن كاتبها كان يكتب الأحداث ويعلق عليها ويعللها ولم يكتف بسردها فقط ، بل كانت له طريقة تحليلية فى شرح الأحداث مما ساعدنى كثيرا فى معرفة وجهة نظر من عاش الأحداث وعاصرها ، ولكن رداءة الكتابة وعدم وضوحها بالاضافة إلى عدم الاهتمام بالنقاط والهمزات أخذ منى الجهد الكبير ٠

كما أننى لاحظت عند قراءتى للمراجع التى استعنت بها فى بحثى ، أن أحدا لم يأخذ عنه ، ولا أدرى هل هذا يرجع لندرة وجود المخطوطة أو لصعوبة الاستعانة بها للأسباب التى ذكرتها من قبل أو أنهم اكتفوا بمن أخذ عنه مثل الجرموزى ، ويحيى ابن الحسين فى مخطوطته « أنباء أبناء الزمن فى تاريخ اليمن » ٠

المخطوطة الثالثة : « روح الروح فيما حدث بعد المائة التاسعة من الفتن والفتوح » لعيسى بن لطف الله بن المطهر بن الامام شرف الدين اليمانى الكوكبانى ، توفى فى عهد المؤيد بالله محمد بن القاسم سنة ١٠٤٨ هـ كتب هذه المخطوطة فى ثلاثة أجزاء واختص بها الوزير محمد باشا وذكر فيه ما كان من أحداث القرن العاشر الهجرى ، ١٦ م من الفتوح كما ألف مخطوطة أخرى لمحمد باشا تسمى « النفحة اليمنية فى الدولة المحمدية » والجزء الثانى من هذه المخطوطة بدأه من سنة ٩٠١ هـ إلى سنة ١٠٢٩ هـ ٠ والجزء الثالث أكمله ابنه عن لسانه وهو يبدأ من سنة ١٠٢٩ هـ ٠ إلى سنة ١٠٦٧ هـ ٠

واتبع عيسى بن لطف الله فى كتابة مخطوطته الطريقة التقليدية فى تسجيل الحوادث التاريخية ، وهى طريقة الحوليات ، وقد ذكرت أن عيسى بن لطف الله كتب هذه المخطوطة بتكليف من الوالى محمد باشا الذى عاصر اشتداد دعوة الامام وحروبه ، لذلك كانت كتابته فى كثير من المواضع متعاطفة مع العثمانيين من ناحية ، ولكنه حافظ على تعصبه للزيديين لانتمائه إليهم ، فهو حفيد المطهر بن الامام شرف الدين ، ومن أجل ذلك عادى الامام القاسم عند بداية دعوته ، وذلك تبعا لعداوة أسرة الامام شرف

الدين لهذه الدعوة حينذاك ، لتضارب المصالح ، كما أوضحت ذلك خلال فصول الرسالة ٠

وانعكس هذا الموقف على ماجاء بمخطوطة عيسى بن لطف الله ، فقد تحيز لتاريخ أسرته كثيرا ، وساعده على ذلك أن هذه الأسرة لم تكن هى العدو الحقيقى للعثمانيين فى زمن عيسى بن لطف الله ، بل كان أغلب أفرادها قد دخلوا فى طاعة العثمانيين ، وأصبحوا من أدواتهم فى اليمن ، وفى نفس الوقت لم يعاد العثمانيين كثيرا فى كتاباته ، بل عادى الامام القاسم ودعوته عند بداية قيامها ، ثم اعتدل فى موقفه منها وخاصة بعد أن توالت انتصارات الامام على حساب العثمانيين وسيطرته على أكثر الأقاليم ، ولذلك قيل إنه كتب قصيدة مشهورة فى أواخر أيامه أرسلها إلى الامام القاسم ينفى عن نفسه ما أشيع عنه من ناحية انحيازه للعثمانيين ، يقول فيها :

ما شاقنى سجع الحمامة سحرا ولا برق اليمامة

ويظهر هذا الموقف المعتدل بجلاء فى الجزء الثالث من مخطوطته ، ولهذا نجد المحبى فى كتابه (خلاصة الأثر) ـ الجزء الثالث، ص ٢٣٦ فى ترجمة حياته يقول « وله التاريخ المشهور الذى سماه روح الروح ، صنفه فى الظاهر للأروام (العثمانيين) » ٠

المخطوطة الرابعة : أنباء أبناء الزمن فى تاريخ اليمن ، ليحيى بن الحسين ابن الامام القاسم بن محمد المتوفى سنة ١١٠٠ هـ ٠ وقد حققت هذه المخطوطة حديثا فى كتاب مختصر تحت عنوان « غاية الأمانى فى أخبار القصر اليمانى » وقد اتبع المؤلف فى هذه المخطوطة الطريقة التقليدية المعروفة بالحوليات ، حيث بدأ هذه المخطوطة من الهجرة النبوية إلى أحداث سنة ١٠٥٦ هـ ٠ كان يحيى بن الحسين أكثر اعتدالا من عيسى بن لطف الله ولم يكن متحيزا إلى جانب دون آخر ، فيتميز أسلوبه بالاعتدال والاتزان وقلة اندفاعه وانفعاله بين الأطراف المتنازعة ، وقد يرجع اعتدال يحيى ابن الحسين وموضوعيته رغم تعصبه للزيدية لانتمائه إليهم ،اذ كان حفيداً للامام القاسم ابن محمد ، الا أنه لم يعاصر التهاب الأحداث فى اليمن ، أو اشتداد العداء بين الزيديين والعثمانيين لأنه عاش بعد خروج الأخيرين من اليمن ٠

وتعتبر هذه المخطوطة من أهم المراجع التى تناولت تاريخ اليمن فى تلك الفترة ، وذلك لكثرة تفاصيلها ، ولقرب مؤلفها من الأحداث ، ولأنها كتبت بقلم مؤلف موضوعى النظرة غير متحيز ، وهذه من أهم المميزات التى يجب أن تتوفر فى المؤرخ ٠

المخطوطة الخامسة : تاريخ دولة الترك ، مؤلفها مجهول ، ولكن يظهر من أسلوبه فى كتابة المخطوطة أنه يمنى زيدى متحيز للزيدية ، وقد احتوت المخطوطة على كثير من حروب الامام القاسم وقد دافع فيها عن وجهة نظر الأئمة الزيديين ، وتحيز للدفاع عن قضيتهم ، وهاجم العثمانيين واتهمهم بالخروج على الدين ، وألصق بهم الكثير من التهم الشائنة ، وكان تحيزه واضحا فى كل المخطوطة ٠

وقد بدأ مخطوطته من سنة ٩٨٦ هـ إلى سنة ١٠٥١ هـ ٠ أى من إمامة الحسن ابن على بن داود إلى عهد الحسن بن القاسم بن محمد ٠

المخطوطة السادسة : الاحسان فى دخول اليمن تحت ظل عدالة آل عثمان ، للقاضى شمس الدين عبدالصمد بن اسماعيل بن عبدالصمد الشهير بالموزعى ـ لم يعرف تاريخ وفاته ـ كان نائب الشريعة فى مدينة تعز ، وقام بالتدريس بها على مذهب الامام محمد بن ادريس أى المذهب الشافعى ٠

كتب هذه المخطوطة فى عهد السلطان عثمان الثانى سنة ١٦١٨ م ـ ١٦٢٢ م ٠ وقد كتب مخطوطته للتقرب من حاكم تعز الأمير محمد بن سنان باشا الكخيا ، وقد اتضح انحيازه بشكل كبير للعثمانيين سواء فى الأسلوب أو طريقة معالجته للموضوعات أو الطريقة التى عرض بها الأحداث التى حاول ابرازها ، وقد يرجع ذلك إلى اتباعه للمذهب السنى الذى يعتنقه العثمانيون ٠

غير أننى أرى أنه بجانب اتباعه للمذهب السنى فهناك أسباب شخصية ومادية دفعته للوقوف فى جانب العثمانيين ، اذ أنه كما ذكرت يشغل منصب قاضى شريعة تعز من قبل العثمانيين ، كما أنه كتب هذه المخطوطة للتقرب من محمد بن سنان حاكم تعز ٠

ولكن كتاباته لم تقف عند حد الترجمة لهذا الحاكم ، بل اهتم بدراسة تاريخ اليمن منذ عهد السلطان عثمان الأول إلى عهد الأمير محمد بن سنان أى فى عهد المؤلف ، لذلك نرى انحياز المؤلف واسهابه فى مدح العثمانيين إلى أقصى الحدود ، كما أن هذه

المخطوطة تكشف لنا عن الأعمال العمرانية التى قام بها الولاة العثمانيون مما أعطانا نموذجا واضحا لطبيعة الحكم العثمانى فى اليمن ولسياسة الولاة هناك من الناحية السياسية والاجتماعية والعمرانية ، ولكن هذه المخطوطة لم تذكر المقاومة اليمنية ضد حكم العثمانيين بطبيعة الحال ، ورغم ذلك يمكن أن نعتبر هذه المخطوطة كتابا تاريخيا متكاملا ذا ملامح واضحة ، رغم ما يشوبها من التحيز ومن التطويل فى بعض المواضع .

المخطوطة السابعة : اللطائف السنية فى أخبار الممالك اليمنية ، لبدر الدين ابن محمد بن اسماعيل بن محمد الكبسى الحسنى سنة ١٢٢١ هـ - ١٣٠٨ هـ - ١٨٠٦ م - ١٨٩١ م . يتميز أسلوب الكبسى بالاتزان والاعتدال سواء من جهة العثمانيين ، أو من جهة الزيديين ، بدأ كتابة هذه المخطوطة من أول ذكر عمال الرسول صلى الله عليه وسلم على اليمن إلى سنة ١٢٩٣ هـ وقد أفادتنى هذه المخطوطة كثيرا لأنها عرضت تاريخ اليمن بصورة موجزة ، مما ساعدنى على فهم بعض الأحداث التى غمضت علىَّ أو تاهت فى المخطوطات الأخرى المطولة .

وهكذا فقد أفادتنى هذه المخطوطة فى توضيح الصورة العامة لأحداث دعوة الامام القاسم بن محمد واكمال بعض تفاصيلها الهامة ، وان كانت تعتبر أقل أهمية من المخطوطة الأولى والثانية اللتين كانتا الركيزة الأولى فى الرسالة .

المخطوطة الثامنة : « المنح الرحمانية فى الدولة العثمانية » لمحمد بن محمد أبى السرور زين العابدين بن محمد البكرى الصديقى المعروف بابن ابى السرور سنة ١٠٠٥ - ١٠٨٧ هـ - ١٥٩٦ م - ١٦٧٦ م .

ألف هذه المخطوطة بعد تأليفه للتاريخ المسمى « عيون الأخبار ونزهة الأبصار » فقد طلب منه إكمال هذا التاريخ ، وان يفرد فيه ذكر الدولة العثمانية مع زيادات يذكرها فكتب هذا المخطوط ، وخص به السلاطين العثمانيين من بعد دخول مصر فى ظل الحوزة العثمانية حتى عهد السلطان مصطفى الأول سنة ١٦٢٢ - ١٦٢٣ م واهتم بذكر ولاة مصر وبعض أعمالهم .

ورغم أن هذه المخطوطة كتبها مؤلف مصرى ، واختصت بتاريخ مصر الا أننى استفدت منها كثيرا ، وذلك لارتباط مصر باليمن فى تلك الفترة من جهة كما أنها انفردت عن غيرها من المخطوطات بمعلومات خاصة عن تجهيز الحملات من مصر إلى اليمن مثل محمد باشا مثلا الذى كان متوليا لمصر ثم نقل إلى ولاية اليمن ٠ فهذه التفاصيل لم تذكرها المخطوطات اليمنية ٠

المخطوطة التاسعة : « قرة العيون فى أخبار اليمن الميمون » لأبى الضيا عبدالرحمن بن الديبع الشيبانى الزبيدى الشافعى ، ولد فى محرم سنة ٨٨٦ هـ بزبيد ونشأ بها وحفظ القرآن واشتغل بالفقه والحساب والجبر وله مؤلفات منها « بغية المستفيد بأخبار زبيد » و« الفضل المزيد » توفى سنة ٩٤٤ هـ ٠

فى هذه المخطوطة عرض عام لتاريخ اليمن من صدر الاسلام حتى الدولة الطاهرية آخر الدول السنية فى اليمن سنة ٩٢٣ هـ - ١٥١٧ م ٠ ورغم أن تاريخ هذه المخطوطة بعيد عن موضوع بحثى إلا أننى استفدت منها فى بعض النقاط مثل كيفية دخول المذهب الزيدى إلى اليمن ، ووصول العثمانيين لأول مرة إلى شواطىء اليمن أيام السلطان عامر بن عبدالوهاب ٠

المخطوطة العاشرة : تاريخ دخول الأتراك إلى بلاد اليمن ومن ملك اليمن من الطوائف المختلفة فى زمن الاسلام ، مؤلفها مجهول ، تحدث فيها المؤلف عن الولاة العثمانيين فى اليمن من أول دخول حسن الكردى سنة ٩٢٢ هـ ٠ إلى زبيد ، إلى الوالى فضل الله باشا سنة ١٠٣١ هـ ٠ وبها بعض الحكايات والاشعار والنوادر كما تحدثت المخطوطة عن اختطاط مدينة زبيد منذ سنة ٢٠٤ إلى سنة ١٠٣٢ باختصار ، وكتبت هذه المخطوطة سنة ١٠٣٢ هـ ٠ وهى مختصرة جدا الاّ أننى قد استفدت منها فقد كنت فى حاجة إلى هذه القلة القليلة من المادة التاريخية التى جاءت فى هذه المخطوطة ٠

وأخيرا ، فلاشك أن مجموعة المخطوطات التى تمثل العمود الفقرى لهذه الرسالة كما ذكرت سابقا ، هى المصادر الأصيلة التى تتصف بأنها دراسات جادة متعمقة والتى لولاها لما استطعت كتابة هذه الرسالة والوصول إلى هذه النتائج ٠

أما المراجع العربية المطبوعة حديثا ، فلها أهميتها أيضا فى هذه الرسالة لأنها تضم كتابا تركيا مترجما وهو كتاب على همت ، وترجع أهميته ألى أن تأليفه عاصر نفس الفترة التى كتبت فيها المخطوطات التى رجعت إليها ، وقد أعطانى فكرة عن الدولة العثمانية فى استانبول ، ونظمها ،مما لم يأت فى المؤلفات التى ألفت عن الدولة العثمانية حديثا ، كما أننى كنت أود الرجوع لمراجع تركية اصيلة ، أو كتب تركية مترجمة أكثر من ذلك ، لكننى لم أتمكن لعدم توفرها فى مكتبات المملكة العربية السعودية ولصعوبة استعارتها من مكتبات استانبول .

كما تضم مجموعة المراجع الكتب التى تخصصت فى التراجم عن الشخصيات الهامة فى اليمن مثل كتاب« خلاصة الأثر للمحبى» «ونفحة الريحانة» لنفس المؤلف «والبدر الطالع» للشوكانى ،فقد كنت فى حاجة لهذه الكتب لأعطى صورة متكاملة عن الشخصيات التى أتحدث عنها فى الرسالة أو حتى للترجمة عن مؤلفى المخطوطات لما لهذه التراجم من أهمية تنعكس على كتاباتهم ، بالاضافة إلى ذلك فان هذه المراجع تضم أيضا الكتب التى كتبت بأقلام يمنية سواء من القدماء أو المحدثين ، مثل كتب الواسعى والويسى ، وعبدالله الثور ، وأحمد شرف الدين ، والعرشى .

وقد أفادتنى هذه الكتب من الناحية الجغرافية للبلاد ومواقع كل منها ، والقبائل التى تسكن اليمن .

وهناك الكتب التى تحدثت عن الدولة العثمانية نفسها ونظمها مثل كتاب« الدولة العلية » ، وقد رجعت إلى مرجع إنجليزى « تاريخ اليمن السعيد ».

A history of Arabia Felix or Yemen. by Ropert Playfair.

لأتعرف على وجهة النظر الأجنبية من موقف العثمانيين فى اليمن ، ومحاولة صد أى تدخل أجنبى فى البحر الأحمر باعتباره بحيرة اسلامية .

وهذه المراجع تأتى فى المرتبة الثانية بعد المخطوطات لأن مؤلفيها قد نقلوا عن غيرهم ، أو أنها قد أخذت مادتها من المراجع الأصلية التى رجعنا إليها نحن أيضا ، وهذه المراجع أغلبها يعالج موضوعا معينا ، أو نقطة محددة ، لذلك لم أعتمد عليها إلا فى نقاط متفرقة كما يتضح فى فصول الرسالة .

وأخيرا ، فرغم تقصيري فى التعريف عن جميع مراجع الرسالة كل على حدة أو بشيء من الاستفاضة لضيق المجال هنا ، لأن هذا يحتاج إلى بحث خاص يضيق المجال عن تناوله بهذه الصورة ٠

إلا أنني يمكن أن أقول بأن مصادر ومراجع هذه الرسالة تتصف بالأصالة ، وبأنها دراسات جادة متعمقة ، وهذا لاينفى أن بعضها كان قليل الأهمية ، أو يعتبر من المراجع الثانوية ، غير أنها تضافرت فى معالجة موضوع الرسالة ، وساعدتنى فى كتابة فصولها ونقاطها ، وجعلتنى أتوصل فيها إلى نتائج هامة تمثل إضافة ، ألا وهى نظم الدولة القاسمية التى لم يعرها أحد من قبل الاهمية ٠

فلعلى أكون وفقت فيا أردت أن أظهر من الحقائق ، وفيا أبديت من آراء وتعليقات ، فانى لم أبتغ غير الحقيقة ، ولم أستهدف الا المنفعة العامة ٠٠

* * *

ثبت المراجع

أ- المخطوطات

١ ـ ابن أبى السرور :

محمد بن محمد أبى السرور زين العابدين بن محمد البكرى الصديقى المعروف بابن أبى السرور ـ ١٠٠٥ ـ ١٠٨٧ هـ ـ ١٥٨٦ م ـ ١٦٧٦ م :

* المنح الرحمانية فى الدولة العثمانية ، أفرده من كتاب عيون الأخبار ونزهة الأبصار ، وزاد عليه ، رقم المخطوط ١١٠٥ بجامعة الدول العربية ، معهد المخطوطات العربية ٨٤٠ تاريخ

٢ ـ ابن الديبع :

عبدالرحمن بن على بن محمد الشيبانى الزبيدى الشافعى وجيه الدين المعروف بابن الديبع ٨٦٦ ـ ٩٤٤ هـ ـ ١٤٦١ ـ ١٥٣٧ م :

* قرة العيون فى أخبار اليمن الميمون ، (ميكروفيلم) بمكتبة قسم التاريخ رقم (٢) مصورة عن ميكروفيلم بالمكتبة الوطنية بباريس رقم ٦٠٥٨ .

٣ ـ الجرموزى :

المطهر بن أحمد بن عبدالله بن محمد بن المنتصر أبو على الشريف الحسنى الجرموزى ١٠٠٣ ـ ١٠٧٧ هـ ـ ١٥٩٥ ـ ١٦٦٧ م :

* النبذة المشيرة الى جمل من عيون السيرة فى أخبار المنصور بالله رب العالمين القاسم بن محمد ، فرغ من كتابتها سنة ١٠٦٤ هـ - ١٦٥٤ م (ميكروفيلم) مصور من مكتبة المتحف البريطانى رقم ٣٣٢٩ .

٤ - الشرفى :

شمس الدين أحمد بن محمد بن صلاح الشرفى ٩٧٥ - ١٠٥٥ هـ - ١٥٦٧م - ١٦٤٧ م :

* اللآلىء المضيئة فى أخبار الأئمة الزيدية ، (ميكروفيلم) مركز البحث العلمى بجامعة الملك عبدالعزيز ، مصور عن مخطوطة موجودة فى مكتبة بروزيانا فى ميلان رقم ١٠١ .

٥ - الكبسى :

محمد بن اسماعيل بن يحيى بدر الدين الكبسى الحسنى ، سنة ١٢٢١ - ١٣٠٨ هـ - ١٨٠٦ - ١٨٩١ م :

* اللطائف السنية فى أخبار الممالك اليمنية ، مكتبة القاضى محمد بن على الأكوع الخاصة بتعز رقم ٢٣٦ .

٦ - الموزعى :

القاضى شمس الدين عبدالصمد بن اسماعيل ابن عبدالصمد الشهير بالموزعى نائب الشريعة فى مدينة تعز :

* الاحسان فى دخول اليمن تحت ظل عدالة آل عثمان (ميكروفيلم) محفوظ بدار الكتب تحت رقم ٢٣٧٩ ، وهى منقولة عن نسخة (الميكروفيلم)

المحفوظة بمعهد المخطوطات العربية بجامعة الدول العربية . وهى مأخوذة عن نسخة مكتبة على أميرى باستانبول .

٧ ـ عيسى بن لطف الله ابن المطهر ابن الامام شرف الدين يحيى ، توفى سنة ١٠٤٨ هـ ـ ١٦٣٨ م :

* روح الروح فيما حدث بعد المائة التاسعة من الفتن والفتوح ، الجزء الثانى والثالث ، (ميكروفيلم) من معهد المخطوطات العربية رقم جـ ٤٠٦ تاريخ

٨ ـ المؤلف مجهول :

* تاريخ دولة الترك ، تاريخ المخطوطة سنة ١١٠١ هـ ـ ١٦٩٠ م (ميكروفيلم) محفوظة بالمكتبة المتوكلية اليمنية بالجامع الكبير بصنعاء رقم ٣٧ تاريخ

٩ ـ المؤلف مجهول :

* تاريخ دخول الأتراك الى بلاد اليمن ومن ملك اليمن من الطوائف المختلفة فى زمن الاسلام . أنهى المؤلف أحداثها الى سنة ١٠٣١ هـ فى ولاية فضلى باسا (ميكروفيلم) بمعهد المخطوطات العربية بجامعة الدول العربية رقم ١٤٥١ تاريخ

١٠ ـ يحيى بن الحسين ابن الامام
القاسم بن محمد ، توفى
سنة ١١٠٠هـ ـ ١٦٨٩م:

* أنباء أبناء الزمن فى تاريخ اليمن ، مخطوط محفوظ
بدار الكتب المصرية تحت رقم ١٣٤٧ تاريخ ٠

□□□□

ب ـ الكتب العربية

١١ ـ ابن خلدون :

* مقدمة ابن خلدون ـ القاهرة ـ دار الشعب ٠

١٢ ـ الأب انستــاس مارى
الكرملى البغدادى :

* النقود العربية وعلم النميات[١] ، القاهرة ، المطبعة العصرية سنة ١٩٣٩ م ٠

١٣ ـ أحمد حسين شرف الدين :

* تاريخ الفكر الاسلامى فى اليمن ، مطبعة الكيلانى ١٣٨٨ هـ ـ ١٩٦٨ م ٠

١٤ ـ أحمد حسين شرف الدين :

* اليمن عبــر التــاريخ ، القاهــرة ، مطبعــة السنــة المحمدية الطبعة الثانية ١٣٨٤ هـ ـ ١٩٦٨ م ٠

(١) علم النميات : هو علم تعرف به انواع النقود والرصائع التى ضربت فى أزمان مختلفة وبلاد ستى الاب انستاس ص ١٢١

١٥ ـ أحمد حسين شرف الدين :

* تاريخ اليمن الثقافى ، الجزء الرابع ، القاهرة ، مطبعة السنة المحمدية سنة ١٩٦٧ م ٠

١٦ ـ أحمد السعيد سليمان :

* تاريخ الدولة الاسلامية ومعجم الأسر الحاكمة ٠ جزأن ، القاهرة ، دار المعارف سنة ١٣٩٢ هـ ـ ١٩٧٢ م

١٧ ـ أمين دويدار :

* صور من حياة الرسول ، القاهرة ، دار المعارف ، الطبعة الثالثة ٠

١٨ ـ اسماعيل سرهنك :

* حقائق الاخبار عن دول البحار ، القاهرة ، بولاق ، الطبعة الأولى سنة ١٣١٢ هـ ٠

١٩ ـ الهمدانى :

أبو محمد الحسن بن أحمد الهمدانى المتوفى سنة ٣٣٤ هـ ٠

* صفة جزيرة العرب ، ليدن ، ١٤٨٤ هـ

٢٠ ـ الواسعى :

عبدالواسع بن يحيى الواسعى :

* تاريخ اليمن المسمى (فرجة الهموم والحزن فى حوادث وتاريخ اليمن) ، القاهرة ، المطبعة السلفية ومكتبتها سنة ١٣٤٦ هـ ـ ١٩٢٨ م ٠

٢١ ـ جاد طه ، د :
* سياسة بريطانيا فى جنوب اليمن ، القاهرة ، دار الفكر العربى سنة ١٩٦٩ م ـ ١٩٧٠ م ٠

٢٢ ـ حسين بن على الريسى :
* اليمن الكبرى ، القاهرة ، النهضة العربية سنة ١٩٦٢

٢٣ ـ السيد مصطفى سالم ، د :
* تكوين اليمن الحديث ـ القاهرة ، مكتبة سعيد رأفت ، الطبعة الثانية سنة ١٩٧١ ٠

٢٤ ـ السيد مصطفى سالم ، د :
* الفتح العثمانى الأول لليمن ـ القاهرة ، المطبعة العالمية سنة ١٩٦٩ م ٠

٢٥ ـ ساطع الحصرى :
* البلاد العربية والدولة العثمانية ، بيروت ، دار العلم للملايين ، الطبعة الثالثة سنة ١٩٥٩ م

٢٦ ـ الشوكانى : السيخ محمد بن على الشوكانى المتوفى سنة ١٢٥٠ هـ
* البدر الطالع بمحاسن من بعد القرن السابع ، جزآن ، القاهرة ، مطبعة السعادة ، الطبعة الاولى ١٣٤٨ هـ ٠

٢٧ ـ العرسى :
حسين بن أحمد العرشى :
* بلوغ المرام فى شرح مسك الختام فى من تولى ملك اليمن من ملك وامام (مخطوطة) نشرها وحققها الأب انستاس مارى الكرملى ـ القاهرة ، مطبعة البرتيرى سنة ١٩٣٩ م ٠

٢٨ ـ العقيلى :

محمد بن أحمد عيسى العقيلى :

* تاريخ المخلاف السليمانى ، أو الجنوب العربى فى التاريخ ، جزء أول فى مجلدين ، الرياض ، مطابع الرياض سنة ١٣٧٨ هـ ـ ١٩٥٨ م ٠

٢٩ ـ على همت :

* العاهل العثمانى أبو الفتح السلطان محمد الثانى فاتح القسطنطينية وحياته العدلية ، ترجمه من التركية الى العربية ، محمد احسان بن عبدالعزيز الخانجى ، القاهرة سنة ١٩٥٣ م ٠

٣٠ ـ عبدالحميد البطريق ، د :

* من تاريخ اليمن الحديث ، القاهرة ، معهد البحوث والدراسات العربية ، التابع لجامعة الدول العربية سنة ١٩٦٩ م ٠

٣١ ـ عبدالعزيز سليمان نوار ، د :

* الشعوب الاسلامية ، بيروت ، دار النهضة العربية سنة ١٩٦٣ م ٠

٣٢ ـ عبدالعزيز محمد الشناوى :

* اوربا فى مطلع العصور الحديثة ، الجزء الأول ، القاهرة دار المعارف سنة ١٩٦٩ م ٠

٣٣ ـ عبدالله بن حامد الحبيد :

* سفارة الإمام المتوكل على الله اسماعيل بن القاسم الى البلاط الملكى فى عاصمة الحبشة ٠

مقال فى مجلة كلية الشريعة والدراسات الاسلامية ،

العـدد الثالـث ، مكة المكرمـة سنـة ١٣٩٧ هـ ، ١٣٩٨ هـ ٠

٣٤ ـ فاروق عثمان أباظة ، د :

* الحكم العثمانى فى اليمن ١٨٧٢ ـ ١٩١٨ م ، القاهرة ، وزارة الثقافة ، المكتبة العربية سنة ١٣٩٥ هـ ـ ١٩٧٥ م ٠

٣٥ ـ فاروق عثمان أباظة ، د :

* السياسة البريطانية فى البحر الأحمر ، القاهرة ، الهيئة المصرية العامة للكتاب سنة ١٩٧٦ م ٠

٣٦ ـ قطب الدين النهروالى :

* البرق اليمانى فى الفتح العثمانى ، الرياض ، دار اليمامة ، الطبعة الأولى سنة ١٣٧٨ هـ ـ ١٩٦٧ م ٠

٣٧ ـ كارل بروكلمان :

* تاريخ الشعوب الاسلامية ، نقله الى العربية نبيه أمين فارس ، ومنير البعلبكى ، بيروت ، دار العلم للملايين الطبعة السادسة سنة ١٩٧٤ م ٠

٣٨ ـ لويس معلوف :

* المنجد ، بيروت ـ الطبعة العاشرة سنة ١٩٤٧

٣٩ ـ ل . ج . شينى :

* تاريخ العالم الغربى ، ترجمة محب الدين حفنى ناصف ـ القاهرة دار النهضة العربية ٠

٤٠ ـ المحبى :

محمد بن الأمين بن فضل الله بن محب الله بن محمد المحبى الحموى الدمشقى الحنفى ت سنة ١١١١ هـ ـ ١٦٩٩ م ٠

* خلاصة الأثر فى أعيان القرن الحادى عشر ، ٤ مجلدات بيروت ، دار صادر ٠

٤١ ـ المحبى :

* نفحة الريحانة ورشحة طلاء الحانة ، تحقيق عبدالفتاح الحلو ، الجزء الثالث ، القاهرة ، دار احياء الكتب العربية ، الطبعة الأولى سنة ١٣٨٨ هـ ـ ١٩٦٨ م ٠

٤٢ ـ محمد أبوزهرة :

* الامام زيد ، حياته ، عصره ، آراؤه وفقهه ، ـ القاهرة ، دار الفكر العربى سنة ١٣٧٨ هـ ـ ١٩٥٩ م ٠

٤٣ ـ محمد عبداللطيف البحراوى ، د :

* فتح العثمانيين عدن وانتقال التوازن الدولى من البر الى البحر ، القاهرة ، دار التراث ، الطبعة الأولى سنة ١٣٩٩ هـ ـ ١٩٧٩ م ٠

٤٤ ـ محمد عبداللطيف البحراوى ، د :

* حركة الاصلاح العثمانى فى عصر السلطان محمود الثانى ، القاهرة ، دار التراث ، الطبعة الأولى ١٣٩٨ هـ ـ ١٩٧٨ م ٠

٤٥ ـ محمد فريد بك المحامى :

* تاريخ الدولة العلية العثمانية ، بيروت ، دار الجيل سنة ١٣٩٨ هـ ـ ١٩٧٧ م .

٤٦ ـ مصطفى بن عبدالله
النسهير بحاجى خليفة :

كشف الظنون عن اسامى الكتب والفنون جـ ٢
وكالة المعارف ومطبعتها ١٣٦٢ هـ ـ ١٩٤٣ م .

٤٧ ـ محمد كمال الدسوقى ، د :

* الدولة العثمانية والمسألة الشرقية ، القاهرة ، دار الثقافة سنة ١٩٧٦ م .

٤٨ ـ محمد يحيى الحداد :

* تاريخ اليمن السياسى ، دار الهنا للطباعة ، الطبعة الثالثة سنة ١٣٩٦ هـ ـ ١٩٧٦ م .

٤٩ ـ محمد مختار باسا :

* التوفيقات الالهامية فى مقارنة التواريخ الهجرية بالسنين الافرنكية والقبطية ، القاهرة ، المطبعة الاميرية ببولاق سنة ١٣١١ هـ ـ ١٨٩٤ م .

٥٠ ـ نور الدين حاطوم :

* تاريخ عصر النهضة الأوربية ـ لبنان ، دار الفكر الحديث سنة ١٣٨٧ هـ ـ ١٩٦٨ م .

٥١ ـ هارولد . ف . يعقوب .
ك . س . أى ـ ترجمة
أحمد الضواحى

* ملوك شبه جزيرة العرب ، وترجم الكتاب تحت اسم (عدن وجنوب اليمن) ، الجزء الأول ، دمشق ، دار النهضة العربية ، الطبعة الأولى سنة ١٣٨٧ هـ ـ ١٩٦٧ م .

٥٢ ـ هارى . و . هازارد :

* أطلس التاريخ الاسلامى ، ترجمة ابراهيم زكى خورشيد القاهرة ، مكتبة النهضة المصرية .

٥٣ ـ يحيى بن الحسين ابن
القاسم بن محمد بن على :

* غاية الأمانى فى أخبار القطر اليانى ، تحقيق سعيد عبدالفتاح عاشور ومحمد مصطفى زباره ، الجزء الثانى ، القاهرة ، دار الكتاب العربى سنة ١٣٨٨ هـ ـ ١٩٦٨ م وهو مختصر لمخطوطة أنباء أبناء الزمن .

ج - الكتب الأجنبية

Robert L. Playfair:

A history of Arabia Felix, or Yemen.

, Amestram Philoprers St. Leonatds 1970.

فهرس

الموضوع | الصفحة

فهرس الخرائط

الخرائط	الصفحة

إصدارات إدارة النشر بتهامة

الكتاب العربي السعودي

صدر منها :

الكتاب		المؤلف
• الجبل الذي صار سهلاً		الأستاذ أحمد قنديل
• من ذكريات مسافر		الأستاذ محمد عمر توفيق
• عهد الصبا في البادية		الأستاذ عزيز ضياء
• التنمية قضية		الدكتور محمود محمد سفر
• قراءة جديدة لسياسة محمد علي باشا		الدكتور سليمان محمد الغنام
• الظمأ	(مجموعة قصصية)	الأستاذ عبد الله جفري
• الدوامة	(قصة طويلة)	الدكتور عصام خوقير
• غداً أنسى	(قصة طويلة)	الدكتورة أمل محمد شطا
موضوعات اقتصادية معاصرة		الدكتور علي طلال الجهني
• أزمة الطاقة إلى أين ؟		الدكتور عبد العزيز حسين الصويغ
• نحو تربية إسلامية		الأستاذ أحمد محمد جمال
• إلى ابنتي شيرين		الأستاذ حمزة شحاتة
• رفات عقل		الأستاذ حمزة شحاتة
• شرح قصيدة البردة	(دراسة وتحقيق)	الدكتور محمود حسن زيني
• عواطف انسانية	(ديوان شعر)	الدكتورة مريم البغدادي
• تاريخ عمارة المسجد الحرام		الشيخ حسين باسلامة
• وقفة		الدكتور عبد الله حسين باسلامة
• خالتي كدرجان	(مجموعة قصصية)	الأستاذ أحمد السباعي
• أفكار بلا زمن		الأستاذ عبد الله الحصين
• علم إدارة الأفراد		الأستاذ عبد الوهاب عبد الواسع
• الإبحار في ليل الشجن	(ديوان شعر)	الأستاذ محمد الفهد العيسى
• طه حسين والشيخان		الأستاذ محمد عمر توفيق
• التنمية وجهاً لوجه		الدكتور غازي عبد الرحمن القصيبي
• الحضارة تحدٍّ		الدكتور محمود محمد سفر
• عبير الذكريات	(ديوان شعر)	الأستاذ طاهر زمخشري
• لحظة ضعف		الأستاذ فؤاد صادق مفتي
• الرجولة عماد الخلق الفاضل		الأستاذ حمزة شحاتة
• ثمرات قلم		الأستاذ محمد حسين زيدان
• بائع التبغ	(مجموعة قصصية)	الأستاذ حمزة بوقري
• أعلام الحجاز في القرن الرابع عشر للهجرة		الأستاذ محمد علي مغربي
• النجم الفريد	(ترجمة)	الأستاذ عزيز ضياء
• مكانك تحمدي		الأستاذ أحمد محمد جمال

- قال وقلت — الأستاذ أحمد السباعي
- نبض.. — الأستاذ عبد الله جفري
- نبت الأرض — الدكتورة فاتنة أمين شاكر
- السعد وعد (مسرحية) — الدكتور عصام خوقير
- قصص من سومرست موم — الأستاذ عزيز ضياء
- عن هذا وذاك — الدكتور غازي عبد الرحمن القصيبي
- الأصداف (ديوان شعر) — الأستاذ أحمد قنديل
- الأمثال الشعبية في مدن الحجاز — الأستاذ أحمد السباعي
- أفكار تربوية — الدكتور ابراهيم عباس نتو
- فلسفة المجانين — الأستاذ سعد البواردي
- خدعتني بحبها (مجموعة قصصية) — الأستاذ عبد الله بوقس
- نقر العصافير (ديوان شعر) — الأستاذ أحمد قنديل
- التاريخ العربي وبدايته — الأستاذ أمين مدني
- المجاز بين اليمامة والحجاز — الأستاذ عبد الله بن خميس
- تاريخ الكعبة المعظمة وعمارتها — الأستاذ حسين باسلامة
- خواطر جريئة — الشيخ حسين عبد الله آل الشيخ
- السنيورا (قصة طويلة) — الدكتور عصام خوقير
- رسائل إلى ابن بطوطة (ديوان شعر) — الأستاذ عبد الله عبد الوهاب العباسي

تحت الطبع:

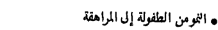
- تأملات في دروب الحق والباطل — الشيخ عبد الله عبد الغني خياط
- قصص من طاغور (ترجمة) — الأستاذ عزيز ضياء
- أيامي.. — الأستاذ أحمد السباعي
- ماما زبيدة (مجموعة قصصية) — الأستاذ عزيز ضياء
- مدارسنا والتربية — الأستاذ عبد الوهاب أحمد عبد الواسع
- دوائر في دفتر الزمن (مجموعة قصصية) — الأستاذ سباعي عثمان
- جسور إلى القمة — الأستاذ عزيز ضياء
- هكذا علمني وردزورث — الأستاذ أبو عبد الرحمن ابن عقيل الظاهري
- عام ١٩٨٤ لجورج أورويل — الأستاذ عزيز ضياء
- مشواري مع الكلمة — الأستاذ حسن عبد الحي قزاز
- وجيز النقد عند العرب — الأستاذ عبد الله عبد الوهاب العباسي
- لن تلحد — الأستاذ أبو عبد الرحمن ابن عقيل الظاهري
- الإسلام في نظر أعلام الغرب — الشيخ حسين باسلامة
- قضايا .. ومشكلات لغوية — الأستاذ أحمد عبد الغفور عطار
- كلمة ونصف — الأستاذ محمد حسين زيدان
- ملامح الحياة الاجتماعية في الحجاز — الأستاذ محمد علي مغربي
- زيد الخير — الأستاذ عبد العزيز الرفاعي
- الموت والابتسامة — الأستاذ عبد الله باقازي
- مواسم الشمس المقبلة — الأستاذ محمد علي قدس

- من حديث الكتب — الأستاذ محمد سعيد العامودي
- الموزون والمخزون — الشيخ أبو تراب الظاهري
- ألحان مغترب (ديوان شعر) — الأستاذ طاهر زمخشري

الكتاب الجامعي

صدر منها :

- الإدارة : دراسة تحليلية للوظائف والقرارات الإدارية — الدكتور مدني عبد القادر علاقي
- الجراحة المتقدمة في سرطان الرأس والعنق (باللغة الانجليزية) — الدكتور فؤاد زهران، الدكتور عدنان زهران، الدكتور عدنان زهران، الدكتور محمد عيد



- النمو من الطفولة إلى المراهقة — الدكتور محمد جميل منصور، الدكتور فاروق سيد عبد السلام
- الحضارة الإسلامية في صقلية وجنوب إيطاليا — الدكتور عبد المنعم رسلان
- النفط العربي وصناعة تكريره — الدكتور أحمد رمضان شقلية
- الملامح الجغرافية لدروب الحجيج — الأستاذ سيد عبد المجيد بكر
- علاقة الآباء بالأبناء (دراسة فقهية) — الدكتورة سعاد إبراهيم صالح
- مبادىء القانون لرجال الأعمال — الدكتور محمد إبراهيم أبو العينين
- الاتجاهات العددية والنوعية للدوريات السعودية — الأستاذ هاشم عبده هاشم
- مشكلات الطفولة — الدكتور محمد جميل منصور
- شعراء التروبادور — الدكتورة مريم البغدادي
- الفكر التربوي في رعاية الموهوبين — الدكتور لطفي بركات أحمد
- النظرية النسبية — الدكتور عبد الرحمن فكري، الدكتور محمد عبد الهادي كامل
- أمراض الأذن والأنف والحنجرة — الدكتور أمين عبد الله سراج، الدكتور سراج مصطفى زقزوق

تحت الطبع :

- الأدب المقارن — الدكتور عبد الوهاب علي الحكمي
  (دراسة في العلاقة بين الأدب العربي والآداب الأوروبية)
- هندسة النظام الكوني في القرآن — الدكتور عبد العليم عبد الرحمن خضر



صدر منها:

الكتاب	ملاحظة	المؤلف
• حارس الفندق القديم		الأستاذ صالح إبراهيم
• دراسة نقدية لفكر زكي مبارك	(باللغة الانجليزية)	الدكتور محمود الشهابي
• التخلف الإملائي		الأستاذة نوال قاضي
• ملخص خطة التنمية الثالثة للمملكة العربية السعودية	(باللغة العربية)	
• ملخص خطة التنمية الثالثة للمملكة العربية السعودية	(باللغة الانجليزية)	
• تسالي		الدكتور حسن يوسف نصيف
• مجلة الأحكام الشرعية	(دراسة وتحقيق)	الشيخ أحمد بن عبد الله القاري الدكتور عبد الوهاب أبو سليمان الدكتور محمد إبراهيم أحمد علي
• النفس الإنسانية في القرآن الكريم		الأستاذ إبراهيم سرسيق
• خطوط وكلمات	(رسوم كاريكاتورية)	الأستاذ علي الخرجي
• واقع التعليم في المملكة العربية السعودية	(باللغة الانجليزية)	الدكتور عبد الله محمد الزيد
• صحة العائلة في بلد عربي متطور	(باللغة الانجليزية)	الدكتور زهير أحمد السباعي
• مساء يوم في آذار	(مجموعة قصصية)	الأستاذ محمد منصور الشقحاء
• النبش في جرح قديم	(مجموعة قصصية)	الأستاذ السيد عبد الرؤوف

تحت الطبع:

الكتاب	ملاحظة	المؤلف
• الوحدة الموضوعية في سورة يوسف		الدكتور حسن محمد باجودة
• الأسر القرشية.. أعيان مكة المحمية		الأستاذ أبو هشام عبد الله عباس بن صديق
• الاستراتيجية النفطية ودول الأوبك		الأستاذ أحمد محمد طاشكاندي
• ألـوان		الأستاذ أحمد شريف الرفاعي
• أضواء على نظام الأسرة في الإسلام		الدكتورة سعاد إبراهيم صالح
• وللخوف عيون	(مجموعة قصصية)	الأستاذ أحمد شريف الرفاعي
• سوانح وخطرات		الأستاذ أحمد محمد طاشكندي
• الحجاز واليمن في العصر الأيوبي		الدكتور جميل حرب محمود حسين
• نقاد من الغرب		الأستاذ عبد الله عبد الوهاب العباسي
• ماذا تعرف عن الأمراض ؟		الدكتور إسماعيل الهلباوي
• جهاز الكلية الصناعية		الدكتور عبد الوهاب عبد الرحمن مظهر
• الرياضة عند العرب في الجاهلية وصدر الإسلام		الدكتور محمد أمين ساعاتي
• القرآن.. ودنيا الإنسان		الاستاذ صلاح البكري

رسائل جامعية

صدر منها :

- صناعة النقل البحري والتنمية في المملكة العربية السعودية (باللغة الانجليزية) — الدكتور بهاء حسين عزي
- العثمانيون والإمام القاسم بن علي في اليمن — الأستاذة أميرة علي المداح.
- الملك عبد العزيز ومؤتمر الكويت — الأستاذة موضي بنت منصور بن عبد العزيز آل سعود

تحت الطبع :

- الدولة العثمانية وغربي الجزيرة العربية — الأستاذ نبيل عبد الحي رضوان
- القصة في أدب الجاحظ — الأستاذ عبد الله أحمد باقازي
- الخراسانيون ودورهم السياسي — الأستاذة ثريا حافظ عرفة
- تاريخ عمارة الحرم المكي الشريف — الأستاذة فوزية حسين مطر
- نظام الحسبة في العراق.. حتى عصر المأمون — الأستاذ رشاد عباس معتوق
- افتراءات فليب حتّى، وبروكلمان على التاريخ الإسلامي — الأستاذ عبد الكريم علي باز

كتاب للأطفال

لكل حيوان قصة — الأستاذ يعقوب محمد اسحاق

صدر منها :

- القرد..
- الضب
- الثعلب
- الكلب
- الغراب
- الأرنب
- السلحفاة
- الجمل
- الذئب
- الأسد
- البغل
- الفأر..
- الحمار الأهلي
- الفراشة
- الخروف
- الفرس
- الدجاج
- البط
- الغزال
- الحمار الوحشي
- الببغاء
- الوعل
- الجاموس
- الحمامة

كتاب للناشئين

وطني الحبيب

صدر منها :

- جدة القديمة — الأستاذ يعقوب محمد اسحاق

تحت الطبع :

* جدة الحديثة — الأستاذ يعقوب محمد اسحاق
* حكايات للأطفال — الأستاذ عزيز ضياء
* قصص للأطفال — الأستاذة فريدة فارسي

المؤلفة

ولدت في القاهرة وتلقت بها تعليمها الابتدائي.

- تلقت تعليمها الإعدادي والثانوي في المملكة العربية السعودية بمدينة جدة.
- اكملت تعليمها بجامعة الملك عبد العزيز بقسم التاريخ، وتخرجت فيها عام ١٣٩٥هـ، وحصلت على درجة البكالوريوس في التاريخ الإسلامي والحضارة الإسلامية والتربية بدرجة "ممتاز" ثم تعينت في العام نفسه معيدة فيها.
- حصلت على شهادة الماجستير في التاريخ الإسلامي الحديث من كلية الشريعة بجامعة أم القرى عام ١٤٠٠هـ.
- حاليًا تعمل وكيلة لعمادة شؤون المكتبات بقسم الطالبات بمكة المكرمة ومحاضرة بقسم التاريخ والحضارة الإسلامية.



دار عكاظ للطباعة والنشر